

الموسوعة الشامية في تاريخ الجز والصلبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (١)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الرابع عشر

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع

- ١ - ابن جبير
- ٢-عبد اللطيف البغدادي (نصوص من تاريخه ورحلته)
- ٣ - ابن الاثير الجزري (الباهر في الدولة الاتابكية)

دمشق ١٤١٤ / ١٩٩٤

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

من مزايا الأدب الجغرافي العربي غناه بكتابات الرحالة ، والرحالة وإن انتموا من حيث المبدأ الى الجغرافيين ، هم في الواقع ينتمون بصورة اكثر التصاقا الى التاريخ ، لأن مدوناتهم وثائقية لهم قيمة سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة ، وفي تاريخنا العربي جاء جل الرحالة من الغرب الاسلامي ، من الاندلس وبلدان الغرب ، ومعظم الرحلات بالأصل حجازية ، ثم تفرعت فصارت شامية وعراقية وجزرية ومصرية.

لقد جاء معظم المغاربة والانداسيين برا وبحرا الى المشرق طلبا للعلم واداء فريضة الحج ، ويلاحظ ان عدد هؤلاء الذين زاروا المشرق في فترة الحروب الصليبية لم يكن كبيرا ، مقارنة بعدد الاوربيين الكبير الذين حجوا آنذاك الى الاراضي المقدسة ، وسأقوم - انشاء الله - في فترة لاحقة بترجمة كتب الرحلات الاوربية.

ومع اندلاع احداث الحروب الصليبية غادر المشرق الامام ابو بكر ابن العربي وذكرت من قبل أنني اطلعت على نسخة خطية في المغرب من هذه الرحلة ، ومع ذلك اودع ابن العربي في كتبه عددا من المشاهدات خاصة في كتابه العواصم من القواصم ، وبعد ابن العربي ، يعد ابن جبير اهم الرحالة الذين زاروا المشرق اكثر من مرة ايام نور الدين ولاثم ايام صلاح الدين وافتت رحلة ابن جبير انتباه المؤرخين والباحثين اليها منذ القرن الماضي ، وما تزال موضع اهتمام المؤرخين وسواهم وابن جبير:

هو محمد بن احمد بن جبير الكثاني الأندلسي ، البلدسي الأصل ،
الغرناطي الموطن ، ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، أو قبيل ذلك
بسنة ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وكان شاعرا
أنيبا من علماء الأندلس فقهيا وكرما نفسا وأخلاقا ، أخذ العلم عن
علماء عصره في الأندلس ثم في الحجاز والشام والعراق ، وقام ابن
جبير بثلاث رحلات الى المشرق ، كانت أولاها
سنة ٥٧ هـ / ١١٨٢ م وهي التي أودع مشاهداته خلالها في كتاب
رحلته المتداول ، ثم قام بالرحلة الثانية سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ،
وذلك انه سمع بنصر حطين ، فجاء ليقدّم تهانيه ويبيّته لصالح
الدين ، وسنرى في الروضتين لأبي شامة نص القصيدة التي نظمها
بهذه المناسبة ، وأمضى هذه المرة عامين في المشرق ثم عاد الى
غرناطة ، ثم رحل ثالثة اثر وفاة زوجته ، فحج وجاور طويلا ثم قدم
الى الاسكندرية حيث توفي فيها.

وسنرى في مواد موسوعتنا صورة الاحداث المأساوية التي عانت
منها بلاد الشام والجزيرة ومصر بعد وفاة صلاح الدين ، وذلك
بسبب الصراعات بين ابناء البيت الايوبي ، وقد حسم الصراع بعد
آمد لصالح الملك العادل ابو بكر بن ايوب - اخو صلاح الدين -
وأشار المؤرخون الى ان مصر عانت منذ السنة التي تسلم العادل
السلطة فيها من القحط الشديد ، وادى هذا القحط الى مجاعة
هائلة ، وصف بعض صورها عبد اللطيف البغدادي.

وهو موفق الدين - ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد
ابن علي وعرف بابن اللباد ، كان موصليا الأصل ، بغدادي المولد ،
ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، ونشأ نشأة جسمية حيث انصرف منذ
طفولته نحو طلب العلم في بغداد أولا ثم في دمشق ، وقد اهتم اهتماما
كبيرا بصناعة الطب ، وللطب احتراف في دمشق.

وقد حدثنا نفسه عن قدومه الى دمشق بقوله: « لما كان في سنة
خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق في بغداد من يأخذ بقلبي ،

ويملا عيني ، ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل ، فلم اجد فيها بغيتي .. ولما دخلت دمشق وجدت فيها من اعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كبيرا ، وشارك البغدادي في نشاطات دمشق العلمية ، ثم ارتحل الى معسكر صلاح الدين قرب عكا ، قال: «ثم اني توجهت الى زيارة القدس ، ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا ، فاجتمعت ببهاء الدين ابن شداد ، قاضي المعسكر يومئذ ، وقد اتصلت به شهرتي بالموصل ، فانبسط الي واقبل علي وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا اليه ، وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثالث من غير مسودة ، وقال: هذا كتاب الى بلدكم ، وذاكرني في مسائل من علم الكلام ، وقال: قوموا بنا الى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه... وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات ، فقلت: اريد مصر ، فقال السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا ، وقتل المسلمين بها ، فقلت : لا بد لي من مصر ، فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها .

فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله - وهو ابن سناء الملك - وكان شيخا جليل القدر ، نافذ الأمر ، فأنزلني دارا قد ازيحت عليها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى ارباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت الهدايا والصلوات من كل جانب... وشاع ان صلاح الدين هابن الفرنج وعاد الى القدس ، فقايتني الضرورة الى التوجه اليه... وتوجهت الى القدس فرأيت ملكا عظيما يملا العين روعة ، والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، واصحابه يتشبهون به يتسابقون الى المعروف كما قال الله تعالى: « ونزعنا ما في صدورهم من غل » واول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم ، يتذاكرون في اصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، يأخذ في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع ، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه ،

يتولى ذلك بنفسه ويذقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء ، والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ، ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المساء ، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهاراً ، فكتب لي صلاح الدين بتلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع ، واطلق لي اولاده رواتب حتى تقدر لي في كل شهر مائة دينار.

ورجع البغدادي الى دمشق ، وكان فيها عندما عاد صلاح الدين اليها ، وشهد هناك مرض صلاح الدين ووفاته وما حدث بعد ذلك قال: « ثم إن صلاح الدين دخل دمشق ، وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحم فقصد من لاخبرة عنده ، فخارت القوة ، ومات قبل الرابع عشر ، ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الانبياء ، وما رايت ملكاً حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوباً يحبه البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، ثم تفرق اولاده واصحابه ايدي سباً ، ومزقوا في البلاد كل ممزق ».

واقام البغدادي بدمشق حتى حاصرها العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وقد خرج اليه ، ورافقه الى مصر ، وظل مقيماً بالقاهرة حتى ما بعد وفاة العزيز عثمان الى استيلاء العادل على القاهرة ، وقد قام البغدادي بوصف مصر ودون اخبار المجاعة التي تعرضت اليها ايام العادل ، وبعد هذا غادر مصر الى القدس ، ثم الى دمشق ، وبعد ذلك الى حلب ، وزار بلاد سلاجقة الروم ، ثم عاد الى حلب فأقام بها مدة طويلة وخطر له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمئة السفر الى العراق ليحج ، فمرض ببغداد ، واخذ في مداواة نفسه بطبه ، فمات - كما شاء الله - في شهور سنة تسع وعشرين وستمئة (١٢٣٢ م) وكان البغدادي غزير الانتاج متنوعه ، من ذلك الحديث واللغة والطب والحساب والنبات ، والتاريخ ، ووصلنا من تاريخه بعض الذوق اخترت منها ما ارتبط بموضوع الحروب الصليبية ، كما اخترت فصلين مما وصف به المجاعة بمصر.

واعود للتأكيد إن لمواد ابن جبير ومواد البغدادي أهمية تقترب بما
كتبه العماد الاصفهاني وابن شداد ، وتغني صورة الأحداث ، لاسيما
من الجوانب غير العسكرية والسياسية.

وينتمي الى عصر ابن جبير والبغدادي مؤرخ كبير ، عاش ايضا
عصر صلاح الدين ، لابل حضر بعض معاركه ، ومع ذلك لم يكن كبير
الاعجاب بصلاح الدين ولا مؤثرا له ، لأنه جزري المولد ، موصل
الاقامة ، اتابكي الهوى ، إنه ابن الاثير الجزري .

عدت منطقة الجزيرة بين اقدم الامصار التي ازدهرت فيها
الحضارة العربية ففي مدنها توفرت المدارس والمكتبات ، وعاش فيها
الكتاب والشعراء ، وصنف الجزيريون في مختلف فنون المعرفة
بالسريانية حيناً وبالعربية في غالب الاحيان ، وسلف لنا التعرف الى
عدد من المؤرخين السريان ، ولاسيما الذين ارخوا لاحداث الحروب
الصليبية ، واكثر من السريان واعظم شهرة الذين ارخوا بالعربية ،
وتعرفنا من قبل على ابن الأزرق وتعاملنا مع مواده التي اودعها في
كتابة « تاريخ آمد وميفارقين ».

واعظم شهرة من ابن الأزرق واخصب انتاجا ابن الاثير ، وهو
عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني وقد ولد عز الدين (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
في جزيرة ابن عمر ، وكانت من أعمال الموصل ، وفيها عاش الى ان
انتقل مع والده واسرته الى الموصل سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وكان
والده من اعيان العاملين في الدولة الاتابكية بالموصل ، وغالبا ما
أشار اليه ابنه في كتاباته.

وكان لابن الاثير اخوين ، واحد اسن منه ، هو مجد ابو
السعادات المبارك ، ولد سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وعرف الاصغر
منه باسم ضياء الدين نصر الله ، وكان قسداً ولد
سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م ، واتجه كل واحد من الاخوة الثلاثة نحو

- ٦٢٥٥ -

اختصاص تميز به ، فقد شهر مجد الدين بالعلوم الدينية ، واختص ضياء الدين بالأدب ، وسيرد معنا ذكره كثيرا ، اثناء وزارته للأفضل علي بن صلاح الدين ، ومثل ضياء الدين خدم مجد الدين في ادارة الاتابكة في كتابة الانشاء بالموصل ، لكن عز الدين مؤرخنا - كما يرجح - لم يدخل في خدمة الاتابكة ولعله لم يتسلم أية وظيفة لديهم ، مع ان صلاته بهم كانت وثيقة ، ومكانته لديهم عالية حتى انه سافر لبعضهم الى بغداد وربما الى غيرها ، وتتلذذ مؤرخنا على علماء عصره وحصل على معارف واسعة خاصة في ميدان التاريخ وصنف اربعة كتب وصلتنا ونشر بعضها اكثر من مرة وهي :

- ١ - اللباب في تهذيب الانساب
- ٢ - اسد الغابة في معرفة الصحابة
- ٣ - الكامل في التاريخ
- ٤ - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل

وقد هذب في الاول كتاب الانساب للسمعاني ، ولان السمعياني اقتصر اهتمامه على الانتساب الجغرافي ، وقد عدا كتاب اللباب لابن الاثير جغرافيا تاريخيا ، وعليه اعتمد ابو الفداء في تصنيفه لكتابه تقويم البلدان.

ويعد كتاب اسد الغابة من اهم معاجم تراجم الصحابة عليهم السلام اما كتاب الكامل في التاريخ ، فهو من اهم مصادر تاريخ الاسلام . اختصر فيه ماورده الطبري في تاريخه ثم اكمل اخبار الاسلام حتى ايامه ، لكنه وإن اعتمد على الطبري بشكل اساسي فانه استدرك عليه وسد الخلل في معلوماته وراعى التوازن بين اخبار المشرق والمغرب.

وصنف ابن الاثير كتابه الباهر للتاريخ للأسرة الاتابكية التي عاش وذووه في كنفها ، وكان والده مصدر الكثير من معلوماته ، وكذلك مشاهداته وسماعاته من معاصريه ، وبحكم الانتماء الى

الاتابكة أقبل على الثناء عليهم جميعا ، ولدى تأريخه للصراع بين صلاح الدين وأتابكة الشام والموصل تحزب للاتابكة وحرم صلاح الدين من الثناء ان لم نقل انتقد افعاله ، ومع هذا يظل كتابه هذا بين اهم مصادر اخبار الجزيرة والحروب الصليبية ، يكمل حلقة مواثيقنا التي حصلنا عليها من ابن الازرق الفارقي والمصادر السريانية ، اما موقفه من صلاح ففي مواد العماد الاصفهاني وابن أبي طي وابن شداد وسواهم ما يعدل الضورة ويوازن المعلومات.

لكتاب الباهر نسخة خطية واحدة معروفة بالعالم ، محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم / ٨١٨ ، وقد وقعت في / ٢٣٢ / ورقة ، احتوى كل وجه منها على ثلاثة عشر سطرا ، في كل سطر ما بين سبع الى عشر كلمات ، وسلف ان نشر هذا الكتاب من قبل المستشرق الفرنسي دي سيلين عام ١٨٧٦ م وترجم الى الفرنسية ثم اعيد تحقيقه ونشر بالقاهرة عام ١٩٦٣ م ، محققا من قبل عبد القادر أحمد طليمات ، حيث كان موضوع رسالة ماجستير ذوقشت في جامعة عين شمس عام ١٩٦٢ .

وبذل السيد طليمات قصارى جهده لضبط نص مخطوط هذا الكتاب الهام ، واستدرك كثيرا من التصحيقات على طبعة دي سيلين ، لكن ضعف خلفياته التاريخية حول السلاجقة وفترة الحروب الصليبية وعدم تعمقه بالتعامل مع المخطوط العربي جعله يصحف العديد من الكلمات ، لابل اكثر من ذلك جعله يقوم بحذف الصحيح من متن المخطوط وايداعه بالهامشية واستبداله بما وهم انه الصحيح ، ودفعني هذا الى العودة الى تحقيق الكتاب وابخاله ضمن مواد موسوعتنا.

من الله اسأل العون، والسداد ، واتوجه اليه جل وعلا بالثناء والحمد والشكر.

- ٦٢٥٧ -

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ٢١ - ذي القعدة ١٤١٥ هـ

٢٠ - نيسان - ١٩٩٥ م

سهيل زكار

مشاهدات

ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة ، فخمة ، قد طالت صاحبها الزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت أبراجها تلتقي انتظاما ، لقرب مسافة بعضها [من بعض] ، وباطن الداخل منها بيوت ، بعضها على بعض ، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله ، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته ، وسعة وضعه ، والمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية ، هي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ، قد رص بناؤها رصا ، ينتظمهما سور عتيق البنية ، مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينهما وبين البلد ، شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد الى أسفله ، ودجلة شرقي البلد ، وهي متصلة بالسور ، وأبراجه في مائها .

والبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمائم والخانات والاسواق ، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة - وكان يعرف بمجاهد الدين - جامعا على شط دجلة ، ما أرى وضع جامع أحفل منه ، بناء يقصر الوصف عنه ، وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الحجر . وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويظف به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن ، ووصفه يطول ، وإنما وقع الالماع ببعض ، جريا الى الاختصار . وإمامه مارستان حقل ، من بناء مجاهد الدين المذكور .

وبنى أيضا داخل البلد ، وفي سوقه ، قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف ، الذي لا مثيل له . فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها ، وللمدينة جامعان : أحدهما جديد ، والآخر من عهد بني أمية ، وفي صحن هذا الجامع قبة ، داخلها سارية رخام قائمة ، قد

خلخل جيدها بخمسة خلاخل مقذولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفي اعلاها خصة رخام مئمة ، يخرج عليها انبوب من الماء ، خروج انزعاج وشدة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس الى أسفل القبة ، ويجمع في هـنـين الجامعين القديم والحديث ، ويجمع ايضا في جامع الربض . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة ، فتلوح كأنها القصور المشرفة ، ولها مارستان حاشى الذي ذكرناه في الربض .

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها « مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم » وقد بني فيه مسجد ، وقبره في زاوية من احد بيوت المسجد ، عن يمين الداخل إليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره ، فتبر كنا بزيارة هذا القبر المقدس ، والوقوف عنده ، نفعنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلد ، أن في الشرق منها ، اذا عبرت دجلة على نحو الميل ، « تل التوبة » وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه ، على قدر الميل ايضا العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال : إنه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم صعدوا على التل داعين ، وفي هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصر ، ومطاهر ، وسقايات ، ويضم الجميع باب واحد ، وفي وسط ذلك البناء بيت يذسدل عليه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال : إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ، ومحراب هذا البيت يقال : انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ، ويتعبدون فيه . وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم ، يقال : أنه كان مدينة « نيزوى » وهي مدينة يونس عليه السلام ، واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الابواب فيه بيعة ، وأكوام أبراجه مشرفة ، بتنا

بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم) صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها ، وتطهرنا فيها ، وصلينا في المسجد المتصل بها ، والله يذفع بالنية في ذلك ، بمنه وكرمه ، وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون اعمال البر فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم . فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة ايام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريية ، برروز شاهدناه يوم الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين : أم عز الدين صاحب الموصل ، وبنت الامير مسعود المتقدم ذكرها ، فخرج الناس عن بكرة ابيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك ، واكثرهن راكبات ، وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج امير البلد للقاء والدته ، مع زعماء دولته . فدخل الحاج الموصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة ، قد جلاوا اعناق إبلم بالحريز الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة . ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريا ، وامامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جالت قببتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة وبنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتمائيل بيعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطياتها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ، ومراكب جواريا كذلك : مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره ، وكان مشهدا ابتهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار ، لا شريك له .

واخبرنا غير واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ، انها موصوفة بالعبادة والخير ، مؤثرة لأفعال البر ، فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا الى الحجاز ، في صدقات ونفقات في السبيل ، مالا عظيما ، وهي تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متذكرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كله على شبابها ، وانغماسها في نعيم الملك . والله يهدي من يشاء من عبادة .

وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور ، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل ، تفاديا من معاملة الجمالين ، على ان القدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الا شبه منهم ، ومن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله الى الموصل . فأسرينا ليلة السبت الى بعيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ، ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقلنا بقرية تعرف « بعين الرصد » ، وكان مقيلا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء ، وكان مقيلا مباركا . وفي تلك القرية خان كبير جديد ، وفي محلات الطريق كلها خانات ، واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة ، وأسرينا منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعرف « بجدال » لها حصن عتيق . وفي يومنا هذا رأينا ، عن يمين الطريق ، « جبل الجودي » المذكور في كتاب الله تعالى ، والذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل ، ثم رحلنا في السحر الاعلى ، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر . فكان مبيتنا بقرية من قرى « نصيبين » ومنها اليها مرحلة ، ويعرف الموضع المذكور « بالكلائي » .

شهر ربيع الاول من سنة ثمانين ، عرفنا الله بركة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثاني عشر من يونيه ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ، ووصلنا « نصيبين » قبل الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة

المنظر ، متوسط بين الكبير والصغر ، يمتد امامها وخلفها بسيط
أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذاب من الماء تسقيه ، وتطرد
في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار ،
يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف
السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفي ظلالها الوارفة عليه ،
فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
ياليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل ، اندلسي الخمائل ، يرف غضارة
ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البابية بساد
عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لاتجد العين فيه فسحة مجال ، ولا
مشحة جمال ، وهذا النهر يتسرب اليها من عين معينه ،
منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مآذن تحترق بسائلها
وعماثرها ، ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج في
بعض بيارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه ،
وينصب في صهريجين : احدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب
الشرقي منه ، ويفضي الى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر
المذكور ، جسر معقود من صم الحجارة ، يتصل بباب المدينة
القبلي ، وفيها مدرستان ، ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين
أخو عز الدين صاحب الموصل (١) ، ابنا أتابك ولمعين [الدين]
أيضا مدينة « سنجار » وهي عن يمين الطريق الى « الموصل » .

ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم ، الشيخ ابو
اليقظان الأسود الجسد ، الابيض الكبد ، أحد الاولياء الذين نور
الله بصائرهم بالايمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات في
الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نضو (٢)
التبتل والزهادة ، ومن اخلاقت جدته العبادة ، قد اكثف بدسج يده ،
ولا يدخر من قوت يومه لغده ؛ أسعدنا الله بإلقائه ، وأصبحنا من

بركة دعائه ، عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته ، وشرفنا بمصافحته ، والله يذفعنا بدعائه ، إنه سميع مجيب لا اله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبقنا بها ليلة الأربعاء الثاني من ربيع الأول . ورحلنا صبيحة في قافلة كبيرة من البغال والحمير : حرانيين ، وحلبيين ، وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر ومايلها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال ، فتمادى سيرنا الى اول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر من اغارة الاكراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل الى نصيبين الى مدينة نيسر؛ يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الارض ، وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم ، وكف عادتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ، ولادافع لهم ولا مانع الا الله عز وجل . فقلنا يوم الأربعاء المذكور ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا ، بقرب من صفح الجبل ، مدينة « دارا » العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة ولها قلعة مشرفة ، ويلها بمقدار نصف مرحلة ، مدينة « مارين » ، وهي في صفح جبل في قننة قلعة لها كبيرة ، هي من قلاع الدنيا الشهيرة ، وكلتا المدينتين معمورة .

ذكر مدينة نيسر ، حرسها الله

هي في بسيط من الارض فسيح ، وحولها بساتين الرياحين والخضر ، يسقى بالسواقي ، وهي مائلة الطبع الى البادية ، ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الاسواق الحفيلة ، والارزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام ، وديار بكر ، وأمد ، وبلاد الروم التي تلي طاعة الأمير مسعود ، ومايلها ، ولها المحرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة . فكان نزولنا مع القافلة ببيراح

- ٦٢٦٦ -

ظاهرها ، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع [الأول] بها فريحين ، وخارجها مدرسة جديدة ، بقية البناء فيها ، ويتصل بها حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأذنة وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة « دارا » ومدينة « مارين » و « رأس العين » وهو قريب لابني اتابك (٣) .

وهذه البلدة لسلطين شتى كملوك طوائف الاندلس ، كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تسمع الا القابا هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السوق والملوك ، واشترك فيها الغني والفقير ، ليس فيهم من ارتسم بسمه به تليق ، او اتصف بصفه هو بها خليف إلا صلاح الدين صاحب الشام ونيار مصر والحجاز واليمن ، والمشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواء فزعازع ربح ، وشهادات يردّها التجريح ، ودعوى نسبة للدين برحت به أي تبريح !

القاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صدولة الاسد (٤)

ونرجع الى حديث المراحل ، قربها الله :

فكان مقامنا بنديسر الى أن صلينا الجمعة ، وهو اليوم الرابع لربيع [الأول] ، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها ، لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حافلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لأن الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهات البازار ، وأيام كل سوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن ،

تعرف « بقل العقارب » هي النصارى المعاهدين الذميين ، ذكرتنا هذه القرية بقرى الاندلس حسنا ونضارة ، تحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار ، ويتسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ، وخطها متسع ، والبساتين قد انتظمت ، وشاهدنا بها من الخناييص (٥) امثال الغنم كثرة واذسا بأهلها . ثم وصلنا عشي النهار الى قرية اخرى تعرف « بالجشر » هي الان لناس من المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور ، ثم اسحرنا منها ، ووصلنا مدينة « رأس العين » قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرسها الله

هذا الاسم لها من اصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات ، وذلك ان الله تعالى فجر أرضها عيونا ، واجراها ماء معينا ، فتقسمت مذائب ، واذسابت جداول ، تنبسط في مروج خضر ، فكانها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها اشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها ، وأعظم هذه العيون عينان : احدهما فوق الاخرى ، فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صمم الحجارة ، كأنها في جوف غار كبير متسع يسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الانهار ، وينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها ، وهذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل ، وذلك انها نابعة تحت الارض من الحجر الصلد ، بنحو أربع قامات او ازيد ، ويتسع مذبعتها حتى يصير صهريجا في ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض ، فربما يروم السابح القوي السباحة ، الشديد الغرض في اعماق المياه ، ان يصل بغوصه الى قعره ، فيمججه الماء بقوة ، انبعاثا من منبعه ، فلا يتناهى في غوصه الى مقدار نصف مسافة

العمق أو أقل شيئا ؛ شاهدنا ذلك عيانا . وماؤها اصفى من الزلال ، واعذب من السلسيل ، يشف عما حواه ، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما اخفاه ، ويصاد فيها سمك جليل من اطيب مايكون من السمك ، وينقسم ماء هذه العين نهريين : احدهما أخذ يميننا ، والآخر يسارا ، فالأيمن يشق خانقاه مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضا ، والايسر ينسرب على جانب الخانقاه ، وتفضي منه جداول الى مظاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان اسلفها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت ارحاء تتصل على شط موضوع وسط النهر ، كأنه سد . ومن مجتمع ماء هاتين العينين مدشأ نهر الخابور .

وبمقر به من هذه الخانقاه بحيث تناظرها ، مدرسة ، بازائها حمام ، وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل ، وما رأى كان في موضوعات لدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لانها في جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والمدخل اليها من جانب واحد . وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولاب يلقى الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر ، وشأن هذا الموضع كله عجيب جدا ، فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، ان يكون لها مثل هذا الموضع جملا ، او تتحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة في جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لاسور يحصنها ، ولادور انيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت (٦) في صحرائها كأنها عوذة لبطحاتها . وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان حديث وقديم ، فالقديم بموضع هذه العيون ، وتنفجر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما ، وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لكنه قد اثار القدم فيه ، حتى أن بتداعيه ، والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله ، فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة ، لم نختلس في سفرنا كله مثلها .

- ٦٢٦٩ -

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منها رغبة الاسراء ، وبرد الليل ، وتفايا من حر هجيرة التأويب ، لأن منها الى حران مسيرة يومين ، لاعماره فيها ، فتمادى سيرنا الى الصباح ، ثم نزلنا في الصحراء على ماء جب ، وارجنا قليلا . ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ، وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ، بموضع فيه برج مشيد وأثار قديمة ، يعرف « ببرج حواء » . فبيتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة ، واسرنا الى الصباح ، فوصلنا مدينة « حران » مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلاها الله

بلد لاحسن لديه ، ولا ظل يتوسط برديه ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يأذف البرد ماؤه ، ولا تزال تتقد بلأفح الهجير ساحاته وأرجاؤه ، ولا تجد فيه مقيلا ، ولا تتدفس منه الا نفسا ثقيلًا ، قد نبذ بالعراء ، ووضع في وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنها البلدة العتيقة المنسوبة لابينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبلها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك ، فيه عين جارية ، كان مأوى له ولأسارة صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما ببركة هذه النسبة ، قد جعل الله هذه البلد مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسائحين المتبتلين . لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز ، حذاء مسجده المنسوب اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر ، قد التزمها وأشبهه طريقة ابيه فما ظلم ، وتعرفت منه شذشنة أعرفها من أخزم .

فوصلنا الى الشيخ ، وهو قد نيف على الثمانين ، فصافحنا ودعا لنا وامرنا بلقاء ابنه عمر المذكور . فملنا اليه ولقيناه ، ودعا لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين ، بلقاء رجلين من رجال الآخرة . ولقينا ايضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة ، فلقينا رجلا من الزهاد الافراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعنا وانصرفنا ، وبالبدا سلمة آخر ، يعرف بالكشوف الرأس ، لا يغطي رأسه تواضعا له عز وجل حتى عرف بذلك ، وصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحا .

وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هيذون معتدلون ، محبوبون للغرباء ، مؤثرون للفقراء . وأهل هذه البلاد ، من الموصل لبيار بكر ، وبيار ريبة الى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ، وإكرام الفقراء ؛ وأهل قراها كذلك . فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة ، وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجب ، والله يدفعهم بما هم عليه ، وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم ، فأكثروا من ان يقدمهم الاحصاء ، والله يدفع المسلمين ببركاتهم ، وصدور دعواتهم ، بمره وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق حافلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ، مسقفة كلها بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بني عند كل ملتقى أربع أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص ، هي كالفرق لتلك السكك . ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير ، فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي الصحن ايضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من الرخام ، دور كل سارية تسعة أشبار ، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان الروم . وأعلىها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال : إنه كان مخزنا

لعدتهم الحربية ، والله أعلم ، والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو خمسة ابلطة . وما رأينا جامعا اوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذي عليه المدخل اليه ، مفتوح كله ابوابا ، عددها تسعة عشرة بابا : تسعة يمينا ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى اسفله بهي المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من ابواب المدن الكبار . ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والذقش ، تنطبق عليها على شبه ابواب مجالس القصور ، فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب اسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه .

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانان . وهي بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين ، مبني بالحجارة المنصوتة ، المرصوص بعضها على بعض ، وفي نهاية من القوة ، وكذلك بنیان الجامع المكرم . ولها قلعة حصينة مما يلي الجهة الشرقية منها ، مذقطة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومذقطة ايضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافته بالحجارة المروكومة ، فجاء في نهاية الوثاقة والقوة . وسور القلعة وثيق الحصانة ، ولهذه البلدة نهر ، مجراه بالجهة الشرقية ايضا منها بين سورها وجبانتها ، ومصبه من عين هي على بعد من البلد .

والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على احفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدين وهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ، المعروفة بديار ربيعة وحدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجذوب من الطريق ، وديار بكر التي تليها في الجانب الجوي كآمد وميا فارقين وحاني وغيرها مما يطول ذكره ، ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته

- ٦٢٧٢ -

وإن كانوا مستبدين ، وفضله يبغي عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم
لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهراً بالبلد بشرقيه على نهيره المذكور ، واقمنا
مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، واثراً الظهر منه كان
اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس ، الذي فاتنا لقاءه يوم الاثنين ،
فلقيناه بمسجده فرأينا رجلاً عليه سيما الصالحين ، وسمت
المحبين ، مع طلاقة وبشر ، وكرم لقاء وبر ، فأذسنا ودعا لنا ،
وودعنا وانصرفنا حامدين الله عز وجل ، على ما من به علينا من
لقاء اوليائه الصالحين وعبادة المقربين .

وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تحويم
ساعة ، فأسرنا الى الصباح ، ونزلنا مريحين « بتل عبده » ، وهو
موضع عمارة ، وهذا القل مشرف متسع ، كأنه المائدة المنصوبة ،
وفيه اثر بناء قديم . وبهذا الموضع ماء جار ، وكان رحيلنا منه عند
المغرب ، واسرنا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف « بالبيضاء »
فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ،
ويقابلها على اليمين من الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ،
مدينة « سروج » التي شهر ذكرها الحريري بذسبة أبي زيد
اليها ، وفيها البساتين والمياة المطردة ، حسبما وصفها به في
مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا في الزواريق
المقلة المعدة للعبور ، الى قلعة جديدة على الشط ، تعرف « بقلعة
نجم » وحولها بيار بابية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف
وخبز ، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين
خلال ما تكمل القافلة بالعبور ، واذا عبرت الفرات حصلت في حد
الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق . والفرات حد بين
بيار الشام وبيار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق ، في استقبالك
الفرات الى الشام ، مدينة « الرقة » وهي على الفرات ، وتليها

« رحبة مالك بن طوق » وتعرف « برحبة الشام » ، وهي من المدن الشهيرة ، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الاول ، واسرينا ووصلنا مدينة « مذبج » مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور ، والثاني والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة مذبج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الارعاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ، ومجتلاها جميل ، وذسميها أرج الذشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها كما قيل فيه : سحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار ، مختلفة الثمار . والماء يطرد فيها ، ويتخال جميع نواحيها ، وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهيدة العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئر ، وارضها أرض كريمة ، تستنبط مياهها كلها ، واسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحدوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالي اسواقها مسقفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات ، لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ؛ كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها . ولها قلعة حصينة في جوفها ، تنقطع عنها وتنحاز منها ، ومدن هذه الجهات كلها لاتخلو من القلاع السلطانية . وأهلها أهل فضل وخير ، سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة ، والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الأكثر من هذه البلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ، واحوالهم مستقيمة ، وجادتهم الواضحة في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة .

فكان نزولنا خارجها ، في أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل . ووصلنا « بزاعة » ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية ، والمتاجر الحضرية ، وفي أعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها أحد ملوك الزمن فساظته باستصعابها ، فأمر بثلث بنائها حتى غادرها عورة مذبونة بعرائنها ، ولهذه البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك برونقها الانيق حسن الحضارة .

وينظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة ، تعرف « بالباب » هي باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لا يحصى عددهم الا الله فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم ، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية ، وحركتهم الانفة والحمية ، فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين . وسكانها اليوم قوم سنيون . فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ، ورحلنا منها في الليل ، وأسرينا الى الصباح ، ووصلنا مدينة « حلب » ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم أهاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفا ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام او

تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الارض مستديرة ، منحوتة الارحاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من احكم تقديرها ، وابدع كيف شاء تصويرها وتدويرها ، عتيقة في الازل ، حديثة وإن لم تزل ، قد طاولت الايام والاعوام ، وشيعت الخواص والعوام . هذه منازلها وبيارها ، فأين سكانها قديما وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها ، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ اجل ، فني جميعهم ، ولم يأن بعد فناءها ! فياعجبنا للبلاد تبقى وتذهب املاكها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكها ، تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها (٧) وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ، هذه حلب ، كم ادخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت بظرف الزمان بالمكان ، اذث اسمها فتحلت بزينة الغوان ، ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتطرق جذبات الحوادث اليها ، حتى يرث الله الارض ومن عليها ، لا إله سواه ، سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فلنعد الى ما كنا بصدده ، فنقول : ان من شرف هذه القلعة ، انه يذكر انها كانت قديما في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له ، فيحلبها هنالك ، ويتصدق بلبنها ، فذلك سميت « حلب » والله أعلم . وبها مشهد كريم له ، يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه . ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع ، ان الماء بها نابع ، وقد صنع عليه جبان ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظما أبد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهر كله ، وليس في شروط الحصانة أهم ولا أكد من هاتين الخلتين ويضيف بهذين الجبين المذكورين ، سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق والحسن اعظم من أن تنتهي الى وصفه . وسورها الاعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلالي المنيفة ، والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقانا . وكل برج مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

وأما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيـل التركيب ، بسـديـع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من [سماط] صنعة الى سماط صنعة أخرى ، الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشـب ، فسكانها في ظلال وارفـة ، فكل سوق منها تقيد الابصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا ، وأما قيساريـتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيـفة بالجامع المكرم ، لايتشوق الجالس فيها مـرأى سواها ، ولوكان من المراتي الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة ، وتخللتها شرف خشبية بديعة الذقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ، وهذا الجامع من احسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتـح كله ابوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عندها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لامقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع ، رائق الانشراح . وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنـعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجالت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصفة

الغربية . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس اعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرضع كله بالعاج والآج واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب ، مع ما يليهما من جدار القبلة ، دون ان يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من ان يوصف .

ويتصل به من الجانب الغربي ، مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن

أظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بيوتا وغر فا ، ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنب ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا امامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة ، وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو اربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان .

وامرها في الاحتفال عظيم ، فهي بلدة تليق بالخلافة ، وحسنها كله داخل لا خارج لها الا نهير يجري من جوفها الى قبليها ، ويشق ربضها المستدير بها ، فإن لها ربضا كبيرا ، فيه من الخانات مالا يحصى عدده . وبهـذا النهـر
الارحاء ، وهي متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضه وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله ، وكيفما كان الامر فيه داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التي لانظير لها ، والوصف فيه يطول .

فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان ابي الشكر : فأقمنا به أربعة أيام ، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور ، والثامن والعشرين ليونيه ، ووصلنا « قنسرين » قبيل العصر ، فأرحنا بها قليلا ، ثم انتقلنا الى قزية تعرف « بتل باجر » . فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه . وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تكن بالأمس ، فلم يبق الا آثارها الدارسة ، ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا ، وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ، ولذلك يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان ، تأنسوا بشبه الوطن وتعللا به مثلما فعل في اكثر بلادها ، حسب ما هو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع ، عند الثلث الماضي من الليل ، فأسرنا وسرنا الى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف « بباقيدين » في خان كبير يعرف بخان التركمان ، وثيق الحصانة

وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة ، وابوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف « بتمنى » في خان وثيق ، على الضفة المذكورة .

ثم اسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الاول المذكور ، وهو آخر يوم من يونيه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور . بلاد « المعرة » ، وهي سواد كلها : بشجر الزيتون والتين والفسق واذواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها ، وانتظام قراها ، مسيرة يومين ، وهي من اخصب بلاد الله ، واكثرها ارزاقا ، ووراءها جبل « بهراء » وهو سامي الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل من البحر الى البحر ، وفي صفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية ، فرقة مرقت من الاسلام ، وادعت الالهية في احد الانام ، قبيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخیالات موه عليهم باستعمالها ، وسحروهم بمحالتها ، فاتخذوه الها يعبدونه ، ويبذلون الانفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل في مرضاته الردى ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء بقدرته ، ونعوذبه سبحانه من الفتنة في الدين ، ونسأله العصمة من ضلال الملحدين ، ولا رب غيره ، ولا معبود سواه . وجبل بهراء المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج ، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم ، اعادها الله للمسلمين . ويغيرون منه على حماة وحمص ، وهو بمراى العين منهما ، فكان وصولنا الى مدينة « حماه » في الضحى الاعلى ، من يوم السبت المذكور ، فنزلنا بربضها في احد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصلبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، اقطارها مصمومة ، وبيارها مركومة ،

لا يهش البصر اليها ، عند الاطلاع عليها ، كأنها تكن بهجتها
وتذفيها ، فتجد حسنها كامنا فيها ، حتى اذا جست خلالها ،
ونقرت ظلالها ، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا ، تتسع في تدفقه
اساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرقيه ، بساتين
تتهدل اغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذارا بصفحتيه ، يذسرب في
ظلالها ، وينساب على سمت اعتدالها ، وبأحد شطيه المتصل
بربضها مظاهر منتظمة بيوتا عدة ، يخترق الماء من أحد دواليبه ،
جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني
المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه ،
طيقانا تجتلى منها منظرا تروح النفس اليه ، وتقيد الابصار ليه ،
وبازاء ممر النهر بجو في المدينة ، قلعة حلبيه الوضع ، وإن كانت
دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء يذبع فيها ،
فهى لا تخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العدى . وموضوع هذه
المدينة في ودة من الارض عريضة مستطيلة ، كأنها خندق عميق ،
يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطل ، والمدينة العليا متصلة
بصفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة
منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتها الزمان ، وحصل لها
بحصانتها من كل عدو الامان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة
بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور
المدينة العليا يمتد على رأس جانبيها العلي الجبلي ويطياف بها .
والمدينة السفلى سور يحرق بها من ثلاثة جوانب ، لأن جانبيها
المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور ، وعلى النهر جسر كبير ، معقود
بصم الحجارة ، ويتصل من المدينة السفلى الى ربضها . وربضها
كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يستعجل فيها المسافرين
حاجته ، الى ان يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا أحفل
وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات
والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم ، ببيع الترتيب والتقسيم ،
ولها جامع أكبر من الجامع الاسفل ، ولها ثلاث مدارس ،
ومارستان على شط النهر ، بازاء الجامع الصغير . وبخارج هذه
البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظم اكثره شجرات الاعناب ،

وفيه المزارع والمحارث ، وفي منظره اندسراح للذفس واندفساح ،
والبساتين متصلة على شطي النهر ، وهو يسمى « العاصي » لأن
ظاهرة انحداره من سفل الى علو ، ومجرراه من الجنوب الى
الشمال ، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحماسة الى عشي يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا
منها ، وأسرينا الليل كله ، وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي
المذكور ، على جسر كبير معقود من الحجارة . وعليه مدينة رسدن
التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأثارها عظيمة ، ويذكر
الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمّة مكذوزة ، والله أعلم بذلك ،
فوصلنا الى مدينة « حمص » مع شروق الشمس من يوم الاحد الموفى
عشرين لربيع [الاول] وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها بخان
السييل .

ذكر مدينة حمص ، حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها
من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الارض عريض مده ،
لا يخرقه الذسيم بمشراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيع أغبر ،
لاماء ولا شجر ، ولا ظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظمائها ، وتستقي
على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهيرها العاصي ، وهو منها بنحو
مسافة الميل ، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب
نضرتها ، ومنبعه في مغارة بصفح جبل ، فوقها بمرحلة بموضع
يقابل « بعلبك » أعادها الله ، وهي عن يمين الطريق الى دمشق ،
وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، لجاورتهم
إياه ، وبعدهم في ذلك أهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها
الرطب ، وذسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدي
في الصحة شقيقه وقسيمه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ،

عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه ، هو سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضي الله عنهم . واسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وابوابها ابواب حديد ، سامية الاشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الاطلال والاناقة ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، واما داخلها فما شئت من بادية شعناء ، خلقة الارعاء ، ملفقة البناء ، لاشراقا لافاقها ، ولارونق لاسواقها ، كاسدة لاعد لها بنفاقها ، وماظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراعى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره ، وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن الجهات ؟ فقال ، وقد انكر ذلك حمص كلها مارستان ! وكفاك تبيينا شهادة اهلها فيها ! وبها مدرسة واحدة . وتجد في هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد ، في بسيتها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة « اشبيلية » من بلاد الاندلس ، يقع الحين في ذفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت في القديم ، وهي العلة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها ، حسبما يذكر ، وهذا التشبيه ، وان لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته .

وأقمننا بها يوم الأحد المذكور ، ويوم الاثنين بعده ، وهو الثاني ليوليه ، الى أول الظهر ، ورحلنا منها وتماينا الى العشي ، ونزلنا بقرية خربة تعرف « مشغرى » ، فعشيننا بها الدواب ، ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور . ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف « بالقارة » ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد ، فهو لايزال ملآن ، فارحنا بالخان المذكور الى الظهر ، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف « بالذيك » بها ماء مار ومحارث

متسع ، فنزلنا بها للتعشية ، ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمه خفيفة .

واسرنا الليل كله ، فوصلنا الى خان السلطان مع الصباح ، وهو خان بناء صلاح الدين صاحب الشام ، وهو في نهاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها . وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الارض ، والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع او أربعة ؛ منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا بها يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور ، مريحين ومستدركين للنوم الى أول الظهر ، ثم رحلنا وجرنا « بثنية العقاب » ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرق طريقين : احدهما التي جئنا منها ، والثانية أخذنا شرقا في البرية على السماوة الى العراق ، وهي طريق قصد لسكنها لا تدخل الا في الشتاء ، فأنحدرنا منها بين جبال في بطن واد الى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف « بالقصير » فيه خان كبير ، والنهر جار امامه ، ثم رحلنا منه الصبح ، وشرنا في بساتين متصلة لا يوصف حسنهما ، ووصلنا دمشق في الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء ، بموافقة الحادي عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث ، غربي جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤذوق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجذليناها ، قد تجلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلال سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل وماء سلسبيل ، وتذساب مذاربه اندسياب الارقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيما العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلئ صقيل ، وتنايهم : هلموا الى معرس الحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : « اركض برجلك هذا مغدسل بارد وشراب (٨) » ، قد احدثت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتدفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لخطته بجهات الاربع نضرت اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : « إن كانت الجنة في الارض قدمشق لاشك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحانيها » .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ، واثقان بناء وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه لاندسج به العكبوت ولا تنخله ، ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر

لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن . والمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه ازيد من خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فلا تخلو القراءة منه صباحا ولامساء . وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . والمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، وأهل الطلب ، كثيرة واسعة ، واغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، ابصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية ، يعرف بالمرادي . وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا ، يستند كل انسان منهم الى سارية ، ويجلس امامه صبي يلقنه القرآن . والصبيان أيضا على قراءتهم جارية معلومة ، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية .

وللايتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلا ، ولها وقف كبير ، يأخذ من المعلم لهم ----- ذ منه المعلم لهم ----- ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ؛ وهذا ايضا من اغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها ، انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الاشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتتب على حدة فينفصل من التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيرة حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبي في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لانه بتصوير يحذو حذوة

وبأخر هذا الجبل [جبل قاسيون] المذكور ، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة في كتاب

الله تعالى : مأوى المسيح وامه صلوات الله عليهما ، وهي من ابدع مناظر الدنيا حسنا ، وجمالا ، واشراقا ، واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على ادراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينفلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ، قد سبق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره . وخلف ذلك مظاهر ، يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائة ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار ، يأخذ كل نهر طريقه ، واكبر هذه الأنهار نهر يعرف « بثورا » ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان او الرجال من أعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربة تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية في البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساعا مسرح للابصار ، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها ، واقتراقها ، واندفاع انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها ، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلق محه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطيرة كبيرة .

ويتصل بها اسفل منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالنيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه . وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء

رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب ، يجري الماء فيها ،
ويطيف بها ، فوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هي من أحسن
القرى ، تعرف « بالمرزة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة ، وبقرية
النيرب حمام ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم
عليه السلام ، قرية تعرف « ببيت لاهية » يريدون الآلهة ، وكانت
فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك . وكان أزرا أبو ابراهيم ينحت
فيها الآلهة ويصورها ، فيجىء الخليل ابراهيم صلاوات الله عليه
وعلى نبينا الكريم فيكسرها ، وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل
القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتظم كله
خواتيم واشكالات بنسبة ، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة ،
وهو من المشاهد الكريمة ، وللبوابة المباركة اوقاف كثيرة ، من
بساتين وارض بيضاء ورباع . وهي معينة التقسيم لوظائفها :
فمنها ما هو معين باسم الذفقة في الأدم للبائتين فيها من الزوار ،
ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو
معين للطعام ، الى تقاسيم تستوفي جميع مؤناتها ، ومؤن الامين
الراغب فيها برسم الامامة ، والمؤن الملتزم خدمتها ؛ ولهم على ذلك
كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطة من أعظم الخطط .

والامين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين (٩) ومن
أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم بن مالك ، وله
مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير
حاشى فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلق
بسبب من اسباب البر في ايواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه
الجهات ، يسبب لهم وجوه المعاش من الامامة في مسجد ، او
سكنى بمدرسة تجري عليه فيها الذفقة ، او التزام زاوية من زوايا
المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه ، او حضور في قراءة سبع ، او
سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقوم
به من اوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل

المباركة مما يطول شرحه ، فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه ، وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب له أيضا أسباب غريبة من الخدمة : إما بستان يكون ناطورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا لاثوابها داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفالة صبيان يؤتيهم ألى محاضرتهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لأنهم قد عللهم بهذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتمنون البلبيين . وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده . وإن شاء احد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديما وحديثا . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذي نحن فيه والحديث ذو شجون ، والله كفيلا بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربي البلد جبانة (١٠) كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين الائمة الصالحين رضي الله عنهم . فالاشهور بها من قبور الصحابة ، رضي الله عنهم ، قبر ابي الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضي الله عنهما ، وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، منهم فضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية ، من النّين بايعوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ، وخال [أمير] المؤمنين معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه ، وقبره مسنم في الموضع المذكور . وقرأت في فضائل دمشق : أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهما ، مدفونة بدمشق . وقبر وائلة بن الاسقع من اهل الصفة ، وفي الجهة التي [تلي] هذا الموضوع المبارك ، تاريخ فيه مكتوب : « هذا قبر أوس ابن أوس الثقفي » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حماسة مؤنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه ، والدعاء في هذا الموضوع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم ، ولها الاوقاف الواسعة .

ومن احفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، قد بني عليه مسجد حفيل ، رائق البناء ، وبازائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة . والمسجد كله ستور معلقة في جوانبه صغار وكبار ، وفي المحراب حجر عظيم ، قد شق بنصفين ، والتحم بينهما ولم يبين النصف عن النصف بالكلية ، يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه : إما بضربة بسيفه ، أو بأمر من الامور الالهية على يديه . ولم يذكر عن علي ، رضي الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا إن زعموا أنه كان في الذوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم ، اذ لا تصح لهم جهة اليقظة ، وهذا الحجر اوجب بنيان هذا المشهد . وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم اكثر من السنين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة ، تعرف بالبذوية ، سنيون يدينون بالفتوة وبأمر الرجولة كلها ، وكل من الحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرمونه [ويلبسونه] السراويل ، فيلحقوه بهم ، ولا يرون ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا أقسم أحدهم بالفتوة برقسه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض ، أينما وجدوهم . شأنهم عجيب في الانفة والائتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقرية تعرف « بالمنيحة » شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب :

« هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم : مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهها بابنته أم كلثوم رضي الله عنها ، والله أعلم بذلك ، ومشهد الكريم بقرية قبلى البلد تعرف « براوية » على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم ، مشينا إليه ، وبتنا به ، وتبركنا برؤيته ، دفننا الله بذلك .

وبالجبانة التي بغربي البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضي الله عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال : إنهما من ولد الحسن رضي الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال : إنه لسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما ، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ، ومن المشاهد أيضا قبر بجامع النيرب ، في بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال : إنه لأم مريم رضي الله عنها ، وبقرية « داريا » قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه ، وعليه قبة هي علامة القبر ، وبها أيضا قبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهي لجهة الغرب منه ، ومن المشاهد الكريمة ، التي لم نعاينها ووصفت لنا قبرا شيث ودوح عليهما السلام ، وهما « بالبقاع » وهي على يومين في البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفى فيه أربعين باعا ، وفي قبر دوح ثلاثين ، وبازاء قبر دوح قبر ابنه له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها ، ومن المشاهد المباركة أيضا ، بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجابية ، قبر أويس القرني رضي الله عنه ، وقبور خلفاء بني أمية رحمهم الله ، يقال : إنها بازاء باب الصغير ، بمقربة من الجبانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يسكن فيه ، والمشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد ، وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة ايضا ، مسجد الاقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة ، على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر ، وفي هذا المسجد بيت صغير ، فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم في الذوم ، فيقول : ههنا قبر اخي موسى صلى الله عليه وسلم » . والكثير الاحمر على الطريق ، بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالية وغوييلية كما ورد في الاثر ، وهما موضعان ، وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ، ويقال : ان الذوم ماخلاق من هذا الموضع الذي يذكر ان القبر فيه ، حيث الحجر المكتوب . وله اوقاف كثيرة . فأما الاقدام ففي حجارة في الطريق اليه ، معلّم عليها ، تجد اثر القدم في كل حجر ، وعدد الاقدام تسع ، ويقال : انها اثر قدم موسى عليه السلام ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا اله سواه .

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة ، بموافقة العاشر لشهر اغوشت العجمي

ذكر جمل من احوال البلد ، عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية ابواب : « باب شرقي » ، وهو شرقي ، وفيه منارة بيضاء يقال : إن عيسى عليه السلام ينزل فيها ، لما جاء في الاثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق ، يلي هذا الباب « باب توما » وهو ايضا في حيز الشرق ، ثم « باب السلامة » ، ثم « باب الفرائيس » ، وهو شمالي ؛ ثم « باب الفرج » ، ثم « باب النصر » ، وهو غربي ؛ ثم « باب الجابية » كذلك ، ثم « باب الصغير » ، وهو بين الغرب والقبلة .

- ٦٢٩١ -

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا . والارباض كبار ، والبلد ليس بمفرط الكبر ، (و) هو مائل للطول ، وسدكه ضيقة مظلمة ، وبنائوه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنة كله خارج لداخل .

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبته الأفكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث احقلهما وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومه بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى الذفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والأغذية وغير ذلك ، والأطباء يذكرون اليه في كل يوم ، ويتفقون المرضى ، ويأمرون بأعداد ما يصلحهم من الادوية والأغذية ، حسبما يليق بكل انسان منهم ، والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال في الجديد أكثر ، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم . وللمجانين المعتقلين ايضا ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ، ونعوذ بالله من المحنة وسوء القدر ، وتندر من بعضهم الذوادر الظريفة ، حسبما كنا نسمع به ، ومن اعجب ما حدثت به من ذلك : ان رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ، ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به . فزاد كلفه حتى اختبل ، وادي الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحته بالصبي ، وربما كان يدخله أبوه اليه ، ف قيل له : اخرج وعد لما كنت عليه من القرآن . فقال متماجنا تماجن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما

بقي في حفظي من القرآن شيء سوى « اذا جاء نصر الله » فضحك منه ، ومن قوله ، ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن احسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شانروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريح كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله ، وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضلها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعاش ، واسكنهم في قصور تذكّرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعواثدهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المذلل المثار رقة وتذوقا . وبالجمل فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزها لاحد ملوك الاتراك فيقال : انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من الذبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل حتى

استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم . فطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي اثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله . ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده على الامر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبيرة ، وله الاثر الباقي شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز ، وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله رسمها على يدي هذا الملك العادل ، اصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالاسجد الجامع المبارك ، وأوقاف كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ودكانان بالعطارين ، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو ابو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ، خمس مئة دينار في العام ، وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير ، دفعه الله بما أسلف من الخير ، وهيا ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب ، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الامور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من امر المعيشة ، وهو أكبر الاعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يبين بالعجز والتسويق ، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا

سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان ، أو الى جبل الجودي ، فيلقى بها المريدين المذقطعين الى الله عز وجل ، فيقيم معهم ماشاء ، وينصرف الى حيث شاء .

ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان ، اذا رأوا به أحد المذقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه انواع الفواكه ، وفيه المياه المطربة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لصد ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ! ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ؛ ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .

شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الأول ، ومن ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين ، لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا ، وهو شرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، ويذكر أنه ينتهي الى اربع مئة قرية ، فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق ، على بلاد الافرنج ، غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم : وهي من الامنة على غاية . وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد

المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة

الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سالما أو حربا ، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه والله يعلي كلمة الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان يجمع فيه وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبدسوطان خزا لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الدور متصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب بالصوالجة . وبهذه البلدة ايضا قرب مئة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء ، يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة . وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيا دار اسلام بمنه ، وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاما ، وأبدعها وضعاً ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق ، مذكفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية مفردة بضبتها وأغلاقها الجديدة ، ولها ايضا سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفي قبلته حجر يقال : ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار المنسوب لعمر بن عبد العزيز - التي هي اليوم للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا - حديث عجيب ؛ وذلك ان الذي اشتراها ، وبناها ، وجعل لها الاوقاف الواسعة ، وأمر

بأن يدفن فيها ، وان يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من
تلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحواري - وهو
ثلاثة ارطال من ارطال المغرب - رجل من العجم يعرف
بالسميساطي - وسميساط بلدة من بلاد العجم - وكان موصوفا
بالورع والزهد . وأصل يساره وتموله ، فيما ذكر لنا ، أنه الفى
يوما من الايام بالدهليز المذكور ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود
مريضا ، مطروحا بموضعه ، غير ملتفت اليه ولا معتنى به ، فتأجر
فيه ، والتزم تمريضه وخدمته ، والنظر له اغتناما للثواب من الله عز
وجل . فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السمساطي
المذكور ، فقال له : « انت قد احسنت الى وخدمتني ، ولطفت في
تمريضي ، واشدقت لحالي وغربتي ، فأنا أريد أن اكافئك على فعلك
بي ، زائدا الى مكافأة الله عز وجل عني في الآجل ، إن شاء الله ؛
وذلك أبي كنت جن احد فتیان الخليفة المعتضد العباسي ، ومعروفا
بزماد الدار ، وكانت لي حظوة ومكانة ، فعتب على بعض الأمر ،
فخرجت طريدا ، فانتهيت الى هذه البلدة ، فاصابني فيها من أمر
الله ما اصابني ، فسببك الله لي رحمة ، فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد
اليك فيها عهدا ، اذا أنامت وغسلتني ، فانهض على بركة الله تعالى
الى بغداد ، وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ،
فاذا ارشدت اليها فصرف الحيلة في اكتراثها ، وارجو ان الله يعينك
على ذلك . واذا سكنتها فاعمد الى موضع - سماه له فيها ، وذكر له
أمانة عليه - فاحفر فيه مقدار كذا ، وانزع اللوح الذي تجده
معترضا تحت الارض ، وخذ الذي تجده مدفونا تحت الارض ،
وصرفه في منافعك ، وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير ،
مباركا لك في ذلك ، ان شاء الله » ثم توفي الرجل الموصي رحمه الله ،
وتوجه الموصى اليه بعهدته الى بغداد ، فيسر الله له في اكتراء الدار ،
وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة
الشأن ، كبيرة القدر ، فدسها في أحمال متاع ابتاعها ، وخرج الى
دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد
العزیز رضي الله عنه ، وبنها خزانقاه للصوفية ، واحترف فيها ،
وابتاع لها الاوقاف ضياعا ورباعا ، وجعلها برسم الصوفية ،

وأوصى بأن يدفن فيها . وأن يختتم القرآن على قبره كل جمعة ، وعين لكل من يحضر ذلك مذكرناه . فوجد الغرباء والفقراء في ذلك مرفقا كثيرا ، فتغص الخانقة بالقرأة كل جمعة ، فإذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا ، واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز ، على الصفة المذكورة . وبقى للمتوفي جميل الأثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التي ذكرناها أيضا بالجامع المكرم ، والمقروعة كل يوم بعد العصر ، المعينة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضا أن أحد ذوي اليسار توفي ، وأوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يغل مئة وخمسين ديناراً في السنة برسم من لا يحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة . فيقسم له أربعون ديناراً في كل ثلاثة أشهر من السنة ، ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفي أيضا ، وأوصى بأن يجعل قبره في قبلة الجامع المكرم ، بحيث لا يظهر ، وعين أوقافاً عظيمة تغل نحو ألف دينار وأربع مئة دينار في السنة وزائد لقراء سبع القرآن كل يوم ، وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم ، أثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، ويقال : إن في ذلك الموضع هو القبر المذكور . وقراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع ، متصلاً مع جدار القبلة إلى الجدار الشرقي ، والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام ، نفع الله بها راسمها ، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل ، والفقراء المتكسرين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون إليه ، وقف وضعه بعض المتأجرين الموقفين برسمهم ، إلى ما يطول ذكره من المآثر الأخراوية الصديقة ، التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول ، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم

عرفة بجوامعهم ، اثر صلاة العصر ، يقف بهم ائمتهم كاشفي رؤوسهم ، داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلا يزالون واقفين ، داعين ، متضرعين الى الله عز وجل ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدرُوا نفر الحاج ، فيفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم اليها ، ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك .

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان : الصعود الى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، وإزالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها ، مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلية وسط كرة أخرى أعظم منها : صعدنا اليه في جملة من الاصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الاولى المذكورة ، من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم ، وكله الواح رصاص منتظمة ، كما قد تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب ، وريح الميد تكاد تطير بنا ، فحبونا في الممشى المطيف بها ، وهو من رصاص ، وسعته ستة أشبار ، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج في جوف القبة ، على احد شراجيها المفتحة في الرصاص ، فابصرنا رأى تحار فيه العقول ، وتقف دون ادراك هيبة وصفه الافهام ، وجلنا في فرش من الخشب العظام ، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان في الحاضر ، هذه القبة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب

الضخام ، موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، وداخل هذه القبة ، وهو مايلي الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب ، منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبداع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلوين ، بديعة القرنصة ، يرتمي الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لا فراط سموها أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة ، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها ، والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت ايضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الاوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهي مثلثا شبر وستون شبرا ، والحال فيها اعظم من أن يبلغ وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ماوراءها ، وتحت الغارب المستطيل المسمى الذسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم ، هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد انتظم فيه من الخشب ما لا يحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد ادخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لاتذقلها الفيلة فضلا عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من الهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التآني لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ، ومظهر آياته على ايدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه ! والقبтан على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة . قد قامت فوقها ارجل قصار ضخام من الحجارة الصمم الكبار . وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان

في رأي العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف
الآخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أن لم
نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفتقد لهما من احد ،
والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في امثالهما موجود كثير ،
وقد كان حقيق عندنا ان الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ، ولا
يدخله الطير المعروف بالخطاف ، وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا
التقييد ، فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجا عجا من هذا
المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الادراك وصفه ،
ويقال : إنه ماعلى ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا
اغرب بنيانا ، من هذه القبة ، الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ،
فانها يحكى انها ابعد في الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الامران
نظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقدار فيها عند
معاينها بالصعود اليها ، والولوج داخلها ، من اغرب ما يحدث به
من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولاهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنازتهم رتبة عجيبة ،
وذلك أنهم يمشون أمام الجناز بقراءة يقرأون القرآن بأصوات
شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا ،
يرفعون اصواتهم بها ، فتتلقاها الأذان بأدمع الاجفان ، وجنازتهم
يصلى عليها في الجامع ، قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من
الجامع ، فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع
الصلاة عليها ، الا ان يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدينته ،
فان الحالة المميزة له في ذلك ان يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة
عليه ، وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن ، بازاء
باب البريد ، فيصلون افرادا افرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات من
القرآن يقرؤونها ، وذقبا الجناز يرفعون اصواتهم بالنداء لكل
واصل للعزاء ، من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويدلونهم بخططهم
الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ،

- ٦٣٠٢ -

فتسمع ما شئت من صدر الدين ، او شمسه ، او بدره ، او نجمه ،
او زينه ، او بهائه ، او جماله ، او مجده ، او فخره ، او شرفه ، او
معينه ، او محييه ، او زكيه ، او نجيبه ، الى مالا غاية له من هذه
الالفاظ الموضوعه ؛ وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت ايضا من
سيد العلماء ، وجمال الائمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ،
وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ، الى مالا نهاية له من هذه الالفاظ
المحالية . فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحبا انياله من
الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله ، فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة ،
وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب
رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ، ونبه على خدع الدنيا وحذر ،
وانشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب
المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته
الى أن يفرغوا ويتفرقوا ، فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من
الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل
والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، واذا لقي أحد
منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة ،
كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطيا ، والجد عندهم عنقاء
مغرب ، وصفه سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق
تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة
في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هويا .
وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات
النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء فياعجبا لهؤلاء الرجال ،
كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأذف
النفوس الابية منه ، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه !
لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فيالعجب منهم ، اذا
تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم ،
فيماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقد تساوت الانئاب عندهم

- ٦٣٠٣ -

والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس ! فسبحان خالق الخلق ، اطوارا ، لاشريك له ، ولا معبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للإسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناية مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفا ، واوثقوا تكتيفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تميزا لهم في ذوي الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الاعضاء ، وراحة من الاعياء ، والمحشم منهم من يسحب نيله على الارض شبرا ، او يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله ، فراه حسنا ، استغفر الله منهم ! فان لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدد لهم الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات ، ولا سيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الالهة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من أمثاله ؛ وتلك ايضا طريقة حسنة ، يدفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجسيد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر ايضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات « صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب » ، وماله من المآثر الماثورة في الدنيا والدين ، ومثابرتة على الجهاد اعداء الله ، لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام ، والشام أكثره بيد الافرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه

الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجاسه ؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقد خرج لنازلة حصن الكرك ، وقد تقدم الذكر ايضا له ، وهو عليه محاصر حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه ، وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة ، وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان ، والحاضرين مجاسه ، يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ، ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاهما عنه ، رأينا إثباتها هنا : إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صدف عن جريرة أحد الجناة عليه : « أما أنا فلأن أخطي في العفو أحب الي من أن أصيب في العقوبة » . وهذا في الحلم منزع احذفي (١٣) وقال ايضا : وقد تذوشت بحضرته الاشعار ، وجرى ذكر من سلف من اكارم الملوك واجودهم : « والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما اراقه من حر ماء وجهه في استماحه اياي » . وهذا في الكرم مذهب رشيدى او جعفري (١٤) وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والاثرة ، مستعديا على جمال ذكرانه باعه جملا معيبا ، او صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ماعسى ان أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، واوامره وذواهيه ممثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته » . والشحنة عندهم صاحب الشرطة « فالحق يقضى لك او عليك » . وهذا في العقد مقصد عمري (١٥) وهذه كلمات ، كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين ، بمنه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله ببركته

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر شتنبر العجمي ، ونحن بدمشق حرسها الله ، على قدم الرحلة الى عكة ، فتحها الله ، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفي مراكبهم المعدة لسفر

الخريف المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته . وتكفلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته ، انه سبحانه الحنان المنان ، ولي الطول والاحسان ، ولارب غيره . وكان انفصالنا منها عشي يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتدر المذكور ، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة .

ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسيبهم يدخل الى بلاد المسلمين ؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا امرا عجيبا ، وذلك ان صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ، المتقدم الذكر في هذا التاريخ ، قصد اليه الافرنج في جميعهم ، وقد تألبوا من كل اوب وراموا ان يسبقوه الى موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين . فصمد اليهم ، واقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء . فسادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه اكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه ، فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة ، وانتهاز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلس وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا . وامتلات ايدي المسلمين سبيا لا يحصى عدده من الافرنج ، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري . واندبسط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكتفت من الامتعة ، والنخائر ، والاسباب ، والأثاث ، الى النعم والكراع ، الى غير ذلك . وكان من فعل هذا السلطان الموفق ، أن أطلق ايدي المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد [ما] حوت ، وامتلات غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الافرنج ،

- ٦٣٠٦ -

وأبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من اسرى المسلمين عددا كثيرا وكانت غزوة لم يسمع بمثلها في البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق ، واوائل المسلمين قد طرقتوا بالغنائم ، كل بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي الافا لم نتحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعيننا الاقرب ليوم انفصالنا ، واعلمنا انه يجم عسكره قليلا ، ويعود الى الحصن المذكور ، فالحه يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته ، وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسيبهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة ، فكان مبيتنا ليلة الجمعة بداريا ، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف « ببيت جن » ، هي بين جبال ، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التدويح ، واعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا :

هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحراميه الافرنج ، وهم الحواسه والقطاع ، من اخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك اطلق سبيله ، لهم في ذلك عهد يوفون به ، وهو من اطرف الارتباطات الافرنجية واغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضي الى احد أبواب المدينة ، وله مصب تحت أرجاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة ، يشرف عليها حصن للإفرنج ، يسمى « هونين » ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة

فراسخ . وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها . فرحلنا عنها عشي يوم السبت المذكور ، الى قرية تعرف « بالمسيه (١٦) » بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها ، ثم رحلنا منها يوم الاحد سحرا ، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر ، واكثر شجرة الرند ، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى ، تلتقي حافته ، ويتعلق بالسماء اعلاه ، يعرف « بالاسطبل » ، لولجته العساكر لغابت فيه ، لامنجى ولا مجال لسالكة عن يد الطالسب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كئودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان . فاجزناه ومشينا عنه يسيرا ، وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف « بتبنين » وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهي ام الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط ، من الدينار السورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم ادفلت الافرنج عليهم ، سببها أن طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون ، فكان لهم في اخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ، الزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم ، وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالهم ولا نرزأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتآلبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب ان نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة في أداء هذا المكس

مفروشة ، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محدث من متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم ، فانزل التجار رجالهم به ، ونزلوا في اعلاه ، وطلب رجل من لاسلعة له ، لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله ، فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل ، فنزلنا بها في بيت اكريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص ، وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله واعادها

هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجوارى المنشئات في البحر كالاعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء الاقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبان ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذره ، انتزعها الافرنج من ايدي المسلمين في العشر الاول من المئة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه . فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بايدي المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ، ببركة هذا القبر المقدس !

وفي شرقي البلدة العين ، المعروفة بعين البفر ، وهي بني اخرج الله

منها البقعة لآدم صلى الله عليه وسلم
والمهبط لهذه العين على ادراج وطنية ، وعليها مسجد بقي محرابه
على حاله ، ووضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالدسلم والكافر
يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه ، وهو بأيدي
النصارى معظم محفوظ ، وابقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين ، ثم توجهنا الى صور يوم الخميس
الثاني عشر لجمادي المذكور والموفي عشرين لشتنبر المذكور على البر
واجتازنا في طريقنا على حصن كبير ، ويعرف « بالزيب » ، وهو
مطل على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف
« بالاسكندرونة » ، وذلك لمطالعة مركب بها ، اعلمنا أنه يتوجه الى
بجاية طمعا في الركوب فيه . فحللناها عشي يوم الخميس المذكور ،
لان المسافة بين المينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها في خان معد
لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لاتلقي لطالبها بيد طاعة ولا
استكانة ، قد اعدوا الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة
لامانهم ، هي انظف من عكة سكا وشوارع ، واهلها ألين في الكفر
طبائع ، وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلأ قههم
اسجح ، ومنازلهم اوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون
واسكن ، وعكة أكبر وأطغى وأكفر . وأما حصانتها ومناعتها
فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى بابين : أحدهما في البر
والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فالذي في البر
يفضي اليه ، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشيدة
محيطه بالبواب ، وأما الذي في البحر ، فهو مدخل بين مرجين
مشيين الى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجب وضعها منها ،
يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدها من الجانب

الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وتدرسي فيها ، وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم ، فشان هذه الميناء شان عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأدق .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما ، وبخلفناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الاحد الثاني والعشرين لجمادى المذكور وهو آخر يوم من شـتـنـبر ، وذلك ان المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه ، فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف النيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بـصـور في أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ؛ واصطفوا سـمـاطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللـهـوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمساكنها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في ابهى زي ، وأفخر لباس ، تسحب أنيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حفت بشبكة مـسـوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي راقلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر ، مشي الحمامة او سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى ، في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أنيالها خالفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في انفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللـهـوية قد تقدمتهم والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقتهم سـمـاطين ، يتطلعون فيهم ولا يذكرون عليهم ذلك ؛ فساروا بها حتى

ادخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومها ذلك في وليمة ، فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة في البحر ، ودللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر أكتوبر ، واكثرينا في مركب كبير ، نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية ، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته . وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بأيدي المسلمين . ولهم فيها مساجد آخر ، فأعلمنا به احد أشياخ أهل صور من المسلمين . أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وانهم حملتهم الانفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم ، غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزيمة نافذة ، ويصدمونهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، اويقضي الله قضاءه ، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، واجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين ، ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، وذفنت في البرية مشيئته ، وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازا ، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين ، لمشاقات وأهوال يعانيتها في بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذمية ؛ ومنها سماع مايفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لاسيما من أرادلهم وأسافلهم ؛ ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرمات ، الى غير ذلك مما لاينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسؤول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة ، التي زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولي ذلك لارب غيره .

ومن الفجائع التي يعانيتها من حل بلادهم اسرى المسلمين ،
يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ،
والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد ، فتذطر
لهم الأفئدة ، ولا يغني الا شفاق عنهم شيئا ، ومن جميل صنع الله
تعالى لاسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من
يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ،
وانما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم
لامخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون
عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من
النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون
أموالهم في هذه السبيل . وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة
أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار ، في فداء اسرى من المغاربة ،
فلما استقبل من مرضه ارسل في فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من
المغاربة ، وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم ،
وأخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : « هؤلاء يفتكهم اهلؤهم
وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لأهل لهم » فانظر الى لطيف صنع الله
تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقبض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ،
وكبرائهم ، واغنيائهم المنغمسين في الثراء : احدهما يعرف بنصر بن
قوام ، والثاني بأبي الدراياقوت مولى العطايا ، وتجارتهما كلها
بهذا الساحل الافرنجي ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما الامناء من
المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في
الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد
نصبهما الله عز وجل لافتكاك الاسرى المغربيين بأموالهما ، وأموال
ذوي الوصايا ، لانهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من امانتهما ،
وثقتهما ، وبذلها أموالهما في هذه السبيل . فلا يكاد مغربي يخلص
من الأسر الا على ايديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان
أموالهما ، ويبذلان اجتهدهما في تخليص عباد الله المسلمين ، من

ايدي اعداء الله الكافرين ، والله تعالى (لا يضيع أجر
المحسنين (١٨)) .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، انه صبجنا في
طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربي من « بـوـنة » عمل
« بجاية » ، كان أسيرا فتخلص على ايدي ابي الدر المذكور ، وبقي
في جملة صبيانه ، فوصل في قافلته الى عكة ، وكان قد صاحب
النصارى وتخلق بكثير من اخلاقهم ، فمارال الشيطان يستهويه
ويغريه ، الى ان نبذ بين الاسلام فكفر ، وتنصر مدة مقامنا بصور
فانصرفنا الى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بطس (١٩)
ورجس ، وقد عقد الزنار ، واستعجل النار ، وحققت عليه كلمة
العذاب ، وتأهب لسوء الحساب ، وسحيق المآب ، نسأل الله عز
وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والاخرة ، ولا يعدل بنا عن
الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين ، بفضله ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة ، المسمى عندهم بالملك ، محجوب
لا يظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام ، قد شغلته
بلواه في صباه ، عن نعيم بنياه ، فهو فيها يشقى (ولعذاب الآخرة
أشد وأبقى) (٢٠) . وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله
القومس ، وهو صاحب المجبى ، واليه ترتفع الأموال ، والمشرف
على الجميع بالمكانة ، والوجاهة ، وكبر الشأن في الافرنجية
اللعينة ، القومس اللعين ، صاحب طرايلس وطبرية ، وهو ذو قدر
ومنزلة عند الافرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف
بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين ، نحو اثنتي عشرة سنة
أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين ، وعند
أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعنق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق ، لسهولة طريقها ..
ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها ، وبحيرة
طبرية مشهورة ، وهي ماء عذب ، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو

أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والأقوال فيها تختلف سعة وضيقا ، وفيها قبور كثيرة ، من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب ، وسليمان ، ويهوذا وروبيل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه [عليهم] أجمعين وجبل الطور منها قريب . وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية ، والله يعيده الى أيدي المسلمين ، يطهره من أيدي المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان ، عكة وصور ، لابساتين حولهما ، وانما هما في بسيط من الارض افيح ، متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة ، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياح ، ومنها تجبى الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد ، ولعكة في الشرق منها ، مع آخر البلد ، واد يسيل ماء ، ولها مع شاطئه ، مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخيل يشبهه ، واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ، وبه يجتمع العسكر ، دمره الله ، ولصور عند بابها البري عين معينة ، ينحدر اليها على ادراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها ، والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لاكتوبر ، صعدنا الى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار ، بمنّة الله على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعدنا من التصارى المعروفين بالبلغريين ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لايحصى ، ينتهي الى أزيد من ألفي انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه لامعبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح ، وكمال الوسق ، بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع باسم الله تعالى ، وبركته ، وجميل صنعه ، وكريم مشيئته ، وتمادى مقامنا فيه مدة اثنتي عشر يوما ، لعدم استقامة الريح .

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لاتهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايو واكثر وأقل ، بحسب ما يقضي الله تعالى به ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وانما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما ، واكثر وأقل ، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية اكثرها دواما ، فالسافرون الى المغرب ، والى صقلية ، والى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين ، انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة ، التي اقمنا فيها على ظهر المركب ، نبيت في البر ، وننتقد المركب في الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لاكتوبر ، ألق المركب ، وكنا على عادتنا في البر بائتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل المضروب في اعداد الماء والزاد ، وأن لا يفارق الانسان رحله ، فاصبحنا والمركب لاعين له ولا اثر فاكثرنا للحين زورقا كبيرا ، له أربعة مجانيف ، وأقلعنا نتبعه . وكانت مخاطرة عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشي ،

- ٦٣١٧ -

فحمدنا الله عز وجل على ما من به ، وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل ، وآخره والحمد لله يوم فرجنا ، والله الحمد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا ، والرياح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الرياح الغربية من مكنها ، دافعة في وجه المركب . فأخذ رئيسه ومديره الرومي الجذوي ، وكان بصيرا بصنعتة ، حاذقا في شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يمينا ، وتارة شمالا ، طمعا ان لا يرجع على عقبه ، والبحر في اثناء ذلك رهو (٢١) ساكن ، فلما كان نصف الليل ، او قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الرياح الغربية ، فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون ، واقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها في المركب ، لانها كانت تشبه الصواري عظما وضخامة . فتبادر البحريون اليها ، وحط شراع الصاري الكبير وعطل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاري المرتبط بالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعة في البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها ، وحصلنا في أمر لا يعلمه الا الله تعالى .

وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، واقاموا في الاردمون شراعا يعرف بالدلون ، وبتنا بليلة شهباء ، الى أن وضع الصباح ، وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع البحريون في اصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم ، والرياح الغربية على اول لجساجها ، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد ، مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وحفي لطفه ، ومعهود فضله ، سبحانه ، هو اهل ذلك جلت قدرته ، وتباهت عظمتة ، الا إله سواه .

وفي يوم الاربعاء الثالث والعشرين منه ، تحركت الرياح الشرقية نسима فأترا عليلا ، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها

- ٦٣١٨ -

وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق ،
سكنت له امواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق الجهات
الاربعة نفس يتنفســـــــــــــــم . فبقينا

لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأننا نجول بين
سماءين وهذا الهواء الذي يسميه البحريون الغليني ، وفي ليلة
الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور ، وهو أول يوم من ذونبر
العجمي ، كان للنصارى عيد مذكور عندهم ، احتفلوا له في اسراج
الشمع ، وكاد لا يخلو احد منهم صغيرا او كبيرا ، ذكرا أو أنثى ،
من شمعة في يده ، وتقدم قدسيسوهم للصلاة في المركب بهم ، ثم
قاموا واحدا واحدا لوعظهم ، وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركب
يزهر كله اعلاله واسفله سرجا متقدة ، وتمامينا على تلك الحالة اكثر
تلك الليلة . ثم اصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن ، واتصل بنا ذلك
الى ليلة الاحد السابع والعشرين منه ، فتحركت ريح شمالية ، فعاد
المركب بها لجريته واستبشرت الذفوس ، والحمدلله

من

تاريخ عبد الطيف البغدادي ورحلته

ال خليفة الناصر

كان الناصر لدين الله شابا مرحا عنده ميعة الشباب ، يشق الدروب والأسواق أكثر الليل والناس يتهيبون لقياه ، وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب ثم انطفئ بهلاكه وظهر التسنن المفرط ، ثم زال وظهرت الفتوة والبندق والحمام الهواذي ، وتفنن الناس في ذلك وبخل فيه الاجلاء ثم الملوك ، فألبسوا الملك العادل وأولاده سراويل الفتوة وكذا ألبسوا شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند وصاحب كيش وأتابك سعد صاحب شيراز ، والملك الظاهر صاحب حلب ، وتخوفوا من السلطان طغريل وجرت بينهم حروب ، وفي الآخر استدعوا تكش لحربه وهو خوارزم شاه فخرج في جحفل لجب والتقى معه على الري واحتز رأسه وسيره الى بغداد ثم تقدم نحو بغداد يلتمس رسوم السلطنة فتحركت عليه أمة الخطا فرجع الى خوارزم وما لبث ان مات •

وكان الناصر لدين الله قد خطب لولده الأكبر ابي نصر بولاية العهد ، ثم ضيق عليه لما استشعر منه وعين أخاه ، ثم أمر ابا نصر بأن يشهد على نفسه أنه لا يصلح وأنه قد نزل عن الأمر ، وأكبر الاسباب في نفور الناصر من ولده هو الوزير نصير الدين بن المهدي العلوي ، فإنه خيل الى الخليفة فساد نية ولده بوجوه كثيرة ، وهذا الوزير أفسد على الخليفة قلوب الرعية والجند وبغضه اليهم والى ملوك الأطراف وكاد يخلي بغداد عن أهلها بالارهاب تارة وبالقتل تارة اخرى ، ولا يقدر أحد أن يكشف للخليفة حال الوزير حتى تمكن الفساد وظهر ، فقبض عليه برفق ،

وفي اثناء ذلك ظهر بخراسان وما وراء النهر خوارزم شاه محمد ابن تكش وتجبر ، وطوى البلاد واستعبد الملوك الكبار ، وفتك بكثير منهم وأباد أمما كثيرة من الترك ، فاباد أمة الخطا وأمة الترك ،

وأساء الى باقي الأمم الذين لم يصل اليهم سيفه ، ورهبه الناس كلهم ، وقطع خطبة بني العباس من بلاده ، وصرح بالوقعة فيهم وقصد بغداد ، فوصل الى همذان وبوادره الى حلوان ، فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوما فغطاهم في غير ابانه ، فأشعره بعض خواصه أن ذلك غضب من الله حيث يقصد بيت النبوة ، والخليفة مع ذلك قد جمع الجموع وأنفق الذفقات واستعد بكل ما يصل المكنة اليه وسره أن الله ربه على عقبيه، وقد سمع أن أمم الترك قد تألبوا عليه وطمعوا في البلاد لبعده عنها فقصدهم فقصده ، ثم كايده وكاثروه الى أن مزقوه في كل جهة، وبلبلوا ليه وشتتوا شمله ، وملكوا عليه أقطار الأرض حتى ضاقت عليه بما رحبت ، وصار اين توجه وجد سيوفهم متحكمة فيه ، فتقاذفت به البلاد حتى لم يجد موضعا يحويه ولا صديقا يؤويه فشرق وغرب وأنجد وأسهل وأصحر وأجبل ، والرعب قد ملك ليه، فعند ذلك قضى نحبه ، قال : وكان الشيخ شهاب الدين لما جاء في الرسالة خاطبه بكل قول ولاطفه ولايزداد الا طغيانا وعتوا *

ولم يزل الامام الناصر مدة حياته في عز وجلالة وقمع الاعداء واستظهار على الملوك ، لم يجد ضيما ، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ، ولا مخالف إلا دمغه ، وكان من أضمر له سوءا رماه الله بالخذلان وأباده ، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك لا يخفى عليه شيء من احوال كبارهم وصغارهم ، واصحاب أخباره في اقطار البلاد يوصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنية حتى يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة ، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفتن لها أحد، يوقع الصداقة بين ملوك متعاضدين وهم لا يشعرون ، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفتنون * قال:ولو اخذنا في زوادر حكاياته لاحتاجت الى صحف كثيرة ، ولما دخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل ، فصار يبالغ في التكتّم والورقة تأتيه فاخترى ليلة بامرأة دخلت من باب السر فصباحته الورقة بذلك وفيها ، كان عليكم دواج فيه صورة الأفيلة ، فتحير وخرج من بغداد وهو لا يشك أن

الخليفة يعلم الغيب لأن الامامية يعتقدون أن الامام المعصوم يعلم ما في بطن الحامل وما وراء الجدار ، وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مخدوم فقبل ارجع فقد عرفنا ما جئت به فرجع وهو يظن انهم يعلمون الغيب، ووصل رسول آخر فقال الرسالة معي مشافهة الى الخليفة فحبس وذبي ثمانية أشهر ثم أخرج وأعطى عشرة آلاف دينار ، فذهب الى خوارزم شاه وصار صاحب خبر لهم ، وسير جاسوسا يطلعه على أخبار عسكر خوارزم شاه لما توجه الى بغداد وكان لا يقدر أحد أن يدخل بينهم الا قتلوه فابتدأ الجاسوس وشوه خلقته وأظهر الجذون وأنه قد ضاع له حمار فأذسوا به وضحكوا منه ، وتردد بينهم أربعين يوما ، ثم عاد الى بغداد فقال هم مائة وتسعون ألفا إلا أن يزيدوا ألفا أو ينقصوا ألفا .

وكان الناصر إذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجع ، وله مواطن يعطي فيها عطاء من لا يخاف الفقر ، ووصل رجل معه ببغاء يقرأ قل هو الله أحد تحفه للخليفة من الهند ، فأصبحت ميتة وأصبح حيران فجاء فراش يطلب منه الببغاء فبكى وقال الليلة ماتت فقال : قد عرفنا هاتها ميتة ، وقال كم كان في ظنك ان يعطيك الخليفة قال خمسمائة دينار فقال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها اليك أمير المؤمنين ، فإنه علم بحالك منذ خرجت من الهند، وكان صدر جهان قد سار الى بغداد ومعه جمع من الفقهاء، وواحد منهم لما خرج من داره من سمرقند على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد، فقال الخليفة لا يقدر أن يأخذها مني ، فأمر بعض الوقابين انه حين يدخل بغداد يضربه ويأخذ الفرس ويهرب في الزحمة ففعل ، فجاء الفقيه يستغيث فلا يغاث ، فلما رجعوا من الحج خلع على صدر جهان واصحابه سوى ذلك الفقيه ، وبعد الفراغ منهم خلع عليه وأخرج الى الباب وقدمت له فرسه وعليها سرج من ذهب وطوق ، وقيل له لم يأخذ فرسك الخليفة إنما اخذها أتوني، فخر مغشيا عليه واستجل بكراماتهم .

قال الموفق عبد اللطيف : وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث ، واستتاب نوابا في ذلك ، فأجرى عليهم جرايات وكتب الملوك والعلماء اجازات ، وجمع كتابا سبعين حديثا ، ووصل على يد شهاب الدين الى حلب ، وسمعه الملك الظاهر وجماهير الدولة ، وشرحته شرحا حسنا ، وسيرته صحبة شهاب الدين وسبب انعكافه على الحديث أن الشريف العباسي قاضي القضاة نسب اليه تزوير ، فأحضر القاضي وثلاثة شهود فعزر القاضي بأن حركت عمامته فقط ، وعزر الثلاثة بأن أركبوا جمالا وطيف بهم المدينة يضربون بالدرة فمات واحد تلك الليلة ، وأخر لبس لبس الفساق وبخل بيوتهم والثالث لزم بيته وادعى وهو البندنجي رفيقنا ، فبعد مدة احتاج وأراد بيع كتبه فكتبين أحد الأجزاء فوجد فيه اجازة للخليفة من مشائخ بغداد فرفعها فخلع عليه ، وأعطى مائة دينار وجعل وكيلًا عن أمير المؤمنين في الاجازة والتسميع *

وأقام سنين يراسل جلال الدين حسن صاحب الموت يراوده أن يعيد شعار الاسلام من الصلاة والصيام وغير ذلك مما رفعوه في زمان سنان ، ويقول إنكم اذا فعلتم ذلك كنا يدا واحدة ، ولم يتغير عليكم من أحوالكم شيء ، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام منال العيوق ، واتفق أن رسول خوارزم شاه بن تكش ورد في أمر من الأمور فزور على لسانه كتب في حق الملاحية يشتمل على الوعيد وعزم الايقاع بهم وأنه سيخرب قلاعهم ، ويطلب من الخليفة المعونة في ذلك ، وأحضر رجل منهم كان قاطنا ببغداد ووقف على الكتب وأخرج بها وبكتب أخرى على وجه النصيحة نصف الليل على البريد ، فلما وصل الموت أربهم فما وجد مخلصا الا التظاهر بالاسلام وإقامة شعاره ، وسيروا إلى بغداد رسولا معه مائتا شاب منهم وبنانير كبارا في منجوق وعليه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وطافوا بها في بغداد وجميع من حولها يعلن بالشهادتين ، وكان الناصر لدين الله قد ملا القلوب هيبة الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم ماتت بموته ، ولقد كنت بمصر والشام في خلوات الملوك والأكابر ، وإذا جرى ذكره حفظوا أصواتهم هيبة وإجلال ، وورد

- ٦٣٢٥ -

بغداد تاجر معه متاع دمياط المذهب فسألوه عنه فأذكر فأعطي علامات فيه من عدده والوانه وأصنافه فازداد إنكاره ، فقل له من العلامات أنك نذمت على مملوكك التركي فلان فأخذته إلى سيف بحر دمياط خلوة وقتلته ودفنته هناك ولم يشعر بذلك أحد .

أما مرض موته فهو وسنان بقي به ستة اشهر ولم يشعر احد من الرعية نكبة حاله حتى خفي على الوزير وأهل الدار ، وكان له جارية قد علمها الخط بنفسه ، فكانت تكتب مثل خطه فتكتب على التواقيع بمشورة قهرمانة الدار ، وفي اثناء ذلك نزل جلال الدين محمد خوارزم شاه على ضواحي بغداد هاربا مذفيا من المال والرجال والدواب فافسد بقدر ما كانت تصل يده إليه ، وكانوا يدارونه ولا يمرضون فيه أمرا لغيبة رأى الخليفة عنهم إلى أن راح إلى اندريجان ونهب في نهايه دقوقا واستباحها ، وكانت خلافته سبعا واربعين سنة ، توفي في سلخ رمضان وبويع لولده أبي نصر ولقب بالظاهر بأمر الله ، فكانت خلافته تسعة اشهر .

المستنصر

بويع أبو جعفر ، وسار السيرة الجميلة وعمر طرق المعروف الدائرة ، وأقام شعار الدين ومنار الاسلام ، وعم بسخائه وبذله ، واجتمعت القلوب على حبه والاسنة على مدحه ، ولم يجد احدا من المتعيبية فيه معابا ، قد اطبقوا عليه ، وكان جده الناصر يقربه ويحبه ويسميه القاضي لعقله وهديه وانكاره ما يجد من المذكر ، والناس معه اليوم في بلهنية وعيشة مرضية ، وسير إليه خوارزم شاه يلتمس منه سراويل الفتوة ، فسير إليه فرس الذوبة فسر بذلك وابتهج ، وقبل الارض مرارا شكرا لله على هذه المنزلة التي رزقها وحرمها أبوه ، ثم إنه أذن عن العبودية والطاعة .
سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م

قال الموفق عبد اللطيف إن الفرنج عاثوا في سوق العسكر ، فرجع عليهم السلطان فطحنهم طحنا ، وأحصى قتلهم بأن غرزوا في كل قتيل سهما ثم جمعوا السهام ، فكانت اثني عشر ألفا وخمسمائة ، والذين لحدقوا بأصحابهم هلك منهم ثمانية وأربعين ألفا ، وبلغت الفرارة عندهم مائة وعشرين بينارا . وخرجوا مرة فقتل منهم ستة آلاف ونيف ، ومع هذا فصبرهم صبرهم ، وعملوا على عكا بـرجين من خشب كل برج سبع طبقات بأخشاب عالية ، ومسامير هائلة يبلغ المسمار نصف قنطار ، وضبت على هذا القياس ، وصفح كل برج منهما بالحديد ، ولبس الجلود ثم اللبود المشربة بالخل ، وجل بشباك من حبال القنب لترد حدة المنجنيق ، وكل واحد يعلو سور عكا بثلاث طبقات ، وزحفوا بهما على السور ، وفي كل طبقة مقاتلة ، فيؤس المسلمون بعكا ، فقال دمشق يقال له ابن النحاس : دعوني أضربها بالمنجنيق ، فسخرها منه فطلب قراقوش أن يمكنه من الآلات ، ورمى البرج بحجارة حتى خلخله ، ثم رماها بقدر نبط ثم صاح الله أكبر وعلا النخان فضج المسلمون وبرزوا من عكا وعملت النار في أرجائه والفرنج ترمي أسهمها من الطبقات ، واشتغلوا فأحرق المسلمون الستائر والعدد فاندكست صولتهم ، ثم اجتمعت همتهم وقوتهم وعملوا كبشا هائلا رأسه قناطر من الحديد لينطحوا به السور فينهدهم ، فلما سحبوه وقرب من السور ساخ في الرمل لثقله وعجزوا عن تخليصه وكان المسلمون في عكا ، في مرض وجوع قد ملوا من القتال ما يحملهم سوى الايمان بالله ، وقد هدمت الفرنج برجا وبدنة ، ثم سد ذلك المسلمون في الليل ووثقوه ، وكان المسلمون أول راكب وآخر نازل .

راشد الدين سنان

كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نور الدين ، فاجتمع اليه محبوه على ما ذكره الموفق عبد اللطيف لكي يقتلوه ، فقال لهم : لم تقتلونني ؟ قالوا : لترجع إلينا صحيحا فانا نذكره أن

- ٦٣٢٧ -

تكون فينا أعرج ، فشكرهم ودعا لهم فقال اصبروا علي فليس هذا وقته ولاطفهم ، ولما أراد أن يحلهم من الاسلام ويسقط عنهم التكاليف لأمر جاءه من الموت على عهد الكيا محمد نزل إلى مصيات في شهر رمضان فأكل فيها فأكلوا معه ، واستمر امرهم على ذلك .

الملك العزيز

كان العزيز شابا حسن الصورة ظريف الشمايل قويا ذا بطش وأيد وعفة حركة ، حيا كريما عفيفا عن الأموال والفروج ، وبلغ من كرمه أنه لم يبق له خزانة ولا خاص ولا برك ولا فرش ، وأما بيوت أصحابه فتفيض بالخيرات ، وكان شجاعا مقداما ، وبلغ من عفته أنه كان له غلام تركي اشتراه بألف دينار ، يقال له ابو شامة ، فوقف على رأسه خلوة فنظر إلى جماله فأمره أن ينزع ثيابه وأجلسه معه مقعد الفاحشة ، وأدركه التوفيق ونهض مسرعا إلى بعض سرارية ففضى وطره ، وخرج والغلام بحاله فأمره باللبسة والخروج ، وأما عفته عن الأموال فلا أقدر أن أصف حكاياته في ذلك .

الملك الظاهر

كان جميل الصورة رائع الملاحظة موصوفا بالجمال في صغره وفي كبره ، وكان له غور ودهاء ومكر ، وأعظم دليل على دهائه مقاومته لعنه الملك العادل ، وكان لا يخليه يوما من خوف وشغل قلب ، وكان يصادق ملوك الأطراف ويباطنهم ويلطفهم ويوهمهم أنه لولا هو لقد كان العادل يقصدهم ، ويوهم عمه أنه لولا هو لم يطعه أحد من الملوك ويكاشفوه بالشقاق ، فكان بهذا التدبير يستولي على الجهتين ويستعبد الفريقين ، ويشغل بعضهم ببعض ، وكان كريما

معطاء ، يغمر الملوك بالتحف والرسل بالنحل والشعراء واقتصاد
بالصلوات ، وتزوج بابنة العادل وماتت معه ، ثم تزوج بأختها وكان
له عرس مشهور ، وجاءت منه بالملك العزيز في أول سنة عشر ،
وأظهر السرور بولادته ، وبقيت حلب مزينة شهريين والناس في أكل
وشرب ، ولم يبق صنفًا من أصناف الناس إلا أفاض عليهم النعم
ووصلهم بالاحسان ، وسير إلى المدارس والخوانك الغنم والذهب ،
وأمرهم أن يعملوا الولائم ، ثم فعل ذلك مع الاجناد والغلمان
والخدم ، وعمل للنساء دعوة مشهورة أغلقت لها المدينة ، وأما داره
بالقلعة فزينها بالجواهر وأواني الذهب الكثيرة ، وكان حين أمر
بحفر الخراب حول القلعة وجد عشرين تبة ذهب فيها قنطار
بالحلي ، فعمل منها أربعين قشوة بحقاقها ، وختن ولده الأكبر
أحمد وختن معه جماعة من أولاد المدينة ، وقدم له تقادم فلم يقبل
منها شيئاً رفقا بهم ، لكن قبل قطعة سمندل طول ذراعين في ذراع
فغمسوها في الزيت وأوقدوها حتى نفذ الزيت وهي ترجع بيضا
فالتهاوا بها عن جميع ما حضر ، وكان عنده من أولاد أبيه وأولاد
أولادهم مائة وخمسة وعشرون نفسا ، وزوج الذكور منهم بالاناث ،
وعقد في يوم واحد خمسة وعشرين عقدا بينهم ، ثم صار كل ليلة
يعمل عرسا ويحتفل له ، وبقي على ذلك مدة رجب وشعبان
ورمضان ، وكان بينه وبين سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن
كيخسرو صداقة موكدة ومراسلات ، ومرض نيفا وعشرين يوما
وأوصى أن يكون الخادم طغرل دزدار القلعة ، وأن يكون شمس الدين
ابن أبي يعلى الموصللي وزيرا كما كان ، ولا يخرج أحد عن أمره ،
وسيف الدين بن جندر أتابك الجيش ، وكان القاضي بهاء الدين بن
شداد مسافرا إلى العادل بمصر ، فقدم بعد ثلاث فصل جميع ذلك
بالتدريج والخفية وأعانه مرض الوزير ، فلما عوفي وجد الأمور
مختلفة فسافر إلى الروم ، ثم انتكس ومرض ومات في السنة ، وأما
ابن جندر فنزل عن الاتابكية وجعلوها للملك المنصور - يعني الذي
كان تسلطن بمصر بعد والده العزيز - قال : فبقي أياما وعزلوه ثم
لوه ثم عزلوه غير مرة وتلاعبت بهم الآراء ، وكان قصدهم أن يكون
الطواشي شهاب الدين طغرل هو الاتابك فسعوا إلى أن تم ذلك ، ثم

أنفوا أن يحكم عليهم خادم فاختلفت نياتهم ورأوا أن يملكوا الملك
الأفضل علي بن صلاح الدين ، وعزم الأمراء على التوثب بحلب ، ثم
قوي أمر طغريل وثبت وقد هدموا بقتله مرات ووقاه الله ، ولو ساق
الأفضل لملك حلب ، ولما اختلف عليه اثنان ، لكنه كاتب عز الدين
صاحب الروم وحسن له أن يقصد حلب فحشد وقصدها ، ونازل تل
باشر فأخذها وأخذ عين تاب ورعبان ومنبج ، وكاتبه أكثر رؤساء
حلب والأمراء ، فلما رأى طغريل والخواص ذلك طلبوا الملك
الأشرف فجاء ونزل بظاهر حلب مع شدة خوف ، وجاءت طائفة من
العرب ومعهم عسكر يتولعون بعسكر الروم ، فسير اليهم عز الدين
كبراء دولته فساقوا بجهل وامعدوا الى بزاعة في تلك البرية فخارت
قواهم ونذبت خيلهم ، واختطفهم العرب سبائا كما تؤخذ
النساء ، فخار قلب عز الدين ورجع الى تل باشر ثم الى
بلاده ، ولحقه غبن وأسف حتى مرض ومات ، وأما الملك الأشرف
فانه تمكن من أموال حلب ورجالها وقوي بذلك على الموصل حتى
مرض ، وعظم عند ملوك الشرق .

الملك العادل

كان أصغر الأخوة وأطولهم عمرا ، وأعمقهم فكرا ، وأنظرهم في
العواقب وأشدهم امساكا وأحبهم للدراهم ، وكان فيه حلم وأناة
وصبر على الشدائد ، وكان سعيد الجد علي الكعب مظفرا بالأعداء
من قبل السماء ، وكان أكلوا نهما يحب الطعام واختلاف
ألوانه ، وكان أكثر أكله في الليل كالخيل ، وله عندما ينام آخر الأكل
رضيع ، ويأكل رطل بالدمشقي خبيص السكر يجعل هذا
كالجوارش ، وكان كثير الصلاة ويصوم الخميس وله صدقات في
كثير من الأوقات وخاصة عندما تنزل به الآفات ، كان كريما على
الطعام يحب من يؤاكله ، وكان قليل الأمراض قال لي طبيب به مصر
أنني أكل خبز هذا السلطان سنين كثيرة ولم يحتج الي سوى يوم

- ٦٣٣٠ -

واحد أحضر اليه من البطيخ أربعون حملا ، فكسر الجميع بيده وبالغ في الأكل منه ومن الفواكه والأطعمة فعرض له تخمة ، فأصبح فأشرت عليه بشرب الماء الحار وأن يركب طويلا ففعل وأخر النهار تعشى وعاد الى صحته ، وكان نكاحا يكثر من اقتناء السراري ، وكان غيورا لا يدخل داره خفي الا دون البلوغ ، وكان يحب ان يطبخ لنفسه مع أن في كل دار من دور حظاياه مطبخ دائر ، وكان عفيف الفرج لا يعرف له نظر الى غير حلائله ، نجب له أولاد من الذكور والإناث سلطن الذكور وزوج البنات بملوك الأطراف ، آخر ماجرى من ذلك بعد وفاته أن ملك الروم كيقباز خطب الى الملك الكامل أخته واحتفل احتفالا شبيدا ، واجتمع في العرس ملوك وملكات ، وكان العادل قد أوقع الله بغضبه في قلوب رعاياه والمخامرة عليه في قلوب جنده ، وعملوا في قتله اصنافا من الحيل الدقيقة مرات كثيرة ، وعندما يقال ان الحيلة قد تمت تذهب وتتكشف وتحسم موادها ، ولولا أولاده يتولون بلاده لما ثبت ملكه بخلاف أخيه صلاح الدين فإنه انما حفظ ملكه بالمحبة له وحسن الطاعة ، ولم يكن رحمه الله بالمنزلة المكروهة ، وانما كان الناس قد ألفوا دولة صلاح الدين وأولاده فتغيرت عليهم العادة دفعة واحدة ، ثم أن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم وتفنن ، ومن نياته الجميلة أنه يعرف حق الصحبة ولا يتغير على اصحابه ولا يضجر ، وهم عنده في حظوة ، وكان يواظب الى خدمة أخيه صلاح الدين ، يكون أول داخل وآخر خارج وبهذا خلبه ، فكان يشاوره في أمور الدولة لما جرب من نفوذ رأيه .

ولما تسلطن الأفضل بدمشق والعزیز بمصر قصد العزيز دمشق ، وذاق جنده عليها شدائد فرحل عنها ثم حاصرها نوبة ثانية ومعه عمه العادل ، فأخذها وعوض الأفضل بصرخد ، ولم يزل العادل يفتل في الذروة والسنام حتى أقطعه العزيز دمشق ، وهي السبب في أن تملك البلاد كلها وأعطى ابن أبي الحجاج يعني كاتب الجيش لما جاءه بمشورها ألف دينار ، ثم أخذ يدقق الحيلة حتى يستنبيه العزيز على مصر ويقيم هو بدمشق يتمتع في

بساتينها ، ففطن بعض اصحابه فرمى قلنسوته بين يديه وقال ألم يكفك أذك اعطيته دمشق حتى تعطيه مصر فنهض العزيز لوقته على غرة ولحق بمصر ، ثم شغب الجند وجرت أمور الى أن اجتمع الأفضل والعاقل وقصدا مصر وخامر جميع الأجناد على العزيز وصاروا الى الأفضل والعاقل ، حتى خلت مصر والقاهرة منهم وتهدمت دولة العزيز ، ثم أصبحت وقد عادت احسن مما كانت ، وصار معه كل من كان عليه ، ورجع الملك العادل في خدمته ورد الأفضل الى الشام ، ثم إن العادل توجه الى الشام وحشد وعبر الفرات ونازل قلعة ماربين يحاصرها وبذل الأموال ، وأخذ الربض. ثم إن الملك الأفضل وجد فرصة ونزل هو وأخوه الملك الظاهر صاحب حلب على دمشق يوم الثلاثاء فأصبح الملك العادل خارجا من أبواب دمشق فأنقطعت قلوبهم وتعجبوا متى وصل ، وكان لما سمع بنزولهم استتاب ابنه الكامل وسار على النجائب في البرية فلحق دمشق قبل نزولهم بليلة ، ومع هذا فضايقه ، وكان أكثر أهل المدينة معهم عليه الى أن اختلف الأخوان ايهمسا يملكها وتنافسسا ففدقاعسا ، ورحل الملك الظاهر وضعف الأفضل ورحل ، وبلغت ذفقة العادل عليها وعلى ماربين ألف ألف دينار .

وسعد العادل بأولاده فمن ذلك أمر خلاط فان ملكها شاه ارمن ملك مملوكه بكتمر ومات بعد صلاح الدين بنحو شهرين قتلتـه الملاحنة ، وملك بعده هزاري مملوكه وبقي قليلا ومات ، وتملك بعده ولده بكتمر وكان جميل الصورة حديث السن فاجتمع اليه الأراذل والمفسدون وحسنوا له طرقهم ، فغار الأخيار وملكوا عليهم بلبان مملوك شاه ارمن وقتل ولد بكتمر وأوحيسه ، وكانت أخته بنت بكتمر مزوجة بالملك المغيث طغرل بن قلع ارسلان صاحب أرزن الروم ، وبين بلبان والمغيث معاقنة ومعاضدة ، ولابن بكتمر جماعة يهوونه ، فكاتبوا الملك الأوحيد بن العادل صاحب ميافارقين ، فقصد خلاط فسار المغيث لينصر بلبان فاذا كف الأوحيد وطمع المغيث في خلاط فاغتال بلبان ، قتله ابن حرق باز ، وتسلم المغيث خلاط فحصل لأهلها غبن اذ غدر بملكهم فمنعوه ، ثم أنه قبض يده عن

- ٦٣٣٢ -

الاحسان المذسي الضغائن ، وقال له بعض الأمراء أبذل قدر ألف دينار وأنا ضامن بحصول البلد ، قال : أخاف ان لا يحصل ويضيع مالي فعلموا أنه صغير الهمة ، فذفرقوا عنه وكاتبوا الأوحى فجاء ومالكها ، ثم اختلفوا عليه ونكثوا فبذل فيهم السيف ، وانهمزمت طائفة ، فقال لي بعض خواصه انه قتل في مدة يسيرة ثمانية عشر ألف نفس من الخواص ، وكان يقتلهم ليلا بين يديه ويقون في الآبار ، ومالبت الا قليلا واختل عقله ومات ، وتوهم أبوه أنه جن فسير اليه ابن زيد المعزم وصدقة الطبيب من دمشق ، وتملك خلط بعده أخوه الأشرف .

ومات الظاهر قبله بسنتين فلم يتهن بالملك بعده ، وكان كل واحد منهما ينتظر موت الآخر ، فلم يصف له العيش لأمراض لزمته بعد طول الصحة والخوف من الفرنج بعد طول الأمن ، وخرجوا الى عكا وتجمعوا على الغور فنزل العادل قبالتهم على نيسان وخفي عليه ان ينزل على عقبة فيق ، وكانوا قد هدموا قلعة كوكب وكانت ظهرهم ، ولم يقبل من الجواسيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة فاغتر بما عودته المقادير من طول السلامة ، ففشيت الفرنج عسكره على غرة ، وكان قد أوى اليهم خلق من أهل البلاد يعتصمون به ، فركب مجدا ورماح الفرنج في أثره حتى وصل دمشق على شفا ، وهم بدخولها فمنعه المعتمد وشجعه وقال : المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق ، وأما الفرنج فاعتقدوا ان هزيمته مكيدة فرجعوا من قريب دمشق بعدما عاثوا في البلاد قتلا واسرا ، وعادوا الى بلادهم وقصدوا دمياط في البحر ونازلوها ، وكان قد عرض له قبل ذلك ضعف ورعشة وصار يعقره ورم الأنثيين ، فلما هربت الخيل على خلاف العادة وبخله الرعب لم يبق الا مدة يسيرة ومات بظاهر دمشق .

وكان مع حرصه يهين المال عند الشدائد غاية الاهانة ويبذله ، وشرع في بناء قلعة دمشق فقسم أبرجتها على أمراءه وأولاده ، وكان الحفارون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة فخرج

- ٦٣٣٣ -

من تحته خرزة بثر فيها ماء معين ، ومن نوادره ان عنتر العاقد بلغه ان شاهدا شهد على القاضي زكي الدين الظاهر بقضية مزوره ، فتكلم عنتر في الشاهد وجرحه ، فبلغ العادل فقال : من عادة عنتر الجرح ، وتوضأ مرة فقال : اللهم حاسبني حسابا يسيرا ، فقال له رجل ما جن : يامـولانا ان الله قد يسر حسابك ، قال : ويدك وكيف ذلك ؟ قال اذا حاسبك فقل له المال كله في قلعة جعبر لم أفرط في قليل ولا كثير ، وكانت خزانته بالكرك ثم نقلها الى قلعة جعبر وبها ولده الملك الحافظ ، فسول له بعض اصحابه الطمع فيها فأتاها الملك العادل ونقلها الى قلعة دمشق فحصلت في قبضة المعظم ، فلم ينازعه فيها أخوته ، وقيل ان المعظم هو الذي سول لأخيه الحافظ الطمع والعصيان ففعل ولم يفتن بأنها مكيدة لترجع الأموال اليه ، ثم انه أخرج سراري ابيه من دمشق واستصفى أموالهن وحليهن ، وشرع يضع على املاك دمشق القطائع والخراجات الثقيلة ، الخمس على البساتين والثلث على المزدروعات .

الوزير ابن شكر

هو رجل طوال تام القصب فخما ذي اللون مشرب بدمرة ، له طلاقة محيا ، وحلاوة لسان ، وحسن هيئة ، وصحة بنية ، زودهاء في هرج ، وخبث في طيش مع رعونته مفرطة وحقد لا تخبو ناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم ، لا ينام عن عدو ، ولا يقبل منه معذرة ولا إنابة ويجعل الرؤساء كلام أعداءه ، ولا يرضى لعدوه بدون الاهلاك ، ولا تأخذه في نقامته رحمة ولا يتفكر في آخرة ، وهو من دميرة ضيعة بديار مصر ، واستولى على العادل ظاهرا وباطنا ، ولم يمكن أحدا من الوصول إليه حتى الطبيب ، وأي وكيل والفراش عليهم عيون ، فلا يتكلم أحد منهم فضل كلمة خوفا منه ، ولما عزل دخل الطبيب والوكيل وغيرهما فانبسطوا وبكوا وضحكوا فأعجب السلطان ذلك ،

- ٦٣٣٤ -

وقال : ما منعكم أن تفعلوا هذا فيما مضى ؟ قالوا : خوفا من ابن شكر ، قال : فأننا كننا في حبس وأنا لا أشعر ، وكان غرضه إبانة أرباب البيوتات وتقريب الأراذل وشرار الفقهاء ، مثل جمال المصري الذي صار قاضي دمشق ، ومثل ابن كسا البليسي ، والمجد البهزي الذي وزر للأشرف ، وكان هؤلاء يجتمعون حوله ويوهمونه أنه أكتب من القاضي الفاضل ، بل ومن ابن العميد والصابي ، وفي الفقه أفضل من مالك ، وفي الشعر أكمل من المتنبي وأبي تمام ، ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان ، وحلف لا يأكل من الدولة ولا فلسا ويظهر أمانه مفرطة ، فإذا لاح له مال عظيم احتججه ، وعملت له قبسة العجلان فأمر كاتبه أن يكتبها ويردها وقال : لا نستحل أن نأخذ منك ورقا ، وكان له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام إلى خلاط ، وبلغ مجموع ذلك مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان يكثر الادلال على العادل ويسخط أولاده وخواصه ، والعادل يترضاه بكل ما يقدر عليه ، وتكرر ذلك منه إلى أن غضب منه على حران ، فلما سار إلى مصر وغاضبه على عادته فأقره العادل على الغضب وأعرض عنه ، ثم ظهر منه فساد وكثرة كلام ، فأمر بنفيه عن مصر والشام ، فسكن آمد وأحسن إليه صاحبها ، فلما مات العادل عاد إلى مصر ووزر للكمال وأخذ في المصادرات وكان قد عمر .

ورأيت منه جلدا عظيما أنه كان لا يستكين للنوائب ولا يخضع للذكبات ، فمات أخوه ولم يتغير ، ومات أولاده وهو على ذلك ، وكان يحم حمى قوية ، ويأخذه النافض ، وهو في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ولا يلقي جنبه إلى الأرض ، وكان يقول ما في قلبي حسرة إلا أن ابن البيساني - يعني القاضي الفاضل - ما تمرغ على عتباتي ، وكان يشتمه وابنه حاضر فلا يظهر منه تغير وداراه أحسن مداراة ، وبذل له أموالا جمة في السر .

وعرض له أسهال دمور ورخية وأنهكه حتى انقطع ويئس منه الأطباء ، فاستدعى من حينه عشرة من شيوخ الكتاب فقال أنتم

تشمقون بي وركب عليهم المعاصيروهو يزجر وهم يصيحون إلى أن أصبح وقد خف ما به ، وركب في ثالث يوم ، وكان يقف الرؤساء والناس على بابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع ، ويركب عنه الصباح فلا يراهم ولا يرونه ، لأنه إما ان يرفع رأسه إلى السماء تيها وإما أن يعرج على طريق أخرى والجنادرة تطرد الناس . وكان له بواب اسمه سالم يأخذ من الناس أموالا عظيمة ويهينهم إهانة مفرطة ، واقتنى عقارا وقرى .

الحاجب لأولؤ

كان شيخا أرمنيا في الاصل من أجناد القصر ، وخدم مع صلاح الدين مقدما للاسطول ، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم ، ادركته وقد ترك الخدمة وكان يتصدق كل يوم اثني عشر الف رغيف مع قدور الطعام وكان يضعف ذلك في رمضان ، ويضع ثلاثة مراكب كل مـــــركب طـــــوله عشرون ذراعا مملوءة طعاما ، ويدخل الفقراء أفواجا وهو مشدود الوسط قائم بذفسه وبيده مغرفة ، وفي الأخرى جرة سمن وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرب اليهم الطعام ، ويبدأ بالرجال ثم بالنساء ثم بالصبيان ، ومع كثرتهم لايزدحمون لعلمهم أن المعروف يعمهم ، فإذا فرغوا بسط سباطا للأغنياء يعجز الملوك عن مثله ، ولما كان صلاح الدين على حران توجه فرنج الكرك والشوبك لينبشوا الحجرة الذبوية وينقلوه اليهم ويأخذوا من المسلمين جعللا على زيارته ، فقام صلاح الدين لذلك وقعد ولم يمكنه أن يتزحزح من مكانه ، فأرسل إلى سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر أن جهز لولو الحاجب فكلمه في ذلك ، فقال حسبك ، كم عددهم ؟ قال : ثلاثمائة ونيف كلهم أبطال ، فأخذ قيودا بعددهم وكان معهم طائفة من مرتدة العرب ولم يبق بينهم وبين المدينة الا مسافة يوم فتداركهم وبذل الأموال فمالت اليه العرب للذهب فاعتصم الفرنج بجبل عال فصعد

- ٦٣٣٦ -

اليهم بذفسه راجلا في تسعة أذفس فخارت قوى الملاعين بأمر الله
تعالى ، وقويت نفسه بالله فسلموا أذفسهم فصافدهم وقدم بهم
القاهرة ، وتولى قتلهم الفقهاء الصالحون والصوفية .

الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي

له قصة عجيبة ، وهي أنه كان به حمى ربع أقامت به سبع
سنين ، فلما حضر حال السابغ وضع بين أرجل الخيل وضرب
بالدبابيس حتى أثخن ، فأقلعت الحمى عنه .

أخو القاضي الفاضل

كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده زهاء مائتي
كتاب من كل كتاب نسخ

أبو الفضل محمد بن محمد بن بنان القاضي الكاتب الأنباري المصري

كان رقيقا طويلا أسمر عنده أدب وترسل وخط حسن وشعر
لابأس به ، وكان صاحب ديوان مصر في زمن المصريين والفاضل
ممن يغشي بابه ويمتدحه ويفتخر بالوصول اليه ، فلما جاءت الدولة
الصلاحية قال القاضي الفاضل هذا رجل كبير القدر يصلح أن يجري
عليه ما يكفيه ويجلس في بيته ففعل ذلك .

ثم أنه توجه إلى اليمن ووزر لسيف الاسلام ، وأرسله إلى
الديوان العزيز ، فعظم ببغداد وبجل ، ولما صرت إلى مصر وجدت
ابن بنان في ضحك من العيش شديد ، وعليه دين ثقیل وأدى أمره إلى

- ٦٣٣٧ -

أن حبسه الحاكم بالجامع الأزهر ، وكان ينتقص بالقاضي الفاضل ويراه بالعين الأولى ، والفاضل يقصر في حقه فيقصر الناس مراعاة الفاضل ، وكان بعض من له عليه دين المجبى جاهلا ، فصعد إليه إلى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته وضربه ، ففر وألقى بنفسه من سطح الجامع فتهشم ، فحمل إلى داره وبقي أياما ومات ، فسير القاضي الفاضل بجهازه خمسة عشر دينارامع ولده ، ثم إن القاضي مات فجأة بعده بثلاثة أيام رحمه الله •

الفصل الثاني

في حوادث سنة سبع وتسعين وخمسة مائة

وبدلت سنة سبع مفسدة اسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر أهلها البلاء وخرجوا من خوف الجوع ، وضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا في البلاد ايادي سبأ ، ومزقوا كل ممزق ، وبخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل وبسيء الهواء ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ، ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيرا مما يعثر عليه

ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والاكل ، ورأيت صغيرا مشويا في قفة وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهم أبواه فأمر باحراقهما ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل ، وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة كل من أثر الاطلاع على علم التشريح .

وحين مآذشم الفقراء في اكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعا لامره وتعجبا من وقوعه ، ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطوية ومدخرا وتفننوا فيه ، وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر ، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع ، واستهجن الكلام فيه والسماع

- ٦٣٣٩ -

له ، واقد رايت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق ، وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها مقبلون على شؤونهم ، لم أر فيهم من يعجب لذلك أو يذكره ، فعاد تعجبي منهم اشد ، وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه .

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا ، وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه .

وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيا ، وحكى لي عدة نساء أنه يتوثب عليهم لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن .

ورأيت مع امرأة فطيما فاستحسنته وأوصيتها بحفظة فحككت لي انها بينما تمشي على الخليج انقض عليها رجل جلف ينازعها ولدها ففترامت على الولد نحو الارض حتى أدركها فارس فطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله ، وأن الولد بقي مدة مريضا لشدّة تجاذبه المرأة والمفترس .

ونجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس مندبثين في جميع اقطار البلاد ، وارقة الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم ، وإنما يعثر عليهم في الندرة وإذا لم يحسنوا التحفظ ، وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء ، وما أظن العلة فيه الا ان النساء أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار ، ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، ورأيت امرأة قد أحضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي ، فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ، ثم سحبت فماتت على المكان ، وإذا

احرق آكل اصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء ويستغني عن طبخه .

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم ، وبخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير ، منهم من يفعله حاجة ومنهم يفعله استطابة ، وحكى لنا رجل انه قد كان له صديق ادقع في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله ليأكل عنده ما جرت به عادتهما قبل فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاءة الفقر وبين ايديهم طيخ كبير اللحم وليس معه خبز فرا به ذلك وطلب المرحاض فصاف عنده خزانة مشحونة برمم الادمي وبالحم الطري ، فارتاع وخرج فارا .

وظهر من هؤلاء الخبثان من يتصيد الناس باصناف الحبائل ويجتابونهم الى مكامنهم بأنواع المخاتل وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابني ، أما أحدهم فان اباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة اعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما دوغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها ، فتركت درهميها وانسلت .

وأما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضة في الشارع بزعمه وجهل في اثناء الطريق يصدق بالكسر ويقول اليوم يفتنم الثواب ويتضاعف الأجر ، ولما حل هذا فليعمل العاملون ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ، ومع ذلك فحسن الظن يغلبة وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله دارا خربة ، فزاد استشعاره وتوقف في الدرج . وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليه رفيقه يقول له هل مع ابائك حصل صيد نفع ، فجزع الطبيب لما سمع ذلك والقي نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها لسعاده ، فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت بأن اهل هذا المنزل يذبحون الناس بالختل .

ووجد باطفيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الادمي وعليه

الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه ، فقال : خفت اذا دام الجذب ان يهزل الناس ، وكان جماعة من الفقراء قد اودى الى الجزيرة وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب لهم قتلهم فهربوا ووجد في بيوتهم من عظام آدم شيء كثير ، وخبرني الذقة ان الذي وجد في بيوتهم أربع مائة جمجمة ، ومما شاع وسمع من لفظ الوالي ان امرأة أتته سافرة مذعورة تذكر انها قابلة ، وأن قوما استدعوا وقدموا لها صحن فيه سكباج محكم الصنعة ، مكمل التوابل فالفتة كثير اللحم مباينا اللحم المعهود فذقرزت منه ، ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم فقالت : ان فلانة السمينه بخلت لتزورنا فذبحها ابي وهامي معلقة اربا فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها انا بئر لحم ، فلما قصت على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها ، وهرب صاحب المنزل ، ثم صانع عن نفسه في الخفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا ، وزوجها غايب في الخدمة ، وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طيبخ فطلبت منه كما من عادة الحبالي ، فالفته لنينا فاستزادتهم فزعموا انه نكد فسألتهم عن كيفية عمله ، فأسروا اليها انه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها وضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواربها خوفا منها ، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك ، فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد في جوفها .

ولو اخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهدر .
وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانها وانما هو شيء صادفناه اتفاقا ، بل كثيرا ما كنت افر من رؤيته لبشاعة منظره .

وأما من يتحيز ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه اصنافا تحضر مع اناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحدة اثنان واكثر ، ووجد في بعض الايام قدر فيها عشر ايد كما تطبخ اكارع الغنم ، ووجد مرة اخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الاطراف مطبوخا بقمح واصناف من هذا الجذس تفوت الاحصاء ، وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالهم شيخ كتبي بدين ممن يبيعنا الكتب فاقلت بجريعة الذقن ، وكذلك بعض قوام جامع مصر في حباله قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الهرق وله خصاص ، وأما من خر - عن اهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير .

وحكى لي من اثق به انه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من افخاذه ، فاذا ذكر عليها فزعمت انه زوجها وكثيرا ما يدعي الآكل ان المأكول ولده او زوجه او نحو ذلك ، ورؤي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بان قالت انما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن أكله أنا خير من أن يأكله غيري ، وأشبهه هذا كثير جدا حتى أنك لاتجد احدا في بيار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى ارباب الزوايا والنساء في خدورهن .

ومما شاع ايضا نبش القبور ، وأكل الموتى ، وبيع لحومهم ، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بلد الا وقد اكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص ، والفيوم ، والمحلة ، والاسكندرية ، ودمياط ، وسائر النواحي .

وخبرني بعض اصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك ، واعجب ما حكى لي انه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة ، وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف وان كنت قد اسهبت اعتقد أنني قد قصرت .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب

- ٦٣٤٣ -

يرخصون الاجرة على الركاب ، فإذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم
وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم ، وأقر
بعضهم عندما أوجع ضربا ان الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف
دينار .

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لا يطيق علمه الا الله
سبحانه وتعالى ، وانما نذكر منه كالاتموزح يستدل به اللبيب على
فضاعة الامر فالذي شاهدنا بمصر والقاهرة وما تأخر ذلك أن الماشي
اين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ، أو من هو في السياق
أو على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع من القاهرة خاصة الى
الميضأة كل يوم ما بين مائة الى خمس مائة ، وأما مصر فليس
لموتها عدد ويرمون ولا يوارون ثم بأخذه عجز عن رميهم فبقوا في
الاسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها ، والميت منهم قد تقطع والى
جانبيه الشواء والخباز ونحوه ، وأما الضواحي والقرى فانه هلك
اهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الامهات
والقرى والكبار كقوص والاشمونين والمحلة ونحو ذلك ومع هذا
ايضا فلم يبق فيها الا تحلة القسم ، وان المسافر ليمر بالبيلة فلا يجد
فيها نانخ ضرية ، وتجد البيوت مفتحة واهلها موتى متقابلين
بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه وليس له من
يأخذه ، حدثني ذلك غير واحد كل منهم يحكي ما يعضد به قول
الآخر ، قال أحدهم : دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا في
الارض ولا في السماء ، فتخللنا البيوت فالفينا اهلها كما قال الله عز
وجل: (جعلناهم حصيدا خامدين) (الانبياء ١٥) فتجد سكن كل
دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده ، قال ثم انتقلنا الى بلد آخر
ذكر لنا انه كان فيه اربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في
الخراب وان الصايك في بير حياكته ميت واهله موتى حوله ،
فحضرني قول الله تعالى (إن كانت الا صيحة واحدة فاذا هم
خامدون) (يس ٢٩) قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه
كالذي قبله ليس به أنيس ، وهو مشحون بموتى أهله ، قال :
واحتجنا الى الإقامة به لاجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى

مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال : ولكن قد بذلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها ، ومن عجيب ما شاهدت أني كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم الاقرب المذفوخة هذا من غير ان نتقصد رؤيتهم ولا احطنا بعرض البحر ، وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا اشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانابيئش العنصل ، وخبرت عن صياد يفرضه تنيس أنه مر به في بعض نهار اربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، وأما طريق الشام فقد تواترت الاخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة ، وأنها عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع ، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم ، وأول من هلك في هذه الطريق اهل الدوف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق ، وكثيرا ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضربون جوعا حتى يموتوا ، وأما بيع الاحرار فشاع وساع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض علي جاريتان مراهقتان ببينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريتين احدهما بكر ينادى عليهما احد عشر درهما ، وسألتي امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفت أنها ان ذلك حرام ، فقبلت خذها هدية ، وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم او يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيهم الى العراق واعماق خراسان وغير ذلك ، واعجب من جميع ما اقتصصناه ان الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على اصنام شهواتهم لا يرعون ، منغمسون في بحر ضلالتهم كأنهم هم المستثنون ، فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء الذسوة حتى ان منهم من يزعم انه افترض خمسين بكرا ، ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر ، وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم

هذه الجملة التي اقتصصناها ، وناهيك ان القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها نقر وربما لم يوجد وأما مصر فخلا معظمتها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقدس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون اصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة في زحمة من الناس ، حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها اكثرها خال خراب ، وأن ربعا في اعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى اربعة بيوت اسكنت من يحرس الموضع . ولم يبق لاهل المدينة وقود ، تنانيرهم وافرانهم وبيوتهم إلا خشب السقوف والابواب والزروب ، ومما يقضى منه العجب ان جماعة من النين مازالوا محدوبين يتبعوا في بنياهم هذه السنة ، فمنهم من اثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من اثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط .

وأما خبر النيل في هذه السنة فانه احترق في برمودة احتسراقا كثيرا وصار المقياس في ارض جزر وانحسر الماء عنه نحو الجزيرة ، وظهر وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات ابنية وتغير الماء في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ، ثم انكشف امره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الايام ظهرت وكثرت كالتي ظهرت في ابيب من السنة الخالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ، ثم تناقصت الى ان نهبت وبقي في الماء اجزاء نباتية منبثة فقط ، وطاب طعمه وريحه ، ثم أخذ في رمضان ينمو وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقام فيه ابن ابي الرداد قاع البركة فكان ذراعين ، وأخذ في زيادة ضعيفة أضعف منها من السنة الخالية ، ولم يزل في زيادة ضعيفة الى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسري ، فزاد اصبعا ، ثم وقف ثلاثة ايام فايقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ، ثم أخذ في زيادات قوية اكثرها ذراع الى ثالث ذي الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة اصبعا ، ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ومسى بعض البلاد تحله القسم

- ٦٣٤٦ -

فكانما زارها طيف خياله في الحلم ، وانما انتفع به ماكان من البلاد
مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير ان القرى عالية عن
فلاح او حراث أصلا فهم كما قال الله تعالى (فاصبحوا لا يرى الا
مساكنهم) (الاحقاف ٢٥) وإنما ارباب الجدات يجمعون شذاذهم
ويلتقون افرادهم ، وقد عز الحراث والبقر جدا ، حتى يباع الثور
الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك ، وكثير من البلاد يندسر
عنها الماء بغير حقه ولغير وقته اذ ليس بها من يمسك الماء ويحبسه
فيها فتبور لذلك مع ريها ، وكثير مما روي يبور لعجز اهله عن
تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع اكلته الدوبة وكثير مما سلم
منها اذوى وعطب ، ونهاية سعر القمح في هذه السنة خمسة دنانير
الاردب والفلول والشعير باربعة دنانير ، وأما بقوص والاسكندرية
فبلغ ستة دنانير ، ومن الله سبحانه يرجى الفرج ، وهو المتيح للخير
بمنه وجوده .

الفصل الثالث

في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

وبخلت هذه السنة والاحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام او في تزايد الى زهاء نصفها ، فتناقص مدوت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب ، وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره اصلا ، وقل خطف الاطعمة من الاسواق ، وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم من المدينة وانحطت الاسعار حتى عاد الارب بثلاثة دنانير لقله الأكلين لا لكثرة المأكول ، وخفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة ، والاف الناس الغلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي ، وحكي لي انه كان بمصر تسع مائة منسج للحرير ، فلم يبق الا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة ان يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك ، وأما الدجاج فعدم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكي لي أن رجلا مصريا شارف الفقر فآلهم أن يشتري من الشام دجاجة بستين ديناراً وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانين مائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم اربعا واستمر على ذلك ، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبت برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا ، وأما الافران فانما توقد باخشاب الدور فيشتري الفرن الدار بالثمن البخر ويقد زروبه وأخشابه أيما ، ثم يشتري آخر وربما كان فيهم من تذهبه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا وربما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشتريا فيفصل أخشابها وابوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها

مهدومة وكذلك ايضا يفعلون بدور الكراء ، واما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها انيس ، وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشها ، وكثيرا من اهلها موتى فيها ، ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر في غاية العمارة واهلها في غاية الكثرة ، واما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا ، حتى ان المسافر يسير في كل جهة أيا ما لا يصادف حيوانا الا الرمم ما خلا البلاد الكبار كقوص واخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية فان فيها بقايا ما عدا هذه وامثالها فان البلد الذي كان يحتوي على ألوف خال أو كالخالي .

وأما الاملاك ذوات الاجر المعتبر فان معظمها خلا ولم يبق دأب اهلها الا حراستها بسد ابوابها وتحصين مساكنها أو اسكانها من يحرسها باجره ، اللهم الا ما كان من الملك في قبضة المدينة فان بعضه مسكون باخف اجرة ، وأعرف ربعا في اعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين ديناراً ، فعادت في هذه السنة الى نحو عشرين ديناراً وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشهر ستة عشر ديناراً فعادت الى فويق الينار ، وجميع ما لم نذكره على هذا القياس افهمه ، والذي دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفن وجرى له اسم في الديوان وضمته الميضاة في مدة اثنين وعشرين شهرا اولها شوال من سنة ست وتسعين وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين مائة الف نفس وأحد عشر ألفا أحادا ، وهذا مع كثرته نزر في جنب النين هلكوا في دورهم وفي أطراف المدينة واصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر ، وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر في جنب من أكل في البلدين وذلك نزر جدا في جنب من هلك أو اكل في سائر البلاد والضواحي والطرق ، وخاصة طريق الشام فانه لم يرد أحد من ناحيته فسألته عن طريق الا ذكر أنها مزروعة بالاشلاء والرمم ، وهكذا وهكذا ما سلكته منها .

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد ، ولا سيما عند وقت الزراعة فلعله يموت على المحراث

الواحد عدة فلاحين ، حكى لنا أن النين بذروا غير النين حردوا ، وكذلك النين حصدوا.وباشر زراعة لبعض الرؤساء ، فأرسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم هكذا مرات في عدة جهات .

وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبع مائة جنازة ، وان تركة واحد انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثا وان طائفة كبيرة من اهلها تزيد على عشرين الفا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت في زمن اليازوري ، وعلى يديه وكان وزيراً ظالماً ، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية وكأن هذا الحادث تقاصي في الطبيعة .

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن ينتابني سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل من زبونه ذو شارة وشهرة بستر وبين وجدة ، فلما حصل في المنزل اغلق الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا ، وضربه المريض ، غير أنه لم يكن لهما معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجهم فقتلوا فخلصوا الشيخ مرتنا وبه رمق يسير ، وقد وجئت خصيتاه وكسرت ثنيتاه وحمل الى منزله مغشيا عليه ، وأحضر الفاعل الى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : الجوع فضربه وذفاه .

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرين من بشنس أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس وهبوا من مضاجعهم مدهوشين ، وضجوا الى الله سبحانه وأبثت مدة طويلة ، وكانت حركتها كالغربة أو كخفق جناح الطير ، وانقضت على ثلاث رجفات قوية مادت بها الابنية واصطفقت الابواب ، وصرصت السقوف والاشخاب وتداعى من الابنية ماكان واهيا أو مشرفا عاليا ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين الا انها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان في هذه الليلة

- ٦٣٥٠ -

برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفي نهـار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الانفاس ويأخذ بالكظم ، وقلمـا تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الاخبار تتدواتر بحدوث الزلزلة في النواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها ، والذي صـح عندي انها حركت في ساعة واحدة طائفة من الارض من قـوص الى دميـاط ، والاسكندرية ، ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طـولا وعرضا ، وتعتفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها اثر ، وهلك من الناس خلق عظيم ، وامم لاتحصى ، ولا أعرف في الشام بلدا احسن سلامة من القدس ، فانها لم تنل منه الا مالا بال به وكانت نكاية الزلزلة في بلاد الاقـرنج اكثر منها في بلاد الاسلام كثيرا وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرس وان البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فاندفرق في مواضع ، وصارت فرقة كالاطـواد ، وعادت المراكب على الارض ، وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ثم وردت كتب من الشام ومن دمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة ، ومما اتصل بي كتابان اوردتهما بلفظهما ، نسخة الكتاب الوارد من حمـاه « ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، حدثت زلزلة كادت الارض تسير سيرا والجبال تمـور مورا ، وما ظن احد من الخلق الا انها زلزلة الساعة ، وأتت دفعتين في ذلك الوقت ، اما الدفعة الاولى فاستمرت ساعة أو تزيد عليها ، واما الثانية فكانت دونها ، ولكن أشد ، وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حمـاه مع اقـقانها وعسارتها ، وبارين مع اكنـنازها ولطافتها ، وبعليك مع قوتها ووثاقتها ، ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع البازخة الى الآن ما أذكره ، ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في عملها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت في هذا اليوم ايضا وقت صلاة العصر ، ووصل الخبر من دمشق بان الزلزلة أفسدت

- ٦٣٥١ -

فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الكلاسة والبيمارستان جميعه ،
وعدة مساكن تساقطت على اهلها فهلكوا » .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق : « والمملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة
الاثنين سادس وعشرين شعبان ، وقت انفجار الفجر ، وأقامت مدة
قال بعض الاصحاب انها مقدار ماقرأ سورة الكهف ، وذكر بعض
المشايع بدمشق انه لم يشاهد مثلها فيما تقدم ومما اثرت في البلد
سقوط ست عشرة شرافة من الجامع ، واحدى الدوانن وتشقق
أخرى ، وقبة الرصاص ، يعني الذسر وانخساف الكلاسة ومات فيها
رجلان ، ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع
كثيرة ، وسقط بالبلد عدة ادور ، وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس
سقطت بعضها ، وصدف كذلك ، ولم يبق بها الا من هلك سوى
السمرة ، ويذكر ان القدس سالم والحمد لله .

اما بيت جن فلم يبق منه ولا اساس الجدران الا وقد اتى عليه
الخشف ، وكذلك أكثر بلاد حوران غارت ، ولم يعرف لبلد منها
موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية ، ويقال ان عكة سقط أكثرها ،
وصور ذلثها وعرقه خسف بها وكذلك صافيتا وأما جبل لبنان ففيه
موضع يدخل الناس اليه بين جبليين يجمع منه الريباس الاخضر
فيقال الجبليين انطبقا على من بينهما ، وكانت عدتهم تناهز مائتي
رجل ، وقد أكثر الناس في حديثها ، وأقامت بعد ذلك اربعة ايام
تحدث في النهار والليل ، ونسأل الله لطفه وتديره وهو حسبنا ونعم
الوكيل ..

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة من ينتابني في الطب وصلوا الى
كتاب التشريح ، فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن
العيان فاخبرنا ان بالقدس تلا عليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا
من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون تراه أقاء من الموتى ، به بحس
ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات في
قرب العهد وبعده فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية

اتصالها وتناسبها واطواعها ما افادنا علما لانستفيد من الكتب ،
واما أنها سككت عنها اولا يفي لفظها بالدلالة عليه ، او يكون ما
شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس اقوى دليلا من السمع ، فان
جاليندوس وان كان في الدرجة العليا من التحري والتدقيق فيما
يباشره ويحكيه ، فان الحس اصدق منه ، ثم بعد ذلك يتخيل لقوله
نخرج ان امكن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد اطبقوا على انه
عظامان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل انما نعني به هاهنا
جاليندوس وحده هو الذي باشر التشریح بذفسه وجعله دأبه ، ونصب
عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا ، والباقي لم يخرج
الى لسان العرب ، والذي شاهدنا من حال هذا العضوانه عظم
واحد ليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ماشاء الله من
المرات في اشخاص كثيرة تزيد على الف في جمجمة باصناف من
الاعتبارات فلم نجده الا عظيما واحدا من كل وجه ، ثم اننا بجماعة
متفرقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزدوا على ماشاهدناه
منه وحكيناه ، وكذلك في أشياء آخر غير هذه ولئن مكنتنا المقايير
بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ماشاهدناه وما علمناه من
كتب جاليندوس ، ثم اني اعتبرت هذا العظم بمدافن بوصير القديمة
المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن
الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان ان تظهر ،
وتتفرق وهذا الفك الاسفل لا يوجد في جميع احواله الا قطعة واحدة ،
واما العجز فقد ذكر جاليندوس انه مؤلف من ستة اعظم ، ووجدته انا
عظما واحدا ، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ،
ثم اني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة اعظم كما قال جاليندوس ،
وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال الا في جثتين فقط فاني
وجدته فيهما عظما واحد ، وهو في الجميع موثق المفاصل ، ولست واثقا
بذلك كما انا واثق باتحاد عظم الفك الاسفل ، ثم اننا دخلنا مصر
فرأينا فيها دروبا واسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام ، والجميع
خال ليس فيه حيوان الا عابر سبيل في الاحايين ، وأن المار فيها
ليستوحش ، ومع ذلك فقلما يذفك قطر منها عن جثة او عظام
متفرقة ، حتى خرجنا الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فرأينا

- ٦٣٥٤ -

القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة الخالية ذراعين ، وابتدأ بالزيادة في السنة الخالية هذا اليوم ، فاما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من ابيب لم يزد في هذه المدة سوى اربع اصابع حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس فظنوا ان حادثا وقع بفوهته وعند مبدأ جريته ، ثم اخذ في الزيادة حتى انسلخ ابيب ، وهو على ثلاث اذرع ووقف يومين ، فاشتد هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع بقوة قوية وزيادات متدركة ، وجبال من المياة متدافعة فزاد ثمانى اذرع في مدة عشرة ايام منها ، ثلاث اذرع متوالية ، وانتهى في رابع توت وهو الثاني عشر من ذي الحجة الى ست عشرة ذراعا تنقص اصبعاً واقام يومين ثم اخذ ينحط متباطئاً وينصرف رويداً .

فهذا ما قصد اقتصاصه من احوال هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنهى الكلام .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبي الامي وعلى آله الطيبين الطاهرين ، كتبته مؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي في رمضان سنة ستمائة بالقاهرة .

الباھر فی الدولة الاتابكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي النعم الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والمنن الزاهرة ،
الذي امتن على عباده (بالاهتداء) (١) ، وبتمليك الملوك وتسامير
الامراء ، فجعلهم سببا لكف القوي عن الضعيف ، والاخذ للمشروف
من الشريف ، نحمده على ما أنعم فأجزل ، وأحسن فأفضل ،
ونصلي على (سيدنا محمد وعلى آله وصحبه) .

أما بعد : والذي غمرنا من إنعام هذه الدولة العزيزة
القاهرة (٢) ، والايام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من إحسانها ،
وأنا لثنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبره ، وطار
ذكره في الافاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسديها ،
ونعمة توليها ، ودرجة في العلا ترفع بضربنا اليها ، ومرتبة في
الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات
المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين .
وكان اكثر الموالى السعداء - قدس الله ارواحهم - إنعاما علينا ،
وإحسانا إلينا ، المولى السعيد المالك العادل نور الدين أرسلان
شاه (٣) رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم في الاخرة نذله ومثواه .

والبس الله هاتيك العظام وإن
بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مئوى قبورهم روحا وريحانا

فانه طال ما انعم علينا وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا
واصطفانا ، وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلننا ، مازال يوالينا
الجميل ، ويولينا الجليل ، ويقربنا الى حضرته العلية ، ويدنينا من
سدته السنية ، وبأسراره يخصنا ، ولشورته يستخلصنا ، لم يخل
يوما من بر رغب ، وإنعام لنفاسه غريب ، وكان ما يمدنا به من

طوله بحرا ، يقذف بالغنى ، ويجود بما لا يبلغه المنى . فلهذا كانت حياتنا من سيب أنعمه غدق الحياض ، مـونقة الرياض ، ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحديثه باخلاص الدعاء ، وصدق العبودية والولاء ، وإظهار الشكر والثناء ، ونصحه بمحضه ، وذؤدى مسدونه ومفترضه . كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة ، وطويات في الولاء غير مماذقة . وكنت عازما على أن أدون أخبارهم ، وأجمع آثارهم ، وأذكر ما من الله سبحانه على الاسلام والمسلمين وما حفظ من ثغورهم بجلائدهم ، وما صب بهم على الفرنج من العذاب بأيديهم ، واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخذ محاسن اعمالهم على ممر الدهور ، وتعاقب السنين والشهور ، جزاء لاحسانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت الاعذار تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغرض ، والعوائق تحيل جواهر أمكانى الى العرض ، ولما استأثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين - تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه - وقام بالملك بعه ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ابو الفتح مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زكي بن أفسـذقر ، ناصر أمير المؤمنين - نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح غمورا ، لازالت الاقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إيثاره ، ولا برحت الحوادث عن جنبابه الشريف مصروفة ، وأعين الكوارث عن دولته القاهرة مطروفة - وملا ذلك الدست ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولاغرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل في عزيمة الاسد :

وأنت من القوم الذين هم هم
إذا زال منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم احسابهم ووجوههم
جى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

- ٦٣٥٩ -

وما زال منهم حيث كانت مهالك
تسير المنايا حيث سارت كتايبه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العزم ، واحببت أن أجلو
مناقب الموالى الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم
إليه ، وأذكر من مشاهدتهم في نصرة الدين ، وذبحهم عن حوزة
المسلمين ، ما انتهى اليه علمي ، وأثبتته قلمي : شعر

أخبار قوم بذوا وما نقضوا
فالذكر يحيا وإن هم قبضوا
جادوا فما قصرت أكفهم
عن غاية في الندى ولا عرضوا
وانتهزوا فرصة التمكن إذ
تصوروا أن مكثها عرض
في دولة القاهر الملك عز الـ
دين عن كل من مضى عوض

قال : ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنده أولا وأخرا ، ويقتدى بأفعالهم
واردا وصادرا ، وليتيقن أنه لم يكن لاحد من الملوك المتقدمين
والخلفاء الراشدين ، منقبة بينية وبنوية وتجربة في حفظ الممالك
والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف - ثبت الله تعالى
قواعده ، وشد من عزه معاقده - ما يضاهيها ، وظهر عنهم ما
يمثلها ويناويها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم(٤) . لابل والله من قاس غيرهم بهم قاس الذمد الى البحر ،
والخشلب(٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ، والارض الجرز
(٦) بنضرة الروض المريع ، وكان القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الارض ملوكا مثلهم
ولا اظلتها السماوات العلى

- ٦٣٦٠ -

معاد كل راغب وراهب
إذا أتى بيارهم ألقى العصي
لا ينطق العوراء في نأديهم
ولا يحلون إلى الجهل الحبي
لا يصطلى بنارهم عند اللقا
ويصطلى بنارهم عند القرى
هم النجوم طالع وأفل
يعلولهم غرس إذا غرس ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى
هم البحور ليس يعلوها القذى
إن سئلوا لم يبخلوا أو عاهدوا
لم يغدروا أو ذكروا طاب الثنا

ونقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى ، فإنه كان راوية
حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتني كثير مما
سمعت منه ، لأنني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته ، ولم
أثبته بقلمي في حياته ، ومع هذا فأنني تعمدت ترك الاكثار ، لميل
الناس في زماننا إلى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير
قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه ، لأنه أول من ملك منهم فيما
علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده
المولى الشهيد عماد الدين زنكي قدس الله روحه ، ولم أذكر أحدا
غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة خليفة واستخلاف آخر ،
وموت سلطان سلجقي وولاية غيره ، إذ الضرورة تدعو إليه ، وبالله
التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر رضي الله
عنه

قال صاحب التاريخ (٧) . كان قسيم الدولة تركيا من اصحاب

السلطان جلال الدولة ركن الدين (٨) ملكشاه بن الب أرسلان واتباه ، وممن ربي معه في صغره وصحبه الى حين كبره ، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقسيم الدولة صحبته ، فجعله من اعيان امرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الاحسان أهله ، فرفع قدره وأعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وافضى اليه بأسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به ووثقا حسده عليه سائر امرائه واجناده ، لما رأى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والايثار ، وزاد قدره علوا الى أن صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الاعوان ، فإشار على السلطان بأن يوليه مدينة حلب وأعمالها ، ويحكمه في عساكرها وأموالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسيم الدولة ، وكانت الالقاب حينئذ مصونة لا تعطى الا لمستحقها ، حتى ان السلطان - مع جلالة قدره - لم يكن يعرف الا بجلال الدولة ولم يكن لقبه في الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة ايضا يقف الى جانب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه احد ، وصار ذلك ايضا لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضي الله عنهما يقف

عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين ابن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما الى همذان - وبها حينئذ السلطان الب أرسلان بن طغرل بن محمد ، واتباه البهلوان ، هو أخو السلطان لأمه ، والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه - وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامة ، وقال لشرف الدين : هذا لكم من قديم الزمان ليس لاحد غيركم أن يقف فيه مع حضوركم وكل هذا يدل على ما ذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محله .

ذكر مسير قسيم الدولة

مع فخر الدولة بن جهير الى الموصل بامر السلطان ملكشاه

في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير
فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة الى نيار بكر ليلتملكها ويجلي عنها
بنى مروان على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ ، وسير عميد
الدولة بن فخر الدولة بن جهير - وكان زوج ابنة نظام الملك - الى
الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ،
وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة
اقسذقر ، وتقدم الى عميد الدولة ليكون فعله في حروبه وحصاره
برأي قسيم الدولة ، لمعرفة بتدبير الجيوش وحضر البلاد وشجاعته
في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقبهم في الطريق الامير
ارتق بن أكسب التركماني - جد ملوك الحصن (٩) ومارين يومنا
هذا - ومعه خلق كثير من التركمان فاستصحبوه معهم - وكان
مشهورا بالعقل والدين - فلما وصلوا الى الموصل حضروها
وضيقوا على من بها وأرسل ارتق الى من بها يشير عليهم بالدخول
في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن
امتنعوا واصرروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه واذعنوا له واطاعوا
وسلموا البلد ، فأخذ عميد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة
وأهله ونخائره . وكان السلطان عازما على اخذ جميع البلاد التي
لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج اخيه
تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فارسل مؤيد
الملك بن نظام الملك الى شرف الدولة قطيب قلبه ، وذكر له ان أباه
نظام الملك قد شفع فيه الى السلطان فأجاب شفاعته ، وأمره بالسير
معه الى خدمة السلطان ، فسار صحبتته ولقي السلطان بالبوازيج
(١٠) فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما اخذ له من اهل ومال ،
وسار السلطان نحو خراسان فظفر باخيه .

ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت أنطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . ولم يزالوا بها الى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفرديروس (١١) فصار عنها الى بلاد الروم ، فكتب اهلها الى سليمان بن قتاش - وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها - وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية ، فصار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه لشرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم ، وتهده وخوفه عاقبة ، معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعاده ، والخطبة والسكة له في ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهده ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فصار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم أحوجني إلى ما فعلته ، وإلا فليس من عادتي اخذ مال مسلم ورد عليهم ما اخذ منهم . فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقية سليمان في أول أعمالها ممالي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزما وذاق عاقبة بغيه وكان ملكه من السندي بالعراق على نهر عيسى إلى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية : كهيت ، والانبار وغيرهما ، وملك الموصل ، وبيار ربيعة ، والجزيرة بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة . ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها فأرسل اليه اهلها : اذا انفصل الامر بينك وبين تاج الدولة تدش ، سلمنا اليك البلد . وكان تاج الدولة له

- ٦٣٦٤ -

مدينة دمشق وذواحيها قد اقطعه اياها اخوه السلطان ملكشاه ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب - وقد اقطعه تاج الدولة البيت المقدس - فلما ارسل اهل حلب الى سليمان مذكروا ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلى الحرب عن هزيمة عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة الى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكاتب اهلها السلطان ملكشاه ليسلموها اليه وهو بالرها ، وكان سبب مسيره اليها ، ان ابن عطير النميري كان قد باعها من الروم بعشرين الف دينار وسلمها اليهم ، فدخلوها واخربوا المساجد واجلوا المسلمين عنها ، فسار ملكشاه اليها هذه السنة فحصرها وفتحها واقطعها الامير بزان ، فلما اتاه رسل اهل حلب بالتسليم اليه ، سار اليهم فلما بلغ خبر مسيره الى تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ، ووصل السلطان الى حلب ، وبالقلة سالم بن مالك بن بدران العقيلي - وهو ابن عم شرف الدولة - فسلمها الى السلطان بعد قتال ، واعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفارة من صاحبها جعبر القشيري وكان شيخا كبيرا أعمى ، فبقيت بيد سالم واولاده الى ان اخذها منهم الملك العادل نور الدين ابو القاسم محمود بن زنكي رضي الله عنهما ، على ما ذكره ان شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، ارسل اليه الامير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكنانى صاحب شيزر و دخل في طاعته وسلم اليه لاذقية ، وفامية ، وكفر طاب فاجابه ملكشاه الى الصلح وترك قصده .

ثم إن نظام الملك اشار على السلطان بتسليم حلب واعمالها ، وحماه ، ومنبج ، ولاذقية ، ومامعها الى قسيم الدولة اقسنقر فأقطعه الجميع ، فبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، على ما ذكره ان شاء الله تعالى .

واقطع السلطان مدينة انطاكية ياغي سيان ، وهو صاحب صلاح

- ٦٣٦٥ -

الدين محمد الياغسياني الذي صار امير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكي .

ولما استقر قسيم الدولة في الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده ، وان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه في تجميل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها .

معرفة حسنة

يذكر اهل التواريخ انه ليس من مشهور العرب من قتل هو وابوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ، فان عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضي الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية ، وليس مشهور الترك من هو هكذا ، غير قليج ارسلان فقد قتله جاولي سقاووا بالخابور غريقا ، وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . واما ابوه قتل مش بن ارسلان يبغيو بن سلجوق فقتله صاحب مدينة استوا (١٣) لانه جمع خلاقا كثيرا من الاتراك وخرج عن السلطان الب ارسلان ، فلقية صاحب استوا فقاتله ، فانهزم قتل مش وسقط عن فرسه فمات . واما ابوه ارسلان يبغيو بن سلجوق ، فان صاحب غزنة من اولاد محمود بن سبكتكين (١٤) اخذه فقتله ، واخذ ابن قتل مش حتى خلصه الملك داود والد السلطان الب ارسلان لما ملك خراسان .

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، قتل الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق ، قتله صبي يدعى بعد الافطار ،

- ٦٣٦٦ -

وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من اصناف الناس ، وحمل في محفة لنقرس كان به الى خيمة الحرم ، فلقبه صبي يلقي مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله ، وقتل الصبي ايضا ، فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تمر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين ، انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كأنه أتاه واخذه من محفته ، فاستبشر نظام الملك بذلك ، وظهر السرور به ، وقال : هذا أبغي وایاه اطلب ، وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره .

وكان عالما ، فقيها ، نبيا ، خيرا ، متواضعا عادلا يحب اهل البين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لانه اشتغل بالفقه في حياته مدة .

واما صدقاته ووقوفه فلا حد لها ، ومدارسه في العالم مشهورة ، لم يخل بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر - التي في زاوية من الارض لا يؤبه لها - بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي الان تعرف بمدرسة رضي الدين .

واعماله الحسنة ، وصنائه الجميلة مذكورة في التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ولا ادركه من كان بعده ، رحمه الله ورضي عنه .

وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توحضا ، ولا توحضا الا وصلى . وكان يقرأ القرآن حفظا ، ويحافظ على اوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة ، حتى انه اذا اغفل المؤمن امره بالاذان ، واذا سمع الاذان امسك عن كل ما هو فيه ، واشتغل باجابته ثم الصلاة .

واما ابتداء امره ، فانه كان يحب التصرف ، فاتصل بامير كان صاحب بلخ يعرف بالامير ياخر - وكان مقدم عسكر الملك جفري

- ٦٣٦٧ -

بك داود جد السلطان ملكشاه - وكان ياخر لايعطيه الا مايقوم به حسب ، وفي اخر كل سنة يصادره بما يفضل معه فضجر من هذه الحال ، واخفى اولاده - وكان له فخر الملك ومؤيد الملك - وركب فرسه وهرب . وكان فرسه بطيئا ، فدعا الله تعالى ان يرزقه فرسا يخلصه عليه ، فلم يسر الا قليلا حتى لقيه تركماني تحته فرس جيد فسلمه اليه واخذ فرسه عوضه ، وقال له : يا حسن اذكر هذه . قال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسي ، وعلمت ان السعادة قد جاءت ، ووصلت الى مرو ، ودخلت على الملك داود فاخذ بيدي وسلمني الى والده الملك عضد الدولة الب ارسلان وقال : تسلمه واتخذته والدا لا تخالفه . ثم ان الامير ياخر سأل عني فلم يجبني واخبر بهربي ، فسار بذنقه في طلبني حتى دخل على الملك داود فطلبني منه ، وقال : اخذ مالي وهرب ، فقال له داود : حديثك مع ولدي الب ارسلان ، فلم يجسر يخاطبه فيه . ووزر نظام الملك للسلطان الب ارسلان قبل ان يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغرل بك ، فلما توفي طغرل بك سعى نظام الملك في اخذ السلطنة لصاحبه الب ارسلان ، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه الى ان توفي . ثم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه الى ان قتل . وكان قد تحكم عليه الى حد لايقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة الامراء والعساكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم اليه بحسن سيرته وعدله .

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن الب ارسلان رضي الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضي الله عنه . وسبب وفاته انه اكل لحم صيد فاكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفي منها (١٥) وكان مولده في جمادى الاولى سنة سبع واربعين واربعمائة ، فكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وستة اشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان احسن الناس صورة ومعنى ويكفيه ان من جملة حسناته ،
نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقاربة . حكى لي والدي رحمه الله
تعالى - ثم اني رأيت ما حكاه بعد ذلك مذكورا في كتب التاريخ -
قال : ان السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض
اولاده ، وقال له في جملة عتبه : ان كنت شريكى في الملك فعرفني ،
وان كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء والا طيقت دواتك
وعزلتك ، فقال للرسول : قل للسلطان عني : ان كنت ماتعلم انني
شريك فاعلم ، واذكر ما فعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوتك
ونازعوك في الملك وكادوا يقهروذك ، فتوليت ردهم بذفسي ، وقمت
المقام الذي تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف
جزع فيها ملكشاه وخفاف ، فـردـها نظـام الملك
بالرأي والحرب ، فان كان هذا كلامه ذلك الوقت . واما قوله
انه يطبق الوقت دواتي فقل له : اعلم ان هذه الدواة متعلقة بزر
قلنسوته التي على رأسه ، فمتى اطبق هذه سقطت تلك . فيقال ان هذا
كان سبب قتل نظام الملك ، وان السلطان وضع ذلك الديامي حتى
قتله ، وصح قول نظام الملك ، لما طبقت دواته لم يعيش السلطان غير
خمسة وثلاثين يوما ومات . وكان هذا كالكرامة لنظام الملك .
وكانت مملكة السلطان ملكشاه قد اتسعت اتساعا عظيما ، اطاعته
البلاد جميعها وملكها ، وخطب له من حدود الصين الى الداروم من
ارض الشام ، واطاعه اليمن والحجاز ، وكان يأخذ خراج ملك
القسطنطينية كل سنة ، واطاعه صاحب طراز واسـيـجـاب ،
وكاشغر ، وبلاساغون وغيرهما من الممالك البعيدة ، وملك سمرقند
وجميع ما وراء النهر . ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار
السلطان اليه ، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه ،
ولم يزل حتى ظفر به واحسن اليه واستصحبه معه الى اصفهان .
وعمل السلطان من الخيرات وابواب البر كثيرا ، منها ما صلحه
وعمله من المصانع بطريق مكة ، وحفر من الانهار ، وبنى مدرسة
عند قبر الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ، وبنى الجامع الذي بظاهر
بغداد عند دار السلطنة . وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر

- ٦٣٦٩ -

ثم سار الى نصيبين فحصرها ، فسبه اهلها ففتحها عذوة وقهرا ، وقتل بها خلقا كثيرا ، واستتاب بها محمد بن شرف الدولة العقيلي .

وراسل ناصر الدولة ابراهيم بن قريش بن بدران - وهو صاحب الموصل حينئذ - يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقا الى بغداد ، فامتنع عليه ، وسار كل واحد منهما الى صاحبه ، فالتقيا بالمضيق من بلد الموصل ، وكان على ميمنة تاج الدولة ، قسيم الدولة اقسنقر ، وعلى ميسرته بوزان ، فحملت العرب على بوزان فانهمزم ، وحمل قسيم الدولة على العرب مما يليه فهزمهم ، أسر ابراهيم وجماعة من أمراء العرب ، فقتلهم تاج الدولة صبرا وملك بلادهم جميعها ، الموصل وغيرهما .

وسار في ربيع الآخر من هذه السنة الى ميفارقين فملكها وسائر بلاد نيار بكر .

ثم سار منها الى اذربيجان فقصده الملك ركن الدين بركياروق - وكان قد ملك كثيرا من البلاد منها : الري وهمذان وما بينهما - فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : انما اطعنا هذا الرجل لننظر مايكون من اولاد صاحبنا ، والان فقد ظهر بركياروق ، والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصار معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع الى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله اسماعيل بن ياقوتي ثم اطاعه ، فخلا به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه في الحديث فاعلمهم انه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم امرهما ركن الدين بالعود الى الشام ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فعادا .

- ٦٣٧٠ -

مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيح وبني مثلها بسمر قند ايضا .
ولما مات ضببطت زوجته ترکان خاتون العسكر ، وكتمت موته فلم
يلطم احد وجها ، ولم يشق عليه ثوب ، ولم يسمع بسُلطان مثله توفي
فلم يصل احد عليه . ولم يجلس اصحابه للعزاء سواء . وارضت
زوجته العسكر وحلافتهم لولدهما محمود ، وعمره اربع سنين ،
وسارت الى اصفهان .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه - وهو الاكبر - فطلب السلطنة
فأخذها وتوفي محمود . ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه ، فنازع
اخاه بركياروق ، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت حوالي اثنتي
عشرة سنة ، الى ان توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد .

وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج الى الساحل ، وملكوا انطاكية
اولا ثم غيرها من البلاد ، وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ

ذكر صلح قسيم الدولة اقسنقر

وتاج الدولة تتش بن الب ارسلان وماشده من
الحروب معه

قد ذكرنا ان السلطان ملكشاه كان قد اقطع اخاه تاج الدولة مدينة
دمشق واعمالها وماجاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرهما ، فلما
توفي ملكشاه واختلف اولاده وهم صغار ، جمع تاج الدولة العساكر
وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة اقسنقر ، فعلم قسيم الدولة ان
اولاد صاحبه صغار ، وان الملك لا يستقيم لهم لصغرهم والخلف
الواقع بينهم ، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة ، فصالحه وخطب له
بحلب ، وراسل نور الدين بوزان صاحب حران وياغي سيان صاحب
انطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة فملكها ، وخطب لنفسه
بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين واربعمائة .

- ٦٣٧١ -

ذكر وفاة امير المؤمنين المقتدى بامر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم من سنة سبع وثمانين واربعمئة ، توفي الامام المقتدي بامر الله امير المؤمنين رضي الله عنه فجأة . واسمه ابو القاسم عبد الله بن الامير محمد بن القائم بامر الله . وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة اشهر .
وانشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التي كانت بباب الازج ، والحلبة ، والاجمة ، ودرب القيار ، والمقتدية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية .

وهو استوزر فخر الدولة ابا نصر محمد بن محمد بن جهير ، وهو من الموصل .

وكانت خلافته بعهد من جده القائم بامر الله امير المؤمنين ، وامه تركية .
وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفي وقد علم على منشور السلطان بركياروق بالسلطنة . وكتمت القهر مائة شمس النهار موته ، واحضرت الوزير واعيان الدولة وجددت البيعة لولده ابي العباس احمد المستظهر بالله امير المؤمنين ، فلما بايعوا اظهرت وفاة المقتدي .

ولما بويع المستظهر بالله ارسل الى السلطان بركياروق لاختذ البيعة - وكان ببغداد - فانفذ بركياروق وزيره عز الملك بن نظام الملك والامير برسق وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ، ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان احضر الغزالي والشاشي وغيرهما من

- ٦٣٧٢ -

العلماء فبايعوا . ثم ارسل الى غرنة ، وماوراء النهر ، وكرمان ،
والشام لاختذ البيعة .
ولما استخلف اقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله

هو المستظهر بالله ابو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي
القاسم عبد الله بن الأمير النخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي
جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد
الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم أبي
اسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبد الله
محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله
ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ، بينه وبين العباس
عشرة خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فاما الخلفاء : فالمقتدي ، والقائم ، والقادر ، والمقتدر ،
والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .
واما وليا العهد : فالنخيرة محمد بن القائم - وهو والد المقتدي
بأمر الله - والموفق الناصر لدين الله ابو أحمد بن المتوكل - وهو
جد المقتدر بالله .

واما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد : فاسحاق - والد
القادر بالله - ، ومحمد - والد المنصور - ، وابوه علي ، وعبد
الله بن العباس .

وقد ولي الخلافة من بني العباس من غير ابناء المستظهر سبعة
عشر خليفة ، وهم : ابو العباس عبد الله بن محمد السفاح - اول
خلفاء بني العباس - ، والهادي موسى بن المهدي ، والأمين محمد
والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق - وهو أخو المتوكل . ثم

المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم - وهو ابن اخي المتوكل - ثم المهتدي محمد بن الواثق بن المعتصم . وولي المكتفي علي بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله . ثم ولي الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم . ثم ولي المكتفي بالله عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد بالله . ثم ولي المطيع لله أبو القاسم الفضل ، وولده الطائع لله أبو بكر عبد الله .

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران . وكان سبب قتلهما ، ان تاج الدولة تنش لم يزل يجمع العساكر بعد عودته من انريجان الى الان ، فكثرت جمعه ، وعظم حشده ، وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وامدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالامير كربوقا - وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل - فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق ، تقدموا نحوه والتقوا برويان على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان ، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ ، واقتتلوا واشتد القتال ، فخامر بعض عساكر قسيم الدولة وانهزموا وتبعهم الباقون ، وثبت قسيم الدولة فاخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة ، فقال له : لو ظفرت بي ما كنت صنعت . قال : كنت اقتلك . قال : فانا احكم عليك بما كنت تحكم علي فقتله صبرا . وسار نحو حلب ، وكان قد دخل اليها الامير كربوقا وبوزان فحفظاها منه ، ولج في قتالها حتى ملكها واخذهما اسيرين ، وأرسل الى حران والرها ليملكهما - وكانتا لبوزان - فامتنع من بهما من التسليم لبوزان اليه - فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلين . واما كربوقا فانه أرسله الى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل ابيه تاج الدولة .

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن واسع ، وكان شرط على أهل كل قرية في بلاده ، متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده أقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحديث الركبان بحسن سيرته .

وأما وفاؤه وحسن عهده فيكفيه فخرا أنه قتل في حفظ بني صاحبه وولي نعمته .

ذكر حال ولده عماد الدين زنكي بعد والده رضي الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة أقسنقر ، لم يخلف من الأولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه ، وفيهم زين الدين علي ، وهو صبي أيضا .

ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بدمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه إلى حران - وقد اجتمع معه عسكر صالح - فملكها . ثم صار إلى نصيبين فملكها أيضا . ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي ، فإنه كان مالكا لها وسار نحو ماربين فملكها أيضا .

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة أقسنقر وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي . وقال : هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضره عنده ، فاقطعهم الاقطاعات السنوية وجمعهم على عماد الدين زنكي ،

- ٦٣٧٥ -

واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها ، فلم يزالوا معه .

ثم ان كربوقا توجه إلى آمد وصاحبها من امراء التركمان ، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق - جد صاحب الحصن يومنا هذا - ، فجمع من التركمان خلقا كثيرا وسار نحو آمد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا ، فرأى كثرة التركمان فخافهم ، فاخذ عماد الدين زنكي والقاء بين مماليك والده ، وقال لهم : قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس فهزموا سقمان وأسروا ياقوتي ابن أخيه ، فحبسه كربوقا ثم أطلقه . وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين زنكي بعد قتل والده . ولم يزل عماد الدين مع كربوقا الى ان توفي سنة اربع وتسعين واربعمئة .

وملك بعده موسى التركماني من اصحابه ، فلم تطل ايامه وقتل .
وملك الموصل شمس الدولة جكرمش - وهو ايضا من مماليك السلطان ملكشاه واخذ الشهيد عماد الدين وقربه واحبه ، واتخذ له ولدا لمعرفته بمكانة والده ، فبقى الى ان قتل سنة خمسماية .
ولاجرم ان الشهيد قدس الله روحه ، رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد ، فانه أخذ ولده ناصر الدين كوري ، فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذة صبورا .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوا فأتصل به عماد الدين زنكي وقد كبر فظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد ، وكان جاولي قد عبر الى الشام ليملكه من الملك رضوان ، فأرسل السلطان الى الموصل الأمير مودود واقطعه اياها سنة ثنتين وخمسماية ، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفيهم الأمير التدونقاش الأبري ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك

- ٦٣٧٦ -

أكرمه وأعظمه وأكثر أقطاعه ، فحكى لي والدي قال : كنت أراه الى
جانب المولى الشهيد لايتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب
بالموصل الى الآن في خدمة الدولة القاهرة .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد
الدين عرف له ذلك ، مضافا الى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل
والشجاعة ، فزاد في أقطاعه وشهد معه حروبه ، فمما بلغني
منها ، ان الأمير مودودا سار الى الغزاة بالشام ففتح في طريقه
قلعا من شبختان وكانت للفرنج وقتل من بها منهم ، ثم سار الى
الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة
قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة
عن الملوك الى أعلاهم حسبا

ابهرهم فضلا ، أغمرهم بزلا
أفخرهم أبدا فعلا ومنتسبا

أشم أشوس مضروبا سراقه
على الممالك مرخى دونها الحجا

ممتنع العز ، معمور الفناء به
مظفر العزم ؛ والآراء منتخبا

من معشر طالما شربوا بكل ونى
نارا يظل أعاديهم لها حطبا

ثم ان الأمير مودودا رحل عنها وعبر الفرات الى الشام ، فحصر
تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضا ، ثم سار عنها
الى معرة النعمان فحصرها ، وجاء اليه الأمير طغديكين صاحب

دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف أن يأخذ منه دمشق فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم فان السلطان محمدا ، كان قد أمد الأمير مودودا بعسكر مقدمهم الأمير سكمان القسطنطيني صاحب تبريز وغيرها ، فمرض سكمان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس فأخذ أصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعترضهم إيلغازي بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه وجعلوا تابوت سكمان في القلب كما كان حيا ، وقاتلوا فظفروا ، وانهزم إيلغازي وعادوا الى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، ووصلح طغديكين للفرنج ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأذن لعسكره في العود والاستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل مودود طغديكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد الى الشام ، وحضر عنده أتابك طغديكين وساروا جميعا الى طبرية وحصروها وقاتلوها قتالا شديدا وظهر من أتابك الشهيد رضي الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها فمناها : أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهويظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه الى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما ، فعجب الناس من أقدامه أولا ومن سلامته أخرا ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل صاحب القدس ، وعكا وصور وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث عشر محرم (سنة ٥٠٧) عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم

الفرنج لعنهم الله . ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم المسلمون ، فلما كان من الغد وصل الى الفرنج عسكر قوي من انطاكية وغيرها ، فـقويت نفوسهم واحتموا ، وحضرهم المسلمون وهم على رأس جبل والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوما ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان ، فنزل اليهم الفرنج وتواقفوا خمسة ايام ، وانقطعت المانة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا الى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها ، فخرج يوما يصلي الجمعة ، فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغديكين ، وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل إلى دار طغديكين وأجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لالقيت الله الا صائما فإنني ميت لامحالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله . فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغديكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيرا عادلا حسن السيرة ، فحدثني والذي رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج الى طغديكين يقول له : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يبيدها فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعودا الى الموصل ، ثم انه جهز أقسنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج ، وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة مالا يوصف ، ولا سيما بعد ما فعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار الى الرها في خمسة عشر الف فارس ، فحضرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل الى سميساط وهي ايضا للفرنج ، فأخرب بلدها وبلاد سروج وعاد الى شبختان

- ٦٣٧٩ -

فأخرب ما فيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها
بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وما ظهر له
من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين
بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة
وخمسائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسائة (ولد الملك العادل نور الدين
محمود بن زنكي رحمه الله) (١٧) .

قال : وفيها غرقت سنجان من سيل المطر وهلك منها خلق
كثير ، ومن أعجب ما يحكى ان السيل حمل مهذا فيه طفل ، فعلق
المهد في شجرة ونقص الماء ، فسالم ذلك الطفل ، وغرق غيره من
الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة
عظيمة .

ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة
وخمسائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان
مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السيل ، فلما كان يوم
النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس
الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث
والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك
محمودا - وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة - فلما راه قبله
وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في
أمر الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك - يعني من طريق
النجوم - فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

بالسلطنة ، فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج ، وتوفي السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والاحسان ، وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وكان عمره سبعة وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ماخطب له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار ، ولقى من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد ، الى أن توفي أخوه السلطان ركن الدين بركيارق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته ، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر .

وكان عادلا حسن السيرة ، شجاعا ، واطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ، ومن عدله انه اشترى عدة ممالك من بعض التجار وأمر أن يوفي الثمن من عامل خوزستان ، فأوصل البعض ومطل بالباقي ، فحضر التاجر مجلس الحكم ، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث اليه ، فأمر من يستعلم حاله ، فلما سأل عن حاجته ذكرها له ، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطالب بماله ، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله ، فعظم عليه وضاق صدره ، وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ، ويلزم بمال التاجر ، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمتل هو ولا غيره بمال يحال عليهم ، ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا : لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ، ولم يمتنع أحد عن اداء الحق ، وهذه الفضيلة ايضا مما ذخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الأتابكي ، فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، فعل ماندم السلطان محمد على تركه ، ولما علم الأمراء وغيرهم (أن) من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله ، اقتدوا (به) وأمن الناس ، وظهر العدل .

ثم ان السلطان محمودا أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر حرب ، انهزم فيها محمودا وعاد الى عمه بغير عهد ، فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم بأقصى الشام ، وهي من الممالك : همذان ، واصفهان وبلد الجبال جميعه ، وبلاد كرمان ، وفارس وخوزستان والعراق وأذربيجان وأرمينية وبيار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وبيار مصر وبيار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد أولاد قلج ارسلان ومايين هذه الممالك من البلاد. ورأيت مذشورة بذلك .

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر ، ولا شهدا ليستقصى ذكرها فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا اليها لتعرف .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله

وخلافة المسترشد بالله

قال ، وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله من تراقى ظهرت به (١٨)

وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام . وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً . ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تقيش (١٩) ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان رضي الله عنه كريم الأخلاق ، لين الجانب، مشكور المساعي ، يحب العلم والعلماء ، وصذفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرها .

وكان يسارع الى أعمال البر والمذوبات ، ولا يرد مكرمة تطلب منه ، كثير الودوق الى من يوليه الاعمال ، لا يصغي الى سعاية ساع .

وكانت أيامه أيام سرور وأمن للرعية ، وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره ، واذا تعرض سلطان أو غيره الى أذى أحدهم بالغ في انكار ذلك والزجر عنه .

وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد ، تدل على فضل غزير وعلم واسع ، ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يالفها ، ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية ، وكان المتولي لأخذ البيعة قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني ، وممن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردي ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والاحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود

وما أثر عن عماد الدين فيها

قال: لما ولي السلطان محمود السلطنة ، أقر أخاه الملك مسعود على الموصل مع أتابكه جيوش بك ، فبقي مطيعاً لأخيه الى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، فحينئذ خرج عن طاعته ، وكان سبب ذلك ان دبيس بن صدقة الاسدي ، كان في عسكر السلطان محمد ، وقد أخذ بلد الحلة منه ، فلما ملك السلطان محمود أقطعه الحلة وأعاده اليها ، فلما وصل الى الحلة كاتب الأمير جيوش بك

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه ، ما ناله أبوه سيف الدولة صدقة فاختلاف السلطانين بركيارق ومحمد ، وقد ذكرناه في المستقصى - وكان الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك أيضا ، وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية انريجان ، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك الى السلطان محمود ، فأرسل اليه وإلى أخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الاحسان أن عاودا الطاعة ، ويتهديهما أن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوي طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود ، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة ، وكان عماد الدين زكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا الى قوله ، وبلغ قوله الى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعودا وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقلّة عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب اليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو وخمسة عشر ألف فارس ، والتقوا عند عقبة اسد آباد في ربيع الأول ، فدام القتال بينهم الى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهم ، واسر جماعة من امراء عسكرهما والاعيان ، منهم الأستاذ أبو اسماعيل الطغرائي وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال: قد صح عندي فساد اعتقاده وبينه ، وكان قد جاوز ستين سنة . وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمنيت ان القاك في الدهر مرة
فلم أك في هذا التمني بمرزوق
سوى ساعة التوبيخ دامت فكم مني
أنالت وما قامت بها أملا سوقي

فيا ليت ان الدهر كل زمانه
وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان بينه وبين الواقعة
اثني عشر فرسخا فاخترق فيه ، وارسل ركابيا كان معه إلى أخيه
يطلب الأمان ، فأرسل إليه البرسقي بأمانة وتطبيب قلبه ، فأحضره
معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه واحسن
إليه ، ولما لقيه بكى كل واحد منهما إلى صاحبه ، واعتذر مسعود
فقبل عذره وخلطه بذفسه في كل اموره .

وأما جيوش بك فانه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره ، فسار
إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بها فلما بلغه خبر
اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم انه لا مقام له ، فسار
جريدة إلى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه وأقره على
أذربيجان .

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم ان السلطان أقطع أقسـنـذر البرسقي بلد الموصل
وأعمالها ، كالجزيرة ، وسنجان ، ونصيبين وغيرها في صفر سنة
خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وأمره بحفظ عماد الدين
زنكي وتقنيته والوقوف عند اشارته ، فسار إلى الموصل ، وفعل مع
عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لما كان من العقل
والشجاعة ، وتقدم والده في الأيام الركنية وكانت سيرة ملاكشاه
عندهم كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا
لسيرته .

ذكر اقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، اقطع اتابك عماد الدين مدينة واسط وولي شحنة البصرة ، وكان سبب ذلك ان الامير ديبس بن صدقة الاسدي صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والامير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان (محمود) وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه إلى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديبس ، فانحدر إليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقى ديبس عند نهـر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، وسبب ذلك انه رأى خلا في مسيرته وبها الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين أقيت الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي ، وقيل بل أعطي رقعة فيها أن جماعة من العسكر يريدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد إلى بغداد ثاني ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي لم يعرض ديبس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل إلى الخليفة انه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج الذواب إلى الأعمال .

ثم أن السلطان ولي البرسقي شحنة العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت جهان والدته اخيه الملك مسعود ، وأقام البرسقي ببغداد إلى شعبان من هذه السنة ، وتربدت الرسل بينه وبين ديبس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل ديبس عسكرا إلى واسط - وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه - فلما سمع من بها بمسير عسكر ديبس إليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالأمير التونتاش الأبري وعماد الدين زنكي واقطعه البلد ، وأمرهم بطاعته ، فصافوا عسكر ديبس فهزموهم وأسرُوا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى ديبس .

- ٦٣٥٦ -

وأقام عماد الدين زنكي بواسط ، وارسل البرسقي إليه أيضا فوله شحنكية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليها وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها والاغارة عليها مرة بعد أخرى ، فلما سكنها لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلين ما لم يظنه أحد ، فازداد شأنه عظما .

وتجنب ديبس قصد ولايته لعلمه أنه لا ينال منها غرضا ، وأنفذ عسكريا نحو المدائن ، فخاف أهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازما على قصد ديبس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين ، حيث يترك ديبس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة ديبس وعسكر بغداد

وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد ديبس وعساكره الى المدائن وعبر البرسقي الى الجانب الغربي ليسير اليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله الى ديبس ينهاه عن العصيان ، ويتهده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب ديبس وحلف ليقصن بغداد وليخربنها ويقتل أهلها ، وجمع العرب واطمعمهم في نهب بغداد فكثرت جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه برة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب ، وعبر في الزبذب ومعه وزيره نظام الملك احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل ، وقاضي القضاة الزينبي وغيرهم ، فلما سمع البرسقي

بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الأرض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة ، أحضر البرسقي والأمراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة - وقد تأخر دبيس عن المدائن - فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل ، ورتب البرسقي عسكره ، فجعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره ، والأمير أبا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء بين يديه ، والمصاحف منشورة وتقدم إلى أهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما تواقفت العساكر ، حملت ميسرة دبيس - ومقدمها عنتر بن ابي العسكر - على الأمير أبي بكر الياس ومن معه ، فتراجعوا على أعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر ايضا حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك ، حمل في عسكر واسط على عنتر وأصحابه ، وأطبقتوا (عليه) من خلفه ، وعاد الأمير ابو بكر ، فبقى عنتر ومن معه في الوسط ، فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له كمينا ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر دبيس ، فانهزمت العرب ومن معهم ودبيس ، فألقوا نفوسهم في النيل ، فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقي ، وأن من بها قد اشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكي فلما تم الظفر ، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبورا .

وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثنى عشر ألف راجل ، وعسكر الخليفة والبرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارسا .

- ٦٣٨٦ -

ووقع نساء ديبس وسراريه في الأسر ، غير زوجته ابنة ايلغازي
ابن ارتق وابنة عميد الدولة ابن جبير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين
عليه السلام .

وكانت الواقعة في اول المحرم سنة عشرة وخمسمائة وعاد
المسترشد الى بغداد فدخلها يوم عاشوراء .

وثار العامة ببغداد ، فنهبوا مشهد باب التين ومساعد
الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكا العلويون ذلك إلى الخليفة
فأنكره ، وسير نظر الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل
ذلك والتذكيل به ، ففعل بهم ما أمر ، واسترد من النهب ما أمكنه
ورده على أصحابه .

وأما ديبس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد
وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصيا على أخيه السلطان
محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي

واتصاله بالسلطان محمود

قال : ولما فارق ديبس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل
السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال
بجهاد الأفرنج ، وولى شحنة بغداد يرزقش الزكوي ، فعاد
البرسقي في ستة سبع عشرة وخمسمائة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي
إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثني
والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعه إياها لما كان بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي - وقت اختلاف العساكر والحروب - وأمره بالحفظ والاحتياط . وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب وأحب جمع العساكر ، وخوف ناحيته ، فتقدم إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطلع إلى معرفة حالها ، فإن قصدوا عسكر من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، فصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحنة بغداد

كان قد جرى بين يرندش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله ذفره ، فتهدده المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمس مائة ، شاكية من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق ،

وقال له : إن تأخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان إلى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخراب البلاد والغلاء الذي بها ، وبذل له على تأخره مالا كثيراً ، فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر الى الخليفة عبر هو واهله وحرمه وأرباب المناصب الى الجانب الغربي في ذي القعدة . مظهرا للغضب والانتزاع عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فاعاد الجواب : إنني أمرتك بالتأخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الاقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فنحن راحلون عنه بالاهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل الى بغداد ، فلما كان عيد النحر ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السرايدات والمذبر ، واحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفا الخادم في عسكر الى واسط ، وبها عماد الدين زنكي ، وكان قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت إليه ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربي من واسط ، فعبر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديدا ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعا إليه ، وسد أبواب الخلافة سوى باب الذوبي ، وأمر حاجب الباب ، ابن صاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه . ووصل السلطان الى بغداد في عشرين من ذي الحجة ، ونزل بالشماشية ، وبخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس ، ولم يزل السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع ، وكان يجري بين العسكرين مناوشة ، والعامه من الجانب الغربي يسبون السلطان أفدش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في الحرم

سنة عشرين وخمسمائة ، ونهبوا التاج وحجر الخليفة ، وضج اهل بغداد . فلما راهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى بأعلى صوته : يآل هاشم ، وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار الف رجل مختفين في السرايب فظهروا - وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب - فاسروا جماعة من الامراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ، ودار عزيز الدين المستوفي ، ودار حكيم اوجد الزمان الطبيب ، وقتل منهم خلق كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من اهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على ابواب البلد وعلى شاطئ دجلة .

وعزم عسكر الخليفة على تبييت عسكر السلطان ، فغدر بهم الامير ابو الهيجاء الكردي الهذباني صاحب اربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد ارسل الى عماد الدين زنكي يامره ان يحضر بنفسه ، ومعه المقاتلة في البر والماء ، وان يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الاعلام ، وظهر السلاح ، وأخرج بعض من في السفن الى البر فامتلات الارض والماء رجالا وسلاحا ، فرأى لناس منظرا عجيبا وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملا قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لان البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها يقدر يفارقها ليحفظوها ، فأخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض اليها أحد باني .

- ٦٣٩١ -

وكان الخليفة - لما هرب الامير ابو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين - قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجيء ويقاثلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاثلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلبا في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا الى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان مما جرى . وكان حليما يسمع سبه باننه ولا يعاقب عليه . وعفا عن أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار باحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لاتساوي العراق بعض هذا . ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الاخر ، وحمل الخليفة اليه كل ما استقرت القاعدة عليه من المال ، والسلاح ، والخيول وغير ذلك .

فلما اراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنة بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الامور ، فلم ير في امرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنة العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث اسنده إلى الكافي القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة ، قتل أفسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى ذلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقيون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : لا اترك الجمعة لشيء أبدا ، وكان يشهد في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ،

فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيرا عادلا ، لين الاخلاق ، حسن العشرة مع اصحابه . حكى لي والدي رحمه الله تعالى ، قال : حكى بعض الغلمان النين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بذفسه ولا يستعين بأحد ، قال : فرأيت به بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده ابريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأيته قمت إليه لأخذ الابريق من يده ، فمنعني وقال : يا مسكين إرجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لأخذ الابريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى رنني الى مكاني . ثم توضأ ووقف يصلي . وذكر لي من احواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقي ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود ، وأرسل الى السلطان يطلب ان يقرر البلاد عليه ، فاجابه الى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الاعمال ، فضبط البلاد وقام فيها المقام المرضي ، وكان شابا عاقلا ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهم ، وكان يدبر الامر بين يديه الامير جاولي - وهو مملوك تركي من مماليك أبيه - وكان أيضا عاقلا حسن السيرة ، فجرت الامور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه في عذفوان شبابه حمامه وتوفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، فولى بعده أخوه الاصغر ، وقام بتدبير دولته جاولي أيضا ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم ، وبذل أموالا كثيرة .

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة

نبتدىء قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولاتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف أهلها من كف عانيتهم ، وتتابع غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبواهم بالتبار والتباب ، واستطار في البلاد شر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدره ، وسماء عزهم مذفطرة ، وشمس إقبالهم منكورة ، ورايات المشركين خلال بيار الاسلام مذشورة ، وأنصارهم على أهل الايمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين ، وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من بيار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن بيار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستاصلوا ما لأهلها من أثاث وعين .

وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعباً ومشقة ونصبا ، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم .

- ٦٣٩٤ -

ثم زاد الامر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا وأتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود الى أوطانهم ، والرجوع إلى أهليهم وأخوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن أثار العود إلى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتسارا .

واما حلب فانهم أخذوا مناصفة اعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

واما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين . فلما نظر الله تعالى الى ملوك البلاد الاسلامية وأمرأة الملة الحنيفية ، وما هم فيه من العجز عن نصره الدين ، والوهن في حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل ذكاله وويله ، إرتاع للاسلام وأهله ، وأذف لهم من ذلال عدوهم لهم واسره وقتله ، فحينئذ أراد ان يسلط على الفرنج من بسوء افعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصلبان رجوما منه تهلكتها وتفنيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوي الرأي والنجدة والشهامة من اصفياه ، فلم ير فيها أقوى على هذا الامر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي ولا أثبت جنانا ، ولا امضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول القائل :

رماها بحرب منه حتى كانما
بدعوة نوح في العصاة رماها
أخي الحرب يصلحها بذفس كانما
تزاحم في ضحك الوغى بسواها
كتائب تزهى بالفتوح كأنما
تباري النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذ الموحدين منهم بثأرهم فأصبحت أهله الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون في حلل من النصر قضافضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعقل ، وجازوهم بما اسلفوا من النخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالنيار الجزرية والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره واعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، وذقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا ، هذا سوى مكارم أخلاق أدرع جلبابها ، وحسن سياسة إعتلق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففي شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمس مائة . قال : تولى عماد الدين زنكي بن أقسنقر الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه ، وتولى أمره جاولي ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين أبا الحسن علي بن الشهر زوري وصلاح الدين محمد الياغيساني ، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر - الذي كان أعظم اصحاب أتاك زنكي منزلة - وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، فخوفه نصير الدين ، من جاولي وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعماد الدين فهو الراي ، لان السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابه إلى ذلك وأخذته إلى القاضي بهاء الدين ابن الشهر زوري وتحدثا معه ووعده نصير الدين ومناه ، وض

- ٦٣٩٦ -

له عن عماد الدين من الأملاك والاقطاع والوقوف على اختياره
ماجاوز أمه ، فأجاب بهاء الدين أيضا ، وركب هو وصلاح الدين
الى دار الوزير - وهو حينئذ أنو شروان بن خالد - فقال له : قد
علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى
الفرننج (عليها) وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وقد كان
البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده
طفل ، ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها ، وقد
أنهينا الحال إليك ، لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام
والمسلمين ، فنحصل نحن بالاثم من الله ، واللوم من
السلطان ، فأنهى الوزير ذلك الى السلطان ، فقال : من تريان
يصلح لهذه البلاد ، فقد نصحتما لله تعالى وللمسلمين ، فذكروا
جماعة فيهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله أكثر من غيره فقال
السلطان الى توليته ، لما علم من شهامته وكفايته وعقله ولما تولاه ،
وأمرهما بالحضور عنده ، وفصل الحال في خدمة يحملها ، واستقر
الحال وولاه البلاد جميعها ، وكتب منشوره الى بغداد .

وسار زنكي الى البوازيح ليملكها ويتقوى بها ، ويجعلها ظهره
إن صده جوالي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى
الموصل ، فحين أن اتصل خبر وصوله بجوالي ، خرج إلى لقائه
ومعه العسكر جميعه ، فلما رأى الشهيد ، نزل عن فرسه وقبل
الأرض ، ثم قبل يده وعاد في خدمته ، فأقطعه الشهيد الرحبة
وأعمالها وسيره إليها ، وأقام هو بالموصل إلى أن يصلح أمورها
ويقرر قواعدها ، فولى نصير الدين دزدارية الموصل وفوض إليه أمر
الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في البلاد لنصير الدين أيضا وجعل
صلاح الدين الياغيساني أمير حاجب ، وجعل بهاء الدين قاضي
قضاة بلاده جميعها ومايفتحه من البلاد ، ووفى لهم بما
وعدهم ، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم
انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم
قاعدة .

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر

لما فرغ الشهيد رضي الله عنه من أمر الموصل ، وتقدير قواعدها (حشد) الجذود وأقطع العساكر (ثم) سار نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض ممالك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظننا منه أنها تحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغبه فلم يصنع الى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، أيقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا إلى عماد الدين - وكان قد عبر دجلة أيضا مع عسكر - وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر بينهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وتسلم البلد وبخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق الماء بسور البلد وصعد فيه أكثر من قامة ، واستمرت الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد إلى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينج منهم أحد ، فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته وعلموا أن أمورا - هذه بدايتها - لعظيمة .

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها إلى نصيبين - وكانت لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماربين وغيرها - فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجد به على

دفع أتابك عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين الى مارين ، وسير رقاعا على أجنحة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام ، فبينما أتابك الشهيد في خيمته إذ رأى طائرا قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ، وإذا هي الرقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إنني قد قصدت ابن عمي ، وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر ، وما يتخر وصوله إلينا أكثر من عشرين يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعوه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزماء عليه ، وقد جرى مثلهما للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضا سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها .

قال : فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلموها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن الى الخابور فملكه جميعه ، ثم سار إلى حران - وكانت الرها وسروج وغيرهما من ليار الجزيرة للفرنج لعنهم الله - وأهل حران معهم في ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها أو سلطان يمنعها فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، وأذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فأسرسلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم مجدا حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

وأرسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد

- ٦٣٩٩ -

الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء ، على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية ، واصلاح شأنها ، والفرغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم .

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على ما اختاره .

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوا محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوي طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين من البلاد ، لا يعلمون ما أعد الله سبحانه في سر الغيب ، وما قدره من الانتقام منهم وادالة المسلمين عليهم ، ليذهب (غيظ قلوبهم) (ويشفي صدور قوم مؤمنين) (التوبة ١٤ - ١٥)

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان ، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة ، فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم ، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلمّا عبر الفرات ، ملك مدينة منبج ، وحصن بزاعة وسار الى حلب ، فالتقاء أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به ما لا يعلمه إلا الله سبحانه تعالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ،

ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتابك طغديكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متى حصروا

- ٦٤٠٠ -

حلب وغيرها جمع طغديين عسكره وسار نحوهم فيرجلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرّة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم لله بنصر دينه ، ولطف الله بالمسلمين بعده ، وولى الشهيد قدس الله روحه ، ولما ملكها أقام بها ليقدر قواعدها ، ويصلح أمورها ، ويعمر ماخرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها ، ففرغ من جميع ماأراد .

وفي سنة ثلاث وعشرين (وخمسمائة) سار الى حماة فملكها .

ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرمنية وملك مدينة سرجة ودارا وإليهما .

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره ، وحسام الدين تمرشاش بن ايلغازي - وهو ابن عم داود - وانضم إليهما صاحب آمد وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم الى جمعه ومن العساكر والتركمان ، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن نشابته كانت اذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونسأؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين ألف مقاتل ، وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا - وهي لهم أيضا - فاقتتلوا قتالا شديدا ، صبر (فيه) عسكر الشهيد - وهم نحو أربعة آلاف فارس - لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرمنية لكثرتهم ، ثم انجلت الواقعة عن هزيمة الأرمنية ، فلما انهزموا حصر سرجة فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا . فحكى لي والدي ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهيه وأخربه ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد

- ٦٤٠١ -

أن يتبعه إلى بيار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخاف أن يمسك عليه المضايق ويناله أذى ، ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم •

ذكر فتح حصن الأثارب من الفرنج

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الارتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم وسار إلى الشام وقد جمع واحتشد وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة الله تعالى ، وإحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصد إلى حصن الأثارب ونزله ، وأنزل بأهله التثريب ، وعم بلادهم بالنهب والاحراق والتخريب • وكان هذا الحصن أضر شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج مابين حزب وحرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في ندورهم ، فتابع الشهيد ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولأن من به من سطوته وبأسه بالجدران ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صسيحة أنى يسلكون ، وسقط في أيديهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسذوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم في الذي يصنعون ، وبأي حيلة في دفعه عن بلادهم يدافعون فأما أهل الغرة والجهل فهو ذوا حاله ، وبذلوا من انفسهم قتاله ، ظننا منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لا يستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتماء بعريض الاسوار لاجداد الاسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوي الرأي والتجربة من طواغيتهم ، وقال : إني أرى شرار سيكون له ضرام ، ودخانا تحته شواظ ، ليس هذا الغضنفر الذي أثر في طبرية بمفرده مأثر ، فكيف به اليوم وهو في عدة وعديد ، ومتطوعة وجنود ، فالقوا قناع التواني ،

- ٦٤٠٢ -

ولا تسيروا إلى دفعه سير السواني (٢٣) ، فلا بد لهذا العارض أن يملأ بسيله الوادي ، ولهذه النار أن تعم بشررها النادي ، ولهذا الاقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادي ، ولئن لم نلقه بجموع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقدمي الجيوش ، ليكون لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن للمسلمين منا بأوفر نصيب ، فحينئذ إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من في أطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، وأقبلوا في جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبذودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلا منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى ، لكن أجالهم تسوقهم إلى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى الشهيد وزرعه وأمره ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاوله الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة خسفت تجربتهم علينا ، وتطمعهم فيما لدينا ، لكن الرأي أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم ، فإما لنا وإما علينا ، وتأهب للقائهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتى وافاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتاهم ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمي الشهيد للإسلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزار ، وقال لهم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطما ، ويستأصل أركانهم هدمًا ، ويحرض أصحابه ويدمنهم وبتتابع الحملات عليهم يأمرهم .

فحيث رأى الفرنج ما قد أحاط بهم من البلاء ، وعمهم من الشدة واللاواء ، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك

وقد عاقت معالقتها وصر الجندب (٢٤) وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

فلما تعذرت عليهم الهزيمة ، حموا أنفسهم اللثيمة ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والأخوان والأخوات ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسذوا المصاع ، وصال ملوكهم وقمامصتهم وفرسانهم وداويتهم وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالانهزام ، فطلبهم بصدق القتال والاقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للأخرة .

فأثبت في مستدقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

ففلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الوقعة عن رؤوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغمادا ، وأدركت خيله منهم ثأرا وأحسنت جلادا ، وأمر الشهيد فيهم بالاثخان ، ومنع من الأسر واعطاء الأمان ، فملأت جثث القتلى تلك الصحراء في الطلول والعرض ، وتأول قوله تعال (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) (٢٥) وقصد أن يملأ قلوبهم رعبا ، ويذعرهم عن البلاد سربا سربا ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موتلا . فلما استمر له النصر ، وآل به إلى الظفر الصبر ، رجع إلى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعم كل من فيه قتلا وسييا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي أن عظام القتلى لم تزال بتلك الأرض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن أخرب به ومحا أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره ، كما قال فيه الشاعر حيث يقول :

- ٦٤٠٤ -

ماربع مية معمورا يطيف به
غيلان أبهى ربي من ربعها الخرب

ولا الخدود وان آدمين من خجل
اشهى الى ناظري من خدحا الترب (٢٦)

قال : ثم رحل الى حصن حارم فحصره ، فأنفذ من لم يحضر
المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما يسألون الصلح ، ويبذلون له
المناصفة على ولاية حارم ، فأجابهم الى ذلك ، لأن عسكره كان قد
كثر فيهم الجراحات والقتل ، فأراد أن يسـتـريحوا
ويريحوا ، فهاننهم وعاد عنهم وقد ايقن المسلمون بالشام بالامن
وحلول النصر ، وسيرت البشائر الى البلاد ، وأعلنت في الحاضر
والبادي .

ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه

في سنة خمس وعشرين وخمس مائة توفي السلطان محمود
بهمذان ، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة ، وكانت ولايته
ماتقارب أربع عشرة سنة ، وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير
الاحتمال ، ووزر له أبو القاسم الأنسابي ، وهو الذي سعى
بالعزيز المستوفي حتى قبض وسلم الى بهروز شحنة العراق فسجنه
بتكرير ثم قتل سنة ست وعشرين .

ولما توفي السلطان محمود ، طلب السلطان مسعود بن محمد
السلطنة ، وطلبها أخوه سلجوق شاه بن محمد ، والملك داود بن
السلطان محمد —————ود ، وكان
بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين — قدس
الله روحه — فيها اثر وفعل ، ونترك الباقي اذ هو خارج عن
غرضنا .

ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود والحروب الحادثة الى ان ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير الأنساباني وأتابك سذقر
الأحمدلي على (تولية) ولده الملك داود بن محمود ، وخطبوا له في
جميع بلاد الجبل وأذربيجان ، وساروا الى زنجان .

وكان السلطان مسعود بكنجة - وهي له - فلما بلغه موت أخيه
سار الى تبريز فملكها ، فسار إليه الملك داود فحصره بها ، ثم أفرج
عنه حتى خرج منها وقصد بلاد الأمير قفجاق ، فاجتمعت العساكر
عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو في
عشرة آلاف فارس ، وسار قراجه الساقى صاحب خوزستان
وفارس إلى بغداد ، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان
محمد ، وقراجه يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع
معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف
جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعودا الى
بغداد ونزل بدار السلطنة ، وأرسل السلطان مسعود الى الشهيد
عماد الدين - تقدر الله روحه - يستميله ويستنجده ، فأجابه الى
ما طلب منه ، وسار عن الموصل الى بغداد ، فبلغ تكريت ليجمع
بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية
الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجه وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى
تكريت ، عبر قراجه الى الجانب الغربي ، وأسرى الى تكريت في
عسكره جميعه ، ولم يخلف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد
يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل تكريت في يوم وليلة ، فواقعه
الشهيد فهزمه قراجه وأسر أكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة الى الموصل فجمع العساكر وأنفق الاموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق شاه مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك في عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه .

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر الى نواحي همذان - وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد ليرتبه في السلطنة - فلما اتصل خبر وصوله ارسل الخليفة المسترشد بالله الى السلطان سنجر ، فأقام وترددت الرسل واستقر الصلح على ان تكون السلطنة ، لمسعود ويكون سلجوق شاه ولي عهده وعاد السلطان مسعود الى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر اخوه سلجوق شاه في خدمته .

وسارا جميعا الى قتال عمهما السلطان سنجر ، والزمما المسترشد بالله بالسير معهما فامتنع ، فتهدهد قـرأجة الساقى ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر الى الشهيد يأمره ان يقصد بغداد هو ودييس بن صدقة ملك العرب - وكان ديبس عند الشهيد على ما نذكره ان شاء الله تعالى - ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود واخوه سلجوق شاه ابنا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعللا على المقدمة يرزقش بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من اكابر

الأمراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بداي مرج ، فرجعوا الى كرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قماح ، ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعودا ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر فالتقيا قرب الديزور ، وكان العسكران كالبحرين كثرة وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماح ، وعلى ميسرته خوارزمشاه ، وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجه الساقى ، والأمير قزل ، وكان قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن في عسكر السلطان مسعود ، فلما التقى العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهمز ، واختلطت العساكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوما مشهودا ، وحمل قراجه الساقى على القلب - وفيه السلطان سنجر في عشرين الف فارس ، هم اعيان العسكر وشجعانهم وبين يديه الافيلة - فلما تقدم الى القلب ، حمل طغرل وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار في الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل كثير من أصحابه وأخذ اسيرا ، وانهمز السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين أوزبك في المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه الى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه واستدعاه اليه ، فحضر عنده وعاتبه على اقدامه عليه ، فاعتذر ونسب ذلك الى ايتكين الخادم ، فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالسير الى كنجة . فحكى لى والدي عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال : أحضر السلطان سنجر قراجه الساقى وعاتبه على فعله ووبخه ، وقال له : اذا حاربني اولاد اخي فليس يبعد ان يطلبوا السلطنة ، وأما انت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكل الناس على قتالي ، أكان يصير لك من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال : كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون اولاد اخيك بحكمي ، أقيم من أريد وأعزل من أريد . فغضب

- ٦٤٠٨ -

السلطان سنجر منه وأمر بقتله ، فقتل ، وأمر أن يشق صدره عن
فؤاده فما رأى أكبر منه ، فآلقى عليه حجرا كبيرا فلم
يبعجه ، فقال : من يكون هذا فؤاده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطغرل ابن أخيه بالسلطنة في همدان ، واصفهان ،
والري ، وسائر بلاد الجبل .

وجعل في وزارته أبا القاسم الأنساباني وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد الى بغداد وهزيمته

ولما سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام
بخانقين ينظر ما يكون من مسعود ، فلما سمع بهزيمة وقاتل
قراجه ، رجع الى الدسكرة ، فأتاه الخبر بوصول اتابك الشهيد
عماد الدين زنكي وديس بن صدقة الى بغداد ، فأسرع العود
اليها ، وعبر الى الجانب الغربي فيمن معه من العساكر ، وكان
فيهم كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين
وخمسائة ، فحكى لي والذي عن جماعة من أصحاب الشهيد ممن
حضر المصاف ، قالوا : اشتد القتال وظهروا على عسكر
الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت
عند المعركة ، وخرج المسترشد بالله منها راكبا بسواده وبيده سيف
مسلول ، فكلهم قالوا لما رأيناه : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد
السلح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الثبات
فانهزمنا ونحن لا نعقل ، وكان ابتداء الهزيمة من ديس فانه قصد
نحو الحلة ، وجمع جمعا وسار إليها ، وبها جمال الدولة اقبال
المسترشدي ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ديس أيضا .

ذكر السبب في مصير دبيس عند الشهيد رضى الله عنه

كان دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد (٥٣) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله زفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه الى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيرا إبعاده عن العراق .

وكان شريرا خبيث الطوية ، وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقية فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، عازما على قصد الشام ، الى حصن صرخد ليملكه . وسبب ذلك ان صرخد كانت بيد امير اسمه مكثوم ، فتوفي وخلف زوجة حدثت نفسها انها تملك الحصن ، فقال لها بعض اصحابها : إن هذا لا يتم لك الا برجل يتزوجك من الأمراء الأكابر ، وحسن لها الاتصال بدبيس ، فأرسلت اليه تدعوه ليتزوجها وتسلم اليه صرخد . فسار إلى الشام فلقه سوء نيته . فضل في البر فأسره قوم من بني كلب ، وسلموه الى تاج الملوك (بوري) بن طغتكين أتابك ، صاحب دمشق ، فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهدهه أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه اليه . فلما صار عنده ، جازى أساءته بأحسان ، وأنعم عليه وخوله وأعطاه المال والخيام والسلاح والخيول وكل ما يحتاج اليه الملوك ، وبالف في إكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير دبيس إلى دمشق بالمسترشد بالله ، أرسل الى تاج الملوك مع سيد الدولة بن الأنباري صاحب ديوان الانشاء ببغداد ، يطلب منه ان يسلم دبيسا اليه ، فلما وصل دمشق وعلم بمصير دبيس عند الشهيد ، تسمج وذكره بما يكرهه ، فاتصل ذلك

- ٦٤١٠ -

بالشهيد - وكان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار - فامتعض لذلك ، وأرسل الى البرية وشحنها بالرجال ، وأمرهم بأخذ ابن الأنباري وحمله ، فلما عاد أخذ بذواحي الرحبة وحمل الى الشهيد فحلبه بالموصل ، فأرسل الخليفة المسترشد بالله يشفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده ، أرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها ، ولم يعلم من أحواله شيئاً البتة .

وفي هذه السنة - أعني سنة ست وعشرين وخسمائة - ملك الشهيد قلعة بهمر من بيار بكر . فانظر الى هذه الهمة ، قد كان في هذه السنة من الامور العظيمة واختلاف السلاطين وانهمزاه دفعتين . ولم يشغله ذلك عن زيادة في ملكه ، بمثل هذا الحصن العسير .

ذكر حصر المسترشد بالله امير المؤمنين الموصل

في ربيع الاول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد الى الرحبة ، فنزلها وجمع العساكر ، وكان قد قصده عدة أمراء من العساكر السلطانية للخلف الواقع بينهم ، فقوي بهم المسترشد واستبد بالعراق وجبى الأموال ، وأرسل الامام ابا الفتوح الاسفرائيني الواعظ الى الشهيد ، فأغلق له في القول ، فأهان الشهيد غاية الاهانة وعاد الى المسترشد بالله ، فعند ذلك سار الى الموصل في ثلاثين الفا ، فلما بلغ الخبر الى الشهيد ، رحل عن الموصل في بعض عسكره ، وترك الباقي بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد

- ٦٤١١ -

بظاهر سنجار ، فحدثني والدي قال : نزل المسترشد بالله على الموصل في عسكر عظيم ، وحفظها نصير الدين احسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضي . وكان الشهيد يرسل السرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة محاصرا لها نحو ثلاثة اشهر فلم يظفر منها بشيء ، ولم يظهر له من العسكر بالبلد ما يدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضه ، فقليل كان سبب عوده أن السلطان مسعودا أرسل إليه مع نصر الخادم - أمير الحاج - يشير بالعود ، فعاد وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد وقيل غير ذلك ، وبالجمله فلورأى أماره ظفر وفتح لم يرحل. وكان عوده في الشباره ورأسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع الحميدية

وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، استولى الشهيد رضي الله عنه على سائر قلاع الأكراد الحميدية ولاياتهم ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغير ذلك وسبب قصدها أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته ، ولم يعترضه في شيء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده في جنده وجموعه ، وأمره بالاقوات وغيرها مما يحتاج إليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديدا إلى أن فتحت في هذه السنة ، وأطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فانهم كانوا معهم في خطة خسف.

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها واستوزر ضياء الدين بن الكفرتوئي . ثم رحل

عن آمد الى الشام فحصر مدينة دمشق . وفيها توفيت والدته الشهيد بالموصل .

في ذكر قتل امير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد .

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقد ضعف امره وقوي امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل . فـ_____راسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على اخيه طغرل ، فاجيب إلى ذلك ، وأمدّه بالأموال والرجال فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لان عمه السلطان سنجر ، كان يقوي أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع أخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الأمر ثانيا وكرر ذلك ، فلم يتحرك ، فأرسل إليه أخيرا جاولي القسيمي ، شحنة بغداد ، مضايقا له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة ان يلقي خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الأمر ، عظم عليه ونادى في العسكر ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم في التجهيز ليرحلوا ، واذ قد ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل . وكانت وفاته في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فأسرع السير إلى همذان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد . ثم وقع الخلاف في عسكره واستودش منه جماعة من الأمراء منهم الأمير قزل آخر ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيئي والي همذان ، وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه في عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، واقاموا ينتظرونه وكانوا في سبعة آلاف فارس ، فسار اليهم السلطان مسعود جريدة في ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، ولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم

- ٦٤١٣ -

يرزقش بازدار ، وقزل آخر ، وسنقر الخمار تكييني ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعده النصر والمساعدة عن انفسهم وعن جماعة من أكابر الامراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم الى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها في شعبان من هذه السنة . واتاه في الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا في سبعة آلاف فارس ، واستخلف في بغداد جمال الدولة اقبال في ثلاثة آلاف فارس ، وراسل أصحاب الاطراف ، المسترشد بالله يبذلون له الطاعة ، فتريث في الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل اصلاحهم في نحو ثلاثة آلاف فارس ، فصار في خمسة عشر ألفا ، وأرسل إليه أتابك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة الى داي مرج ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعبأ الخليفة عسكره ، وكان في الميمنة يرزقش بازدار ، وسنقر الخمار تكييني ، وبرزق بن برسق والغلمان الدارية . وكان في ميسرته جاولي وغيره . ووقف الخليفة في القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، فغدرت ميسرة الخليفة ومالت الى السلطان ، وأحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر في عسكر الخليفة ، وأفضى الأمر إلى أن أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض أيضا الوزير شرف الدين الزينبي ، وقاضي القضاة ، وكمال الدين بن طلحة صاحب المخزن ، وابن الانباري كاتب الانشاء ، وخلق كثير ورفعوا الى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما في العسكر .

وأنفذ السلطان (بكابه المحمودي) (٢٨) شحنة إلى بغداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثارفت الفتنة ببغداد ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنة ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقي الخليفة المسترشد بالله في القبض إلى سادس عشر ذي القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل الى السلطان

مسعود ، فخرج الى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة أربعة عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فجرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، واخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكيته ، وإنسان هاشمي . ووقع الخبر في العسكر ، فركبوا في السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب أربعة عشر . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه الى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سذر الاحمديلي .

وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد - وهو الامير بك ابه - ، يأمره بالبيعة للأمير أبي جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة .

وحضر بيعته عشرون رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدي بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله أخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . وتلقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

قال . كان مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما شجاعا ، مقداما ، فصيحاً .

وتمكن في خلافته تمكنا عظيما ، لم يره احد ممن تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي بالله ، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ،

- ٦٤١٥ -

ولم يزالوا كذلك الى ملك النيلم واستيلائهم على العراق ، فزال
هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة النيلم ، فلما ملك السلجقية
جددوا من هيبة الخلافة ما كان درس لاسيما في وزارة نظام الملك ،
فانه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها ، إلا أن الحكم
والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العمداء وضمن البلاد ، ولم
يكن للخلفاء إلا اقطاع يأخذون دخله ، وأما المسترشد بالله فانه
استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير
من الاوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر ، وقاد
الجوش وباشر الحروب . وقد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في
التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله أمير المؤمنين إلى الموصل مع أتاك

في سنة ثلاثين وخمسمائة ، سار الراشد بالله الى الموصل صحبة
أتاك عماد الدين زنكي ملتجئاً إليه . وكان سبب ذلك ، أن العساكر
السلطانية اختلفت على السلطان مسعود ، وكذلك أصحاب
الاطراف ، وتراسلوا في الاجتماع على قتاله وإقامة سلطان
يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد ، فسار أتابك الشهيد من
الموصل الى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود في عسكر
أذربيجان ، وورد إليها يرزقش يازدار في عسكر قزوین . وكان مع
الملك داود الأمير عنتر بن أبي العسكر الحلواني يدير أمره ، فلما
اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى
السلطان مسعود ومحاربتة ، فأجابهم الى ذلك ، وكان وزيره حينئذ
جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صدقة الذي صار وزيراً
لأتاك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على العزم في صفر سنة ثلاثين
 وخمسمائة . وظهر من الراشد بالله تنقل في الأحوال ، وتلون في
الأراء ، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه ، منهم : استاذ الدار

ابو عبد الله الحسين بن جهير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدي ،
واراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، فركب في موكبته إلى
أتاك الشهيد ، فنزل في خيمه ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف
مقابل التاج ، وأرسل يشفع في الذين قبض عليهم الراشد شفاعته
تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا إقبال ، وسلم إقبال المسترشدي إلى
الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى
خيمه أكرمه واحترمه وأحسن إليه ، ولم يجازيه على ما كان منه قديما
من عداوته . ثم إن قاضي القضاة الرينبي خاف من الخليفة أيضا ،
فالتجأ إلى الشهيد فأمنه وأحسن إليه ، وقرر مع الملك داود أن
يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره في ربيع الآخر .

ثم ورد الخبر ، أن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل إلى
واسط في جمادى الأولى في عسكر كثير ، فأنحدر أتاك الشهيد إليه
ليحاربه ، فوقع الخلاف بين سلجوق شاه وبين أتاك البقش ،
وراسل البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فمال إليه ، وسار
هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد وأصلح أمر الوزير ومعه البقش وجماعة الأمراء ،
فازداد أتاك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لا يصدرون إلا عن أمره
ورأيه .

ثم عاد الشهيد وأصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع
الراشد ، وإعادته إلى وزارته . وكثر الفساد في العراق ، وتطرق
المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا الحريم الظاهري ، وشارع
دار الرقيق ، وكثيرا من بلد دجيل ، وبعض طريق خراسان ونهبت
الاموال أيضا ببغداد علانية لآمانع لهم من ذلك .

ثم أن السلطان مسعودا سار نحو العراق ، فبلغ الشماسية في
عسكر كثير ، فأراد من ببغداد من الملوك والأمراء قتاله ، ثم خافوا لما
راوا ما عندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذي معولهم عليه ، وتقدم

- ٦٤١٧ -

السلطان مسعود إليهم فحصرهم نيفا وخمسين يوما ، فتسلسل
عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عازما على العود إلى بلد الجبل ،
فوصله بالنهروان طرنطاي صاحب واسط ، واخبره بما معه من
السفن والمقاتلة في الماء ، فسار السلطان مسعود إليها وعبر فيها
تحت بغداد ، وعبرت العساكر التي كانت ببغداد إلى الجانب الغربي
لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم إلى بلده
وولايته .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتابك الشهيد
ملتجئا إليه ، ومعه وزيره ابن صدقة وجماعة من الخدم والأترار
وسار معه إلى الموصل ، واستقر السلطان مسعود ببغداد في ذي
القعدة .

وأقام أتابك الشهيد للخليفة كل ما يريدوه ، وبالح في ذلك ، وأرسل
إليه من الأموال والعروض والآلات ما لا حد عليه . وأقام بالموصل
إلى أن سار على مذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفي
لأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنهما اجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتابك الشهيد
ودخلها السلطان مسعود عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره
بالخلافة ، ووافقه على ذلك الأمراء وأرباب المناصب فاحضر القضاة
والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضرا شهدوا فيه بما أوجب خلعه ،
فافتى الفقهاء أن من هذه صفته لا يصلح للخلافة وحكم القاضي ابن
الكرخي قاضي الحريم بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل السلطان مسعود عن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف
الدين الزينبي ، بابي عبد الله بن المستظهر بالله ، وأشار غيره

بالعدول عنه ، وقال : انه رجل كبير قد جرب الامور وعرفها ، وان من الرأي للسلطان ان يبايع فتى صغيرا ليست له تجربة ولا سن عليه ، (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) ، فوقع الاتفاق على أبي عبد الله ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفي ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتدي لامر الله ، فلما استقر في الخلافة ، أرسل إليه السلطان مع وزيره كمال الدين الدرگزيني ، يسأله ما يحتاج إليه ليقام به ، فقال للوزير : ما دري قدر مانحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة - مع قربها منا - من بكرة إلى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه في غيره شيء ، فانظروا حينئذ ما وراء هذا فقوموا لنا به ، فعاد الوزير وقال للسلطان : قد كان الرأي في العدل عن هذا الرجل ، ولكن الامور مقدرة ، وقد رأيت من هذا الرجل مادل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق من الحاضرين إلا من استحسّن ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشهيد ، أرسلوا رسولين إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز ، فاما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأما رسول الشهيد فإنه أكرم كثيرا ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فحكى لي والذي عنه انه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لي تبايع أمير المؤمنين . قال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وانتهم والناس قاطبة في شرق الارض وغربها ، وقد علمتم ما قيل في من يبايع آخر ، وطال الكلام وعدت الى منزلي ، فلما كان الليل ، جاءتني امرأة عجوز سرا ، وابلغتني عن المقتدي لامر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ما كان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صالحة من التحف والمال ، قال ، فقلت : غدا يظهر أثر خدمتي . فلما كان الغد حضرت ، وقيل لي في أمر البيعة فقلت : إن الراشد له في اعناقنا بيعة ، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه ، وانا فقيه لا يجوز لي

فعل ماينا في الشرع ، فتذبذبون ما يوجب خلعه حتى أخلعه ، وأبايع عني وعن صاحبي ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رآه وشهد به الشهود ، خلع الراشد وبايع المقتفي لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار إليه خلافة الله في أرضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ويجمع عليه الجموع ، ونحن فلا بد لنا من هذا الدعوى نصيب ، فرفع قوله إلى الخليفة (٣٠) فامر الخليفة أن يجري في اقطاع الشهيد من خاصه صريفيين و« درب هارون » ويزاد في القابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لاحد من زعماء الاطراف ، ان يكون له في العراق اقطاع . واستحلف القاضي كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عملياً في نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتاك الشهد يأمره بإخراجه عن بلده ، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همذان ، واجتمع هو والمالك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان اليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس وانهزم الراشد وقصد اصفهان ، فقتله الباطنية سبع وعشرين رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن باصفهان .

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وما فعله الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصدا الشام ، فخافه الناس خوفا عظيما ، وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل ، فقصدا ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها - وهي على مرحلة من حلب - وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان .

- ٦٤٢٠ -

ثم سار عنها إلى شيزر - وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة - فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من في الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب عنها ، وكانت حينئذ للامير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني المنقذي ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجد به - وكان على عزم المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه - فجد السير في عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تنخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار ، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقي شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرتم أخذتم لشيزر وغيرها ، وإن ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم - ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم - فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهوذوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصحروا له ، فحينئذ ترون من كثرة عساكره ما يعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يرسل افرنج بالشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم انه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التي بأيديهم منهم . وكان يرسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان افرنج معه ، فاستشعر كل واحد من افرنج والروم من صحبتته ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم في ساقه العسكر فغزم منهم وقتل واسر ، واخذ جميع ما خلفوه ورفعاه الى قلعة حلب (وكفى الله المؤمنين القتال) (٣١)

- ٦٤٢١ -

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا ان الروم ان
ماكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيما بمدينة حماة
لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ،
وممن مدحه المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي فقال من قصيدة
اولها :

بعزمك أيها الملك العظيم
تذل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها
الم تر ان كلب الروم لما
تبين أذك الملك الرحيم

فجاء يطبق القلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
ودان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم

وأبصر في المفاضة منك جيشا
فأحرن لا يسير ولا يقيم

كأذك في العجاج شراب نور
توقد وهو شيطان رجيم

- ٦٤٢٢ -

أراد بقاء مهجته فولى

وليس سوى الحمام له حميم (٣٢)

وهي طويلة .

ومن عجيب ما يحكى في هذه الحادثة ، ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الامير مرشد بن علي - أخو صاحبها - وهو يذسخ مصحفا فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من انزلته عليه ، إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفى بعد أيام ، ونزل الروم بعد وفاته .

ولما عاد الروم الى بلادهم ، سار أتاك إلى حصن عرقه - وهو من اعمال طرابلس - فحصره وفتح عذوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما .

وفيهما توفي القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري ، قاضي الممالك الأتابكية . وكان أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهر زور

وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال من يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني

وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاضي التركمان ودانيهم ، يرون طاعته فرضا حتما ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده التركمان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتابك الشهيد عنه

ما اقتضى أن يقصد بلاده ، فحذره أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ،
علما منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير ، وأنه إن ضيق عليه
سذلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاورا لولاية الشهيد
فلم يرجع عن عزمه ، وسير إليه عسكريا كثيفا ، فجمع قفجاق من
التركمان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده من الكثرة ما
سد بهم الفضاء ، وتلقاهم عسكري الشهيد وقتلهم ، وصبر عسكريه
وتابعوا الحملات على التركمان حتى هزموهم واستباحوا
عسكريهم ، فمضوا منهزمين لا يلاوي أخ على أخيه ولا والد على
ولده ، وسار العسكري عقب الهزيمة ودخلوا بلادهم ، فملكوا شهر
زور وغيرها من البلاد وأضافوها إلى مملكته ، وأصلح الشهيد
أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام
بل لا زال ظاعنا إما لرد عدو يقصده ، وإما لقصد بلاد عدو ، وإما
لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر (٣٣) السروج أثر عنده من
وشير المهاد ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد
وأسد ، وأصوات السلاح الذ في سمعه من غناء القينات ، وإلقاء
القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما ذكرته وأذكره دليل
على صحة ذلك .

ذكر حصار دمشق وبعليبك

وفي هذه السنة أيضا ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار
الشهيد في جذوده-بعد ما ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها ،
وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري طغديكين .

وكان محمد محكوما عليه ، والغالب على أمره معين الدين أنر
مملوك جده طغديكين ، وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن
الشهر زوري بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداثها وزناطرتها ،

واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلوات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خالق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتاك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأياً ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، وربما كثر المقاتلون لنا والمحاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلوننا على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره ، ومن العجب أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي وأتاك

يُحاصرهُ ، فضبط أنر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك وأحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه - وكان صغيراً - فمشى الحال بتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين إلى دمشق ، أقطع بعلبك لمعين الدين أنر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة وقهراً ، وترك بها نجم الدين أيوب دزداراً ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى ما بذل ، وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيه وصار أصحابه (٣٤) في طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار أتابك الشهيد رضي الله عنه ، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقمامصتهم وكذوبهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقاهم بالقرب من حصن بارين (٣٥) - وهو المسمى حينئذ بعرين - وهو الفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الأوغاد ، ورتب أطلابه ، وحرّض أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا

الرماح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمى الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرؤوس والرئيس ، وارتفع القمام ، واشتد اللزام ، وعظم الزحام ، وأدبرت مترعة كؤوس الحمام ، وبطل العامل (٣٦) وعمل الدسام ، فمن ضربة تقط ، وأخرى تقد ، وثارت عجاجة كادت تحجب الشمس ، وخفت الاصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله في سالف الدهور إلا ما يحكي عن ليلة الهرير (٣٧) ، ونصر الله المسلمين نصرا عزيزا ، وأحلهم من عارفته محلا حريزا ، وأجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به ، لأنه كان من أقرب حصونهم ، وسلموا عدتهم وعتادهم ، وكراعهم وأزوادهم ، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريح بحد الصفاق ، ونصول السهام والرماح ، (سنة الله في النبيين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣٨))

ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره ، فحين نازله طاف به وقابله ، فرأى حصنا محاقا في الهواء ، مقارنا هامة الجوزاء ، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سموها ، وقد تشمخ بأذنه عن أن يرام ، ونأى بجاذبه عن أن يضام ، فلا ترمقه الابصار إلا عادت حسيرة ، ولا تؤمه الطيور إلا أضحت أجنحتها مهيضة كسيرة ، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم ، وكهولهم وشبانهم ، واثقين بحصانته ، معتزين بعلو مكانه ومكانته ، متيقنين أن الحوادث لا تنالهم وهم به معتصمون ، وأن الأيام لا تنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون ، وقد وعدهم الشيطان النجاة (ولات حين مناص) (٣٩) ، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص ، (يعدم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (٤٠) ، وأنى يكون ذلك وقد أهدت بهم الأسد في عرينها ، الذابة عن بين الله تعالى وبينها ، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه ، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم ، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم ، علم أنه لا ينال بالتواني ،

- ٦٤٢٦ -

ولا يبلغ قتله بسير السواني ، فأعد واستعد ، وشمر في قتاله عن
ساق الجد ، ونازله بعزم أعظم منه ، وقوة لاتعجز عنه ، وحصره
وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر ، وبياض العين بسواد البصر .
ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق ، وتابع الزحف
إليهم ووالى القتال عليهم ، وأكثر من إرسال السهام وحجارة
المجانيق حتى كادت تحجب الهواء ، وتحول بينهم وبين السماء ،
وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقة المتألق ، ووقع
الاحجار رعدة المتبعق ، إلا أنه سحاب يمطر المنيا ، وينبت الحدوف
والرزايا ، فحينئذ استخذي الحصن وانخل ، واستسلم لصوله هذا
الهام البطل ، وألقى إلى الاستسلام بيده ، ولم يدفعه حصانته
وكثرة عدده وعدده ، كما قال فيه بعضهم :

بادي المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان
أغضى كمستمع الهوان تغيبت
أنصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من افترسه الغضنفر ، ولا نقيصة على من أذعن
لصوله الموت الاحمر ، فما كل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد ،
ولما عاين من به الهلاك راسلوا في طلب الامان ليسلموا ، وسألوا في
حقن دمائهم ليستسلموا ، وهو لا يصغى الى مقالتهم ، ولا يسمع
رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهرا ليملك بهم سائر بلادهم ،
ويريح المسلمين بعد هذه الواقعة من قراهم وجلادهم . فبينما هم
كذلك ، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ،
السالمين من الهلكة ، قد ساروا الى بلاد الفرنج والروم في البحر
يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما
فيه ملوكهم وقمامصتهم من الحصر وأكنادهم ، وأن أولئك قد جمعوا
وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدوا ، فحينئذ جد في الحصار
وأذكى العيون ، وعمل على التضييق ، على من بالقلعة ومنع كل شيء
عنهم حتى الاخبار ، وأقبلت الامداد من سائر انواع النصرانية إلى

الساحل من كل حذب يذسلون ، وإلى تلبية من به من إخوانهم يهرعون .

هذا ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين مأسور وهالك ، فأعادوا لمراسلته في طلب الامان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الامداد إلى الساحل واجتماعهم على من به من أهله فلما أجابهم إلى الامان وتسليم الحصن منهم سلموه وهم لا يصدقون بالنجاة ، وساروا عن الحصن يوما ، فلقيتهم امداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم ووبخوهم وعذفوهم ، وقالوا : عجزتم عن حفظه يوما أو يومين .

فحلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الان ، فلما عميت الاخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن واقتدينا به ماوراءه . وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد - رضي الله عنه - هذا الضر العظيم .

وفي مدة مقامه على حصار بارين ، سير جندا إلى المعرة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

ذكر حصار الروم والافرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والافرنج الى الشام لازالة الشهيد عن حصار بارين ومن بها من ملوك الفرنج ورأوا الامر قد فات ، لم يروا أن يخلو سفرتهم من أثر يؤثرونه في حماية دينهم ويرجعوا بخفي

حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرتها ، لعلهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونزلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فأنحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها ، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري الى السلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر . فحكى لي والدي عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد لما أرسلني : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فاذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأدبت الرسالة ، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر ، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء ، وكتب الشهيد متصلة الى يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزداد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلانا - وهو فقيه وكان يذوب عنه في القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدي - قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، وإسلاماه ، وابن محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه والقى عمامته عن راسه وصاح ، وتبعه أولئك الذفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع الا من قام يبكي ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم الى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر قاطبة عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الامر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال : ما الخبر . فقيل :

إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة . فقال :
أحضروا ابن الشهر زوري . قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه ،
إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق ، فلما دخلت (عليه)
قال : يا قاضي ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفا
من القتل والشرك ، ولا شك أن السلطان ما يعلم بينه وبين العدو ،
إنما بينكم نحو اسبوع ، وأن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات
وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه
حتى جعلته كأنه ينظر إليهم . فقال : اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من
العساكر ما شئت وسر بهم والامداد تلحقك . قال : فخرجت إلى
العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا
وتفرقوا ، وانتخبت من عسكره عشرين ألف فارس . وكتبت إلى
الشهيد أعرفه الخبر ، وأنه لم يبق غير المسير ، واجدد استئذانه في
ذلك . فامر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر الى
الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجاب
من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم
ينالوا منها غرضا ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ومخاطبة
السلطان في إقامتهم . فلما خوطب السلطان في ذلك ، أصر على إنفاذ
العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها منهم وإزاحتهم
عنها ، وكان قصده بذلك أن تطفأ عساكره البلاد بهذه الحجة
فيملكها . قال : فلم أزل اتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت
العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد . فأنظر إلى هذا
الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس ، رحم الله الشهيد ،
فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل ،
يرغبهم ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لي والدي ،
قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما
يزيد على عشرة آلاف دينار أميريه ، وغيره يقنع منك بخمسمائة
دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال
الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا
واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار ، وكان كما قال
رضي الله عنه .

ذكر ملك الشعباني وبناء العمامية ببلد الهكارية

في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة سار أتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الأكراد وقد اكثروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر كان قد ملك كثيرا من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها أتابك الشهيد حصر قلعة الشعباني - وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها - فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمامية (٤١) عوضا عنها . وكانت هذه العمامية حصنا كبيرا عظيما ، يقل في حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التي لهم ، قال : إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فانا لا أعجز عنه ، فأمر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذ أمر ، فبناه وسماه العمامية ، نسبة إلى لقبه عماد الدين .

وفيها أيضا خطب لأتابك الشهيد بآمد ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له ، فان أجاب وإلا قصدها وحصرها ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا في طاعته .

وفيها أيضا ملك الشهيد مدينة حديثة وعانة (٤٢) .

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود وأتابك الشهيد رضي الله عنهما

قال كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة إليه ، لا يزال الأمراء الأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين ، وقد تقدم ذكر بعض ذلك ، وكان كلما

انفتق عليه فتق نسبه الى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلمه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر ، وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك ، فلما كان هذه السنة - وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر وأظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان ، وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنجة وتمكن العدو وقربه من البلاد التي بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها ، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل ، إنه قيل له أن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فانها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوا ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقي وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدر على حفظها ، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمه أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من العدو عدة حصون وولايات ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الاسلام به ، ومن الأسباب المانعة له أيضا ، أن الشهيد رحمه الله كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضا ، فهرب سيف الدين وجاء إلى الموصل ، فلم يمكنه نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير إلى والده فمنعه أيضا ، وقال له : ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله ، فأرسل إليه فأعاد جوابه : إنني لا أريدك مهما كان السلطان ساخط عليك وألزمه بالعود ، وأعاد معه رسول إلى السلطان

يقول له : إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن فلم اجتمع به ورددته الى بابك ، فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا وأجاب الى ماأراد الشهيد ، ولما استقر المال حمل منه عشرين ألف دينار ، أكثرها أجناس وعروض ، ثم ان الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا عليه ، فاضطر الى مداراة الشهيد وأطلق له الباقي استمالة له واستصلاحا لقلبه .

ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد الى ديار بكر قاصدا فتحها ومحاصرا لها ، ففتح عدة بلاد ، منها : مدينة طنزة ، واسعرد وملك مدينة المعين الذي يعمل منه النحاس من أرمينية ومدينة حيزان وملك ايضا حصن الزوق وحصن فطليس ، وحصن باتاسا، وحصن ذي القرنين .

وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع ، ورتب أمور الجميع ، وترك فيها من يحفظها إذا سار عنها وقصد مدينة آمد ، ومدينة حاني فحصرهما وملك مدينة حاني فدوخ البلاد ، وأقام على آمد محاصرا لها ، وقصده استطلاع حال الرها على ماذكره إن شاء الله تعالى في :

ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

وفي جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفرنج ، وكانت لجوسلين عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على زجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد اذعن له بالنهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة ، وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما ، وأعادها الى

- ٦٤٣٣ -

حكم الاسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الايمان ، وهذه الرها هي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية (ثم رومية) والقسطنطينية ، والرها. وكان هذا فتح الفتوح حقا ، واشبهها ببدر صدقا ، ومن شاهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصره الطائي (٤٤) لعلم إنه أولى بقوله :
السيف أصدق أنباء من الكتب

لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم اليها جسيم ، إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها ، وانضاف اليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين والموزر والقراي وسن ابن عطير وغير ذلك. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ونصيبين ورأس عين والرقه وأما حران فكانت في الخزي ، كل يوم قد صبحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته ان يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الاسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضا ، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضا مادام بها جوسلين وفرسانه ، وجذوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصرا لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه فعدل الى أعمال الحيل والخداع ، إذ كان أنجع في هذه الحادثة من المصاع .

والرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثاني (٤٥)

فعدل عن قصدها الى ما جاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين ، كحاني وجبل جور وأمد على ماتقدم ذكره فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو يسر حسوا في ارتقاء (٤٦) فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من أساده ، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده ، فلما رأى

- ٦٤٣٤ -

جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لافراغ له إليه ، وأنه لايمكنه الاقدام عليه ، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله فأنت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظه وحاميه ، فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد في المسير وتهدد لمن عن صحبتته تأخر ، وأعلمهم أنه لايقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيل الصائر الى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب ، فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم واختلط الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا (« لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (٤٧) ») فأبى الله إلا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الفئات منهم والشهيد ، وجزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، ونكست لشدة هيبتهم رؤوسهم ، ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعيديه ، وبمواكبه المنصورة ، وجموعه المحشورة ، وبذوده المنشورة وكما قال فيه :

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننا بحرا من سلاح

والسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح

وأرع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود الصباح

صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفاح

وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض
تزلزل والنهار بسواد الليل يسربل ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم
صائرون إلى البوار ، يتهافون إلى القتل تهافت الفراش في
النار ، وأخذا بقول (من) يقول :

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة
والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن ، ليسلموه سليما
من إخراج أسواره ، وإخلاء دياره ، وضنا منه على مثله ان يصبح
خاويا على عرشه ، وأن يلتحق سماؤه بفرشه ، فأبوا قبول
الأمان ، وامتنعوا من الأذعان ، فاستخار الله تعالى في
قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ونصب المجانيق وقدم النقيب ، وألح
على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه
ويستدقونه منه ، وبلغ الخبر إلى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا
وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا
على السرعة خوفا القوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى
شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل إليها ، ولم
يزل (الشهيد) يزحف إليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقيبون
إلى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة
وقهرا ، وأوسع كل من فيه ذكالا ، وشرا ، فلملكها
استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها
ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل

وأسير ، وجريح وكسير ، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي ، ومن كل مال نفيس و غلام رائق وبكر كالطبيعي عاتق ، وأصابهم من النكال ما هو لهم عتيد (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد (٤٨)) ثم أنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، وأخلاه من أهله ، غير مستحسن من مثله ، فأمر باعادة ماأخذ منه من أثاث ومال ، وسبي ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامرا بعد أن كان داثرا ، وأهلا وأمنا بعد أن كان للذئاب والخامع (٤٩) مسكنا ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ماكان بيد الفرنج في هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف أمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدي الايمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون ادبارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون في الهرب ، خووف العطب وكلهم من الرعب لاه زاهل ، ومنادى التوحيد ينادي : (جاء الحق وزهق الباطل (٥٠)) وألقى الاسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض (٥١))

فهو لهم الى يوم العرض وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلات به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والاولياء ، واستبشر به الأبرار والأصفياء.حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله ابن علي بن مهـران الفقيه الشافعي ـ وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة ـ ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح ما لم يروه

أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض اخواننا ، أن أتاك
زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ، ثم
قال : ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم ، وبقي يردد هذا القول
مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ، ثم إن نفرا من الأجناد
حضرُوا عند الشيخ ، وقالوا : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا
بالفتح ، وهو يذكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا .

وحكى لي أيضا بعض العلماء بالأخبار والأنساب - وهو أعلم
من رأيت بها - قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت
الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين
ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله
ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت
الذي فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى
إفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو
جالس ، وعنده هذا العالم المغربي ، وقد نعس وهو شبه
النائم ، فأيقظه الملك وقال له : يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين
كيت كيت ، أين كان محمد عن نصرهم ؟ فقال : كان قد حضر فتح
الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك : لاتضحكوا ،
فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا على الملك فلم يمض غير
قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأذساهم شدة هذا
الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية .

وحكى لي أيضا غير واحد أثق به : أن رجلا من
الصالحين ، قال : رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن
حال ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر
لي ، فقلت : بماذا ؟ قال : بفتح الرها .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة البيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها ، والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات سار الى قلعة البيرة ، وهو حصن حصين مـطـل على الفـسـرات ، وهو لـجـوسـلـين أيضا فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوحهم ، وقطع عنهم الميرة حتى اشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده في البلاد فتقـيـحـتـاج الى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين عسكريا ، فسلمها الفرنج اليهم ، خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيأخذها .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك الب ارسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتل نصير الدين جقر بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية ، وكان سبب قتله ، ان الملك ألب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الاطراف أن البلاد التي بيده ، إنما هي للملك ألب ارسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان اذا ارسل رسولا ، أو أجاب عن رسالة ، فإنما يقول ، قال : الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك ، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين — وهو ينزل اليه كل يوم يخدمه (ويقف) عنده ساعة ثم يعود — فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلته

ملكـت الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسـان عليك . فوقـع هذا في نفسه وظنه صحيحا ، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته ، وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا . فإن أصحابه وأصحاب (أتابك) الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دور الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة ، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء ، وكان من جملة من حضر ، القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعبه إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها ليملكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد ، فلما صعد إلى القلعة سجنوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن جأشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جـنانه حتى أقام بها الذواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين علي قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل أتابك الشهيد ، شرف الدين ابن اخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له مـشـورا ، وقال له : كل من هناك غلماذكـم ، وتقدم إليه بما يفعل ، فسار حتى وصل إلى الموصل ، وكان بقلعة الموصل ذقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، أغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده في حفظها ، فلما وصل ابن اخت نصير الدين ، أرسل إليه الذقيب يقول له : أرسل إلي مـشـور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته اننت لك في الدخول ومعك من يخدمك حسب ، ثم أرسل أنا إلى أتابك من أثق إليه أستأننه في تسليم الأمر اليك ، فإذا أنن فعلت ، وإن لم يأنن أخرجتك منها ، فترددت الرسل بينهما حتى أنن له في دخول القلعة

على القاعدة المذكورة ، فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غبرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذا قد انكشفت عن زين الدين علي (ابن بككين) (٥٢) قد جاء مجدا ليكون نائباً في القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين - وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه - فوصل الموصل في ذلك الحال ، فقال له الذقيب حسن مثل قوله لشرف الدين ابن أخت نصير الدين ، فأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة في ذفر يسير ، وأرسل الذقيب إلى الشهيد من يثق إليه يستأننه ، فأمره بتسليم القلعة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين وسهل الأمر . فأطمأن الناس وأمدوا وازدادت البلاد معه عمارة .

حصر حصن فذك

هذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنوية إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها ، فلما كان سنة أربعين وخمسمائة ، تقدم أتابك إلى زين الدين علي بإرسال عسكر إليه يحصره ، فسير خلقا كثيرا من الفرسان والرجالة فحصروه ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضيقوا على أهله ومنعواهم الميرة وهم صابرون ، فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم من الضر ، وكان لأصحابه معه عدة حصون أخذها منهم الشهيد ، كالهيثم ، وجديدة نصيبين ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان (٥٣) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال: كانت هذه قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه الى الأمير سالم بن مالك العقيلي على ما ذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى هذه السنة - وهي سنة احدى وأربعين وخمسمائة - فسار الشهيد إليها فحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فذك أن لا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره - وإن قل - للحزم الذي عنده والاحتياط ، وأقام عليها يحصرها بنفسه . ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ما حكى لي والذي قال : أرسل الشهيد الأمير حسان إلى صاحب القلعة لدودة بينهما في معنى تسليمها اليه ، وقال له : تضمن له عني الاقطاع الوافر والعطاء الكثير ، فإن أجاب إلى التسليم والا فقل له : والله لأقيم من محاصرها لك إلى أن أملكها عذوة ، ثم لأبقي عليك ، ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم اليه ، فامتنع ، فقال له فهو يقول لك ، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، وما الذي يمنعك مني فقال : قل له ، يمنعني منه الذي منعك يا حسان من الأمير بك ، فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكتم عنه هذا ، فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها

قال وكانت قصة حسان مع بك ، ان حسان كان صاحب منيع فحصره بك وهو ابن اخي ايلغازي بن ارتق - وضيق عليه ، فبينما هو في بعض الأيام يقاتله ، ان جاءه سهم لا يعرف من اين جاء ، فقتله وخلص حسان منه .

ذكر قتل الشهيد زنكي رضي الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتالها ، فلم يزل

- ٦٤٤٢ -

كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هونائم
دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه وهربوا من
ليلتهم إلى القلعة (ولم يشعر أصحابه بقتله ، فلما صعد أولئك النفر
إلى القلعة) (٥٤) صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر
أصحابه إليه ، فأدركه أوائلهم وبه رمق

حدثني والذي عن بعض خواصه ، قال : أدركته وهو في
السياق ، فحين رأي ظن أني أريد قتله ، فأشار إلى بإصبعه
السبابة ، فوقفت من هيبتة ، وقلت له: يا مولانا من فعل بك هذا
حتى أقتله ، فلم يقدر على الكلام ، وختتم الله بالشهادة
أعماله ، وفاظت (٥٥) منه نفسه وسكن رmse ، وأصبح معدوما
كأن لم يغن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلك ، ولم
يغن عنه أصحابه وعساكره ، ولا حماة أمواله ودساكره ، ولا آخر
الأجل ممالكيه وأجناده ، ولا زحزح عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما
قال فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فأعجب لمن قاد الجيوش ونفسه
قسمان بين الكر والاقدام

يلقى الكتائب مفردا بكتائب
من نفسه وليوم يكدر حامى

لا يرعوي عن أن يقارع وحده
ألفا بأبيض صارم صمصام

يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه
وبرأيه وبِعزمه المقدام
حتى إذا الأجل انقضى مستكملا
ماخط في الألواح بالأقلام

- ٦٤٤٣ -

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
ان الحمام سيبتلى بحمام

وأضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلى عنه العبيد
والخول ، فأى بدر مكارم غرب ، وأي أسد افترس ، ولم ينجح قلة
حصن ولا صهوة فرس ، فكأنكم أتعب أنفسه لتمهيد الملك
وسياسته ، وكم أذابها في حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك ما
أراد ، واستكمل في سعة الملك وشدة الهيبة وزاد ، وهانت عليه
المصاعب ، وزالت المتاعب ، واستكانت لصولته القروم ، وخضعت
لهيبته الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث
والقدم ، ومهلك العرب والعجم ، فأخذ من العالم سره
وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه ، وزال عنه سلطانه ، وبعد
عنه حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلانه ، وأخذه من جميع ما
يملك وحيدا ، وجعله فريدا ، وأصاره بعد القهر للخلائق
مقهورا ، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا ، رهين جدث
لا يذفعه الا ما قدم ، ولا يقبل من ساكنه فيه الندم ، وقد طويت
صحيفة عمله ، ونشرت جريدة أجره ، ونسخت آية عمره ، وبليت
سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة الهباء ، ولا سطرت
حرب الالاء ، ولو نظرت فتكاته لأنسيت البراض والجفاف ، أو عد
صرعى سيفه لكاثرت هلكى الجفاف (٥٦) وحين اختبرتمته
المنية ، وخانته الأمنية ، اضحى الاسلام لفقد ناصره عبوسا
ترحا ، والكفر لعدم خاذله جذلا مرحا ، وما علما ان لهما من الملوك
أبنائه جابرا وكاسرا ، ومؤيدا وقاهرا ، بل من يربو نصره للتوحيد
عليه ، ويزيد في هدم منار التثليث وتعجل الثأر اليه :

زاد على ما قام أبأؤه
به وقد شاد الذي أثلوه

أقصر أهل العصر عن شأوه
حسرى وطال الكل ان طاولوه

وسيرد من فتوحهم وجهادهم ما يرقع هذا الخرق ، ويجبر هذا الوهن .

ولما قتل دفن بصفين (٥٧) عند أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام . ولقد بلغني انه اجتاز بهاوزار مشاهدا ثم قال : وددت أني شهدت صفين بعسكري مع أمير المؤمنين علي عليه السلام ، حتى كنت اريه القتال الذي يعجز أصحابه عنه ، ولكل امرئ ما نوى

فإن والذي حكى لي ، قال : كان حسن الصورة أسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل البائن ، قال : وأشبه من رأيت به ، حفيده السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي ، إلا أن الشهيد كان أتمقامة منه ، وخلف من الأولاد : سيف الدين غازي - وهو الذي ولي الملك بعده - ونور الدين محمود الملك العادل ، وقطب الدين مودود أبو الملوك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير ميران ، فاذقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ، وعقب نور الدين من الذكور ، ولم يبق الملك الا في عقب قطب الدين ، وخلف الشهيد أيضا بنتا ، ولقد أنجب رحمه الله ، فإن اولاده الملوك لم يكن مثلهم. وسنذكر من اخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضي الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزمًا وضبطًا للأمور ، كانت رعيته في امن شامل لعجز القوي عن التعدي على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وانصافه وشجاعته وغير ذلك ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به ، وإن من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتي من ذلك ، وحينئذ نقول : كم ترك الأول للأخر .

فمن ذلك انصافه بين القوي والضعيف . حدثني والذي رضي الله عنه ، قال : قدم الشهيد - قدس الله روحه - إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين - وكان الزمان شتاء - فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي - وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوي الرأي عنده - فدخل الديبسي البلد ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها . واستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفا والديبسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظـر إلى الديبسي نظـر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقري ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد .

ولم تكن الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرتة جعلوا على الأرض تبنا ليقيموها وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وانصافا .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الاملاك ويقول : مهما البلاد لنا فاي حاجة بكم إلى الاملاك ، فإن الاقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الاملاك تذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . رحمه الله ورضي الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لاختلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدي المتطاوله إلى اهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لي والذي قال : رأيت الموصل التي هي أم البلاد في اول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركماني ، وهو قريب من الطبالين ، وكان الجامع العتيق أيضا بلا

عمارة البتة . وكانت جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لا يقدرّون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الأمير ناصر الدين كوري بن جكرمش ، فانه طلب من الشهيد أن يانن له ليبنى دارا قريبا من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبنى بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الاولى ، وهي اليوم مدرسة وقفها أم الملك الصالح ، ثم بنى بعد ذلك داره الاخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذي ذكرناه عن خراب البلد كثيرا جدا ، فلما طالت الايام الشهيدية ، وحمل البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الاقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فقصده الناس واتخذوا بلاده دارا ، فانه من أكرم ارتبط . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دورا . وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة في علو سور الموصل فزيد فيه ما يقارب مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا في السور . وأمر أيضا بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل أولا بغير سور ، فأول من عمل لها سورا شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولم يعمل له فصيلا ولا خندقا ، وكان قليل العدو . فلما ملكها جكرمش بنى فصيلها وحفر لها خندقا وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسائة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين ، فهذا السور ، وهذا الخندق هو على الحال التي عملت في الايام الشهيدية . وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب .

قال المؤرخ : وكانت الموصل اقل بلاد الله فاكهة ، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد ، عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة ، فالرمان يبقّى إلى ان يدرك العتيق

الجديد ، وكذلك الكمثري ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن أرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، ولا سيما دركاه السلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدي رحمه الله : وكان مع اشتغاله بالامور الكليات من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً . قال : فمن ذلك ، أنني وصلت الى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بأيام ، وقصدت خيام جمال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلني إليه ، فبينما أنا عنده ، وهو يسألني عن طريقي ، وإذا قد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاماً لا أعلمه . فقال لي جمال الدين : متى وصلت ؟ فقلت : الساعة . فقال : هذا عجب تجيء الساعة ويسمع أتابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلي ، وقد أرسل يقول : سله عن فذك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل اليهم من الجامكيات والسلاح وجميع الأحوال . قال : فحدثته بجلية الحال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ، إن كنت تعلم أن هناك نقصاً في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرّفنا حتى نزيله ونفعل ما يجب ؟ فقلت : ليس هناك إلا ما يحب المولى وزدته شرحاً ، فانظر الى هذه الهمّة ، وإلا فاي محل لفذك في سعة مملكته الطويلة العريضة .

قال : وأصغر من هذا أنه بلغه أن جماعة من فلاحى مدينة

الموصل رحلوا الى بلد ماردين ، فأرسل إلى حسام الدين يطلب منه أن يعيدهم ، فرد الجواب : إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم ، وتأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم انتم مثل فعلنا لم يفارقوكم . فقال الشهيد لرسوله : قل لصاحبك ، إذا أخذت أنت من كل مائة سهما واحدا كان كثيرا لك ، لأنك مشغول ببلدك في رأس ماردين . وأما أنا فإذا أخذت الثلاثين كان قليلا ، لما أنا بصدده من قصد الاعداء والجهاد ، ولولا لي لطال عليك أن تشرب الماء أمانا في ماردين ، ولكان الفرنج ملكوها ، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخذت كل فلاح في بلد ماردين إلى بلد الموصل ، فأعادهم . فهذا مالا مزيد عليه في معرفة أحوال المملكة .

قال : ومن جملة رأيه الحسن ، أنه كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ، فلا يرفع أحدا فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه ، ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه ، فمن ذلك أنه كان له طشت دار يسمى سبلتوه فسلم إليه يوما خشكناذكة (٥٨) وقال : احفظ هذه ، فبقي نحو سنة لا تفارقه الخشكناذكة خوفا أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك قال له : أين تلك الخشكناذكة . فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن ، وأمر له بدز دارية قلعة كواشي ، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك .

ومن آرائه : أنه كان لا يمكن أحدا خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها . فمن ذلك أنه (٥٩) هرب منه أمير كبير يقال أبو بكر - وكان مقدم البكجية ، وهو مقطع نصيبين - فهرب منه إلى حسام الدين تمرتاش بماردين ، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه ، فنازل ماردين وحصرها ، فلما عجز حسام الدين عن منعه سيره إلى دركاه السلطان مسعود ، فلما بلغ

- ٦٤٤٩ -

الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم اليه فسجنه
وكان آخر العهد به .

ومن صائب الرأي الجيد ما فعله من نقل طائفة من التركمان
الايوانية مع الامير اليارق الى الشام واسكنهم بولاية حلب ،
وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي
للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويرأوونهم ،
وأخذوا كثيرا من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل
جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها
بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، وقال : إن جرى
على بعض هذه الجهات خرق ، أوحيل بيني وبينه ، استعين على
سد الخرق بالمال الذي في غيره .

ومن ذلك شجاعته وهيئته الهيوية

وأما شجاعته واقdamه فإليه النهاية ، وبه كان يضرب المثل . أما
قبل ان يملك فمشاهده معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج
بطبرية ووصله الى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها ايضا حملته على
اصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده في جبلها الى سورها ، ومقامه
هناك مشهور الى الآن الى أشباه كثيرة لهذا ، وأما بعد أن ملك ،
فمن عرف حاله واحاطة الاعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره
واستيلائه مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر
والاقدام . والذي حكى لي والذي من ذلك ، قال : كان
الشهيد - قدس الله روحه - قد أحرق الاعداء بولايته والمنازعون
له ، فمنهم امير المؤمنين المسترشد بالله ، قد كان
الحال بينهما ظاهرا ، حتى أن المسترشد بالله سار الى الموصل
وحصرها ، ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد

جاور أعمال الشهيد بذلك الذواحي ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم
عساكر ، وأشدهم كراهة للشهيد ، ثم إلى جانبهم أعمال
أرمينية - وهي لبني سكمان - ولهم العساكر الكثيرة والبلاد
الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان ، والمعدن
وغيرهما . ثم إلى جانب بيت سكمان ، ركن الدولة داود بن سقمان
ابن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين
تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيرا من
ولايته ، منها : جزيرة ابن عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من
بلادهما كثيرا ، ثم إلى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب
دمشق ، قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ،
وحماه ، وحمص ، وبعلبك ، وهم أشد ما كانوا قوة وأكثر جمعا .
ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب
دمشق قد جاوروه بها ، ومع هذا فهو يأخذ أيضا من بلاده ، فكان
لا يستقر بل يغزو كلا منهم في عقرباره - ما عدا السلطان
مسعود - فإنه كان لا يباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الاطراف
على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان اليه ، وطلب منه أن
يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه
ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر إلى
هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير . ولو لم يكن في زمانه غير ركن
الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت في
التركمان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضا مع هذا
شجاعا مقداما لا تضره الهزائم شيئا ، بل يفارق المعركة مهزوما ،
ثم يعاود الحرب بعد أيام .

وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ،
وملكوا بلادهم واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم
والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفا منهم ، فلما ملك
البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم ذكاية غير فتح
الرها لكان عظيما . وحكي لي عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى
الرها حين فتحها ، أحضر طعاما وقال لأصحابه : لا يتقدم إلي ،

- ٦٤٥١ -

ولاياكل معي الا من يحمل غدا معي الى الرها ، فلم يتقدم اليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فمنعه أصحابه ، فقال : اتركوه فإنني اتوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب أول الناس ومقدمها الى سور الرها .

واما صدقاته رضي الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميرى ظاهرة ، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرا مع من يثق إليه . حكى لي : انه ركب يوما فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه اسمه بليمان ، فقال له كلاما لم يفهمه بليمان ولم يتجاسر على ان يستفهم منه ، فعاد عنه الى بيته فودع أهله عازما على الهرب . فقالت له زوجته : ما نذيك ، وما الذي حملك على هذا الهرب ؟ فذكر لها الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فأذكر له قصتك وأفعل ما يأمرك به ، فقال : أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك ، فلم تزل زوجته تراجعته وتقوي عزمه على القول لنصير الدين فرجع الى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير وأحملها إليه فهي التي أراد . فقال بليمان : الله الله في دمي ونفسي . فقال : لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال : أمعك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له : إنه يتصدق كل يوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلي يأخذه من الليل . وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الأرض وأرسلك إلي ، فعلمت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فأنظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وفطنته ، وإلى هذه الهبة الشديدة التي منعت ذلك الأمير عن المراجعة ، وبها امتنع القوي عن الضعيف

- ٦٤٥٢ -

وحكى لي والدي من شدة هيئته ما هو اشد من هذا ، قال والدي : خرج يوما الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحركوه فوجدوه ميتا .

واما قوة عزمه ، وقلة تلونه ، وعلو همته

قال لي والدي رحمه الله : كان الشهيد رضي الله عنه قليل التلون والتثقل ، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل ، إلا بئذ يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا ، هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له . قال والدي : كنت أرى من جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الوزير في الايام الشهيديّة من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحاورة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوما : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الايام الشهيديّة ، ما أرى منها الآن شيئا ؟ فقال لي : الآن ما عندي كفاية ؟ فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية ان يسلك الانسان في كل زمان ما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولا يتلون بأقوال أصحابه فحفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذي أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية في الركاب لهم الجامكيات

الوافرة ، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة ، ففي بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيرا ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئا ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له ، فقال لهم : اشكوتم إلى الديوان ؟ قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب ؟ قالوا : لا . قال : فلأي شيء أعطي الديوان مائة ألف دينار ، وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتم حالكم إلى الديوان ، فإن اهتملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن اهتمل أمركم كنتم شكوتم الجميع إلي حتى كنت أعاقبهم على اهمالكم ، وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتأديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصالح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندي النين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي ، وبهم من الحاجة إلى النفقات في أسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عني ، وانكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا في الاجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجوه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للأمور ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره .

وكان ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجمال ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والدي : كان الانسان إذا قدم عسكريه لم يكن غريبا ، فإن كان جنديا اشتمل عليه الاجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد منزلة الديوان فراء من توفرهم عليه ، ونظرهم في مصالحه ما يكون كانه في أهله . وإن كان عالما ، فيقصد خيام القضاة بني الشهر زوري وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسذون اليه ويؤنسونه غربته فيعود أهلا ، وسبب ذلك

جمعية إنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية ، والاراء الصائبة ،
والانفس الالوية ، ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل
الجميل واصطناع المعروف .

واما غيرته

فكان الشهيد رحمه اله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، ولاسيما
نساء الاجناد ، فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها ،
وكان يقول : أن جندي لا يفارقوني في اسفاري ، وما يقيمون عند
أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن .
فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب ، أنه كان قد أقام دزدارا بقلعة
الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطي ، وكان من
خواصه واقرب الناس اليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه عنه
أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيساني ان
يسير مجدا ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع
ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار
صلاح الدين مجدا ، فلم يشعر البربطي الا وقد وصل الى البلد ،
فخرج الى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له :
المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد ان يعلي قدرك ويرفع منزلتك ،
ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك
مثل نصير الدين هاهنا ، فتجهز وتحذر مالك في الماء إلى الموصل
وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلا ولا كثيرا الا
نقله الى السفن ليحدرها الى الموصل في دجلة ، فحين فرغ من جميع
ذلك ، اخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به ، وأخذ جميع ماله لم
يعدم منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده احد على سلوك شيء من
افعاله ، فأعجب من حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر
من في دولته ، وأخفى أمره خوفا من جهل ذلك الدزدار ان يحمله على
العصيان ، أو على أمر يتعب في تلافيه . ثم انظر من صلاح الدين ،
كيف خدع ذلك المسكين باكرامه ووعد بالاعمال السنوية حتى أخرج

نخائره وأمواله ، ولم يبق منها شيئاً . ولو سلك غير هذا لعدم من ماله الكثير .

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

لما قتل أتابك الشهيد رحمه الله ، هرب جمال الدين واختفى عند أمير يعرف بأميرك الجاندار خوفاً من صلاح الدين الياغيساني لعداوة كانت بينهما ، وفي تلك الليلة ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود - وكان مع الشهيد - واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له : إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقاً يبقى به الملك في أولاد صاحبنا ، ونعمر بيته جزاء لاحسانه إلينا ، فإن الملك

قـــد طمـــع
في البلاد واجتمعت عليه العساكر ، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله ، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرق ولا يمكن رقبه ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فظهر حينئذ جمال الدين من الاختفاء ، وركب إلى الملك وخدمه وضمن له فتح البلاد وأطعمه فيها ومعه صلاح الدين ، وقال له : إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه ، فقبل قولهما وظنه حقاً ، وقربهما طمعاً في أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه ، وأرسل إلى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد ، ويأمرانه بالارسال إلى سيف الدين غازي - وهو ولد زكي الأكبر - واحضاره إلى الموصل ، وكان بشهرزور - وهي أقطاعه من أبيه - ففعل زين الدين ذلك . وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها ، وقال جمال الدين للملك : إن من الرأي أن يسير صلاح الدين إلى مملوكك محمود بحلب يدبر أمره ، فأمره بذلك ، وكان هذا أمراً تقرر بين جمال الدين وصلاح الدين ، وهياً مسير صلاح الدين إلى الشام ، وتقرير أمر نور الدين ، وحفظ البلاد هناك لئلا يطمع الفرنج في شيء منها ، وكانت مدينة حماة أقطاع صلاح الدين ، فرغب

بالشام لهذا السبب ، وأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويملك البلاد ولا يبقى لاولاد الشهيد شيء شرقي الفرات . وكان أحب الاشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضا ، لأنه لم يأمن منه . فلما أمر الملك بمسير صلاح الدين الى الشام سار ، وبقي جمال الدين وحده مع الملك ، فأخذه وقصد الرقة ، فحسن له جمال الدين الاشتغال بشرب الخمرة والخلوة بالنساء ، وارسل اليه عدة جوار كن للشهيد ، وشيئا من المال يهبه المغنيات ، وهون عليه أمر ملك البلاد ، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها في يده فاشتغل الملك بذلك ، وأراد أن يعطي الامراء ، فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه ، وقال : لهم منك الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة . وشرع جمال الدين يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بن اتابك الشهيد واحدا بعد واحد ، وكل من يحلف يأمره بالمسير الى الموصل هاربا من الملك ، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام ، ثم سار الى ماکسين (٦٠) ، فتركه بها عدة أيام أيضا ، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، وكان سيف الدين قد دخل الموصل فاستقر بها ، فقوي حينئذ جنان جمال الدين (ووصل هو والملك الى سنجار) (٦١) وارسل الى دذارها وقال له : لا تسلم البلد ولا تمكن أحدا من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك . ففعل الدذار ذلك . فقال جمال الدين للملك : المصلحة انا ذسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج الى الخدمة وحينئذ نقبض عليه وتتسلم البلاد ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر ، فساروا الى مدينة بلد (٦٢) وعبر الملك دجلة من هناك ، فلما عبرها ، سار جمال الدين الى الموصل فدخلها ، وأرسل الامير عز الدين أبا بكر الديبسي في عسكر الى الملك ، وهو في ذفر يسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين علي على ماكان إليه من ولاية الموصل ، وجعل جمال الدين وزيره ، وإرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف ، وأقره على البلاد وأرسل له الخلع . وكان هذا سيف الدين لازم

السلطان مسعود أيام أبيه سفرا وحضرا . وكان السلطان يحبه كثيرا ويأنس به وينشطه ، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكمال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدمه واحسانه ، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة الاف فارس ، فلقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد ، وهو معذور فانه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين في الملك اطاعته جميع البلاد ، ماعدا ماكان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانيا

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجي - الذي كان صاحب الرها - في ولايته غربي الفرات في تل باشر وماجاورها ، فراسل أهل الرها - وكان عامتهم من الأرمن - وواعدهم يوما يصل إليهم فيه ، فأجابوه الى ذلك ، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد في قتالهم ، فبلغ الخبر الى نور الدين - وهو حينئذ يحلب قد ملكها بعد قتل والده - فسار مجدا إليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها وفي هذه الدفعة نهب وخربت وخذلت من أهلها ولم يبق منهم - - - - - الا القليل . وكان - - - - - بالقلعة قد ارسلوا الى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد الى ولاية الموصل ، فلقي عز الدين أبا بكر الديبسي وقد سار الى الجزيرة ليتسلمها اقطاعا ، فسلك طريق البقعاء (٦٣) متصيدا ، فلقي القاصد فاخبره خبر الرها ، فتترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصدا مسرعا ينهي إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين في السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر

فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحا ثانيا ، وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجيبة

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من غنائمها إلى الامراء وغيرهم ما جرت به العادة . وكان زين الدين علي من جملة من أرسل إليه منها ، وفي جملة ما أرسل اليه عدة من الجواري فحملن الى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم ، فغاب عنهم قليلا ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جري لي اليوم أعجوبة ، وهي أننا لما فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بأعادة السبي والغنائم ، وكان مهيبا مخوفا ، فلم أجزر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفا من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابني زنكي

لما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطان وتحليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه ، فلم يزل يرأسله ويستميله ، وكالما طلب شيئا أجابه إليه إستمالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل

الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتذرا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء إلي ، كنت تخافني على نفسك ؟ والله لم يخطر ببالي ما تكره ، فلمن أريد البلاد ومع من أعيش ، وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إلي ؟!

فأطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد إلى حلب فتجهز ، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود ونزل بعسكره عنده ، وقال له : لا غرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله سيف الدين حتى رحلوا عنها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الأفرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولا يشك ملك الألمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عدداً وأوسعهم بلاداً ، وملكهم أكثرهم عدداً وعدداً ، وأن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً ، « والسيف اصدق أنباء من الكتب » . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبوق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وليس له من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر إلى معين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر ، وكان عاقلاً خيراً بينا حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الاول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب منه ، وكان فيمن

- ٦٤٦٠ -

خرج معهم ، الفقيه حجة الدين يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي ، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا ، خرج راجلا فراه معين الدين فقصده وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ، فقال : قد بعث واشترى ، فلا نقيه ولا نستقيه يعني قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم) (٦٤) الآية . وتقدم وقاتل الافرنج حتى قتل رضي الله عنه عند النيرب شهيدا (٦٥) . وقوي أمر الفرنج وتقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين ، يستغيث ويستجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعني كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فأنا إن جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد ذوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا ، لا يسلم منا أحد لبعده بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن القاهم وقاتلهم ، فتسلم البلد إلى من أثق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج إنني لا اخذ دمشق ، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي ، فمأطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج .

وأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدهم ، ويعلمهم انه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطمعون في السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مدمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء بدمشق لا يبقون عليكم ما يبيدكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون انكم لا تقدرعون على منعه عن البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الامان عن دمشق ، فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا

بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم الى الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل الفرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقي حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ، قال : حكى لي بعض الاثمة العلماء ، أنه رأى الفندلاوي في المنام ، فقال له أين أنت . قال : في جنات عدن (على سرر متقابلين) . (٦٦) .

ذكر فتح نور الدين حصن العريمة

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنزالي بعساكره ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا فوصل إليهما حيثئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفدش صاحب طليطلة ، خرج مع ملك الألمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي ملك العريمة ، هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده ، فسار إليه مجدين فصباحها ، وكثبا إلى سيف الدين وهو بحمص يستنجد به ويطلبان المدد ، فامدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين أبا بكر الديبسي ، فحصروا الحصن وبه ابن الفدش ، فامتنع به حماه ، فزحف المسلمون إليه ، وتقدم النقايون الذين مع نور الدين فزحفوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، اذعنوا واستسلموا ، والقوا ما بأيديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفدش ، وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين .

ذكر ملك سيف الدين قلعة دارا

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضي الله عنه ملك دارا (٦٧) وبقيت بيده إلى أن قتل ، فلما قتل أخذها حسام الدين تمرتا ش صاحب ماردين ، فلما كان في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار سيف الدين إليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها ، عازما على أن يدخل ديار بكر ويستعيد مأخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضي الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها إلى ما يفعل العسكر في بلاده ، قال : كنا نشكو من أتابك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حائل السلطان ، ولأخذوا كفا من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت فيه فلما

صرت في غيره بكيت عليه

ثم أنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهزت خاتون وسيرت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفي ولم يدخل بها . فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده المملوك منها .

ذكر غزو الفرنج بيغرى وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة : سار نور الدين محمود بن الشهيد رضي عنهما إلى بيغرى ، وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم ، وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هناك واقتتلوا اشد قتال ، ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، وإنهزم الفرنج واخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتل واسير واما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسراني (٦٩) في هذه الواقعة من قصيدة في اولها :

ياليت ان الصدم مصدود
اولا فليت اليوم مردود

الى متى يعرض عن مغرم
في خده للدمع اخدود

ومنها في ذكره :
وكيف لاذنتي على عيشنا الـ
محمود والسلطان محمود

وصارم الاسلام لاينثني
الا وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
الا ونور البين موجود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

- ٦٤٦٤ -

والقوم اما مرهق صرعة
أو موثق بالقد مشدود

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الآخرة من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفي سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي بن أقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحده الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه أعرف منه بالطب فلما رأى شدة مرضه علم أن الأغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفي . وكان عمره نحو أربعين سنة . وكان من أحسن الناس صورة ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل ، وخلف ولدا ذكرا اخذه عمه نور الدين محمود ورباه واحسن تربيته ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عذفوان شبابه فتوفي . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه الله

كان رحمه الله تعالى كريما شجاعا ، عاقلا ، ذا حزم وعزم ، ولما توفي والده الشهيد ، استوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر نخل بلاده ، وأقر زين الدين علي على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد إقطاعه وأعلى محله ، واقطع عز الدين أبا بكر الديبسي جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرهما ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

حكى لي والدي : أنه كان راتبه كل يوم أسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر

النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأسا من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل على رأسه سنجق من اصحاب الاطراف ، فانه لم يكن فيهم من يفعله لاجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكريه أن لايركب أحدهم الا والسيف في وسطه والدبوس تحت ركابه سفرا وحضرا ، ولم يكن يفعل قبل ذلك في سائر البلاد إلا في السفر ، فلما أمر هو عسكريه ، اقتدى به غيره من أصحاب الاطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الاتابكية العتيقة ، وهي من أحسن المدارس وإوسعها ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفيين .

وبنى أيضا رباطا للصوفية بالموصل وهو الرباط المجاور لباب المشرقة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعزالدين الديبسي ، قد اتفقت كلمتهم في ايامه ، واضطروا الى مداراتهم ، لانهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير الى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من اقرب الناس الى السلطان ، ومنزلتي عنده مشهورة ، ولا بد من المسير اليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جاذبه فلا يبقي عليهم ، فكانوا لايزالوا يمنعونهم عما يريد من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريما ، قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها يقول « شعر »

الام يراك المجد في زي شاعر
وقد نحت شوقا فروع المنابر

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميري ، سوى
الاقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع

في ذكر ملك أخيه قطب الدين

لما توفي سيف الدين غازي ، كان أخوه قطب الدين مـودود
بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على تملكه طلبا
للسلامة منه ، فانه كان لين الجانب ، حسن الاخلاق ، كثير الحلم ،
كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ، ونزل
بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر في الملك ، واطاعه
جميع ماكان لأخيه سيف الدين ، لان المرجع كان في جميع المملكة
الى جمال الدين وزين الدين ، ولما ملك واستقر في الملك ، تزوج
الخاتون ابنة حسام الدين تمرتش التي كان سيف الدين تزوجها
ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده
على ماذكره . ولم يملكها من اولاد قطب الدين احد من غير اولادها

في ذكر فاطمة ابنة عبد الملك

معرفة حسنة تذكر

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة بنت عبد الملك بن
مروان بن الحكم ، وامها عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن ابي
سفيان - جد امها وابيها - ، وابنه يزيد - وهو جدها لامها - ،
ومعاوية بن يزيد - وهو خالها - ، ومروان بن الحكم - وهو
جدها لابيها - ، وعبد الملك بن مروان - وهو أبوها - ، والوليد ،
وسليمان ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك - وهم أخوتها - ، وعمر
ابن عبد العزيز - وهو زوجها - والوليد بن يزيد بن عبد
الملك - وهو ابن أخيها - ، ويزيد وابراهيم ابنا الوليد بن عبد

- ٦٤٦٧ -

الملك - وهما ابنا أخيها - أيضا . ولم يبق من بني أمية الذين
ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها ان تضع خمارها عنده ، الا مروان
ابن محمد ، المعروف بالحمار لاغير . وهذه الخاتون كان يحل لها أن
تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا ، وهم : نجم الدين ايلغازي بن
أرتق - وهو جدها لابيها - ، وسقمان بن أرتق - وهو عم
أبيها - ، وحسام الدين تمر تاش - وهو أبوها - ، ونجم الدين
أبي - وهو أخوها - ، وقطب الدين ايلغازي بن أبي - وهو
ابن أخيها - وحسام الدين ، وناصر الدين - وهما أولاد قطب
الدين - وسيف الدين غازي ، وقطب الدين مودود ابنا الشهيد
زنكي - وهما زوجها - وعماد الدين الشهيد - وهو
حموها - وولداها سيف الدين غازي ، وعز الدين مسعود - ابنا
قطب الدين مودود - ونور الدين أرسلان شاه بن عز الدين
مسعود - وهو ابن ابنها - وابنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن
نور الدين ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي - وهو ابن
ابنها - وابنه معز الدين محمود ، وعماد الدين زنكي بن قطب الدين
مودود - وهو ابن زوجها - وولده قطب الدين محمد .

ذكر ملك نور الدين محمود بن الشهيد مدينة سنجار وما كان بينه وبين أخيه قطب الدين

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سيف
الدين غازي ، كان نور الدين محمود بحلب - وهو أكبر من قطب
الدين - فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه اليهم ، وكأنهم حسدوا زين
الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم ، وكان
فيمن كاتبه ، المقدم والد شمس الدين ابن المقدم - وهو حينئذ دزدار
سنجار - واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار نور الدين جريدة في
سبعين فارسا في أكابر دولته ، منهم ، أسد الدين شيركوه ، ومجد

الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل الى ماسكسين في ستة
أذقس في يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد ، فلم يعرفهم الذين
بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد
وكأنهم تركمان ، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ،
فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى
لحق به أصحابه ، وسار مجدا إلى سنجار ، فوصلها وليس معه
غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير
من شدة تعبته وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصدوله ، وكان المقدم
قد استدعي إلى الموصل ، لأن خبره مع نور الدين بلغ من
بها ، فأرسلوا إليه وأحضره فتوقف عدة أيام فلم يصل نور
الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال
له : أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني
فلما فارق سنجار وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصول
أرسل قاصدا مجدا إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين
فسقط في يده وخاف فوات الأمر ، ووصل القاصد الذي سيره ابن
المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليعفر ، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور
الدين ، فكاتب نور الدين فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب
الحصن يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده ولما
سمع أتابك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل
نحو سنجار ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يعفر
وأرسلوا إلى نور الدين يذكرون عليه اقدامه وأخذته مالميس
له ، ويهددوه بقصده وإخراجه عن البلاد قهرا ان لم يرجع اختيارا
فأعاد الجواب : إنني أنا الأكبر وإنني أحق ان أدبر أمر أخي
منكم ، وما جئت الا لما تتابعتم الي كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم
لولايتكم عليهم - يعني زين الدين وجمال الدين - فخذت أن
يحملهم الغيظ والأنفة على اخراج الأمر عن أيدينا وأما تهديدكم إياي
بالحرب والقتال ، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم - وكان قد هرب إليه
جماعة من أجنادهم - فخافوا أن يلقوه لثلا يخامر عليهم باقي
العسكر ، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال :
نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر

للفرنجة أنه يحكمنا ويتهدهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنجة ، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار ، فهذه أذفع لنا من تلك ، وتلك أذفع له من هذه ، والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار ، وهو في ثغر بإزاء الفرنجة ويتعين مساعدته ، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ في تعظيمه وأكرامه وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلي في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ما تريد ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما ، وأجاب نور الدين إلى ما طلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين حمص ، وسلم سنجار إلى أخيه وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لا بد من أن تكون عندي ، فلي من الحق مثل مالاخي ، وأنا أخرج اليك منه ، فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ما تستغني به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالذفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي ، فأجابه إلى ذلك ، فقال له جمال الدين : أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها ، فكان نائب جمال الدين يقبضها ، كل سنة ويشترى بها أسرى من الفرنجة ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم فكان كل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه .

ذكر قضية قلعة سنجار

قال : فلما مات سيف الدين وتولى أخوه قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار - وكان هذا شمس الدين خصيصا بسيف الدين - وسبب وصلته به أنه لما قصد سيف الدين خدمة السلطان مسعود السلجوقي ، رتب في خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحدا منهم ، ومعه ولد له مليح الصورة ، فكلف به وأحبه واستصحبه معه إلى الموصل ، ولما انفرق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين إلى الموصل استخلف سيف الدين ، عبد الملك في سنجار .

فلما توفي سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره وحلفه على أنه لا يمكن والده من تسليم سنجار إلى غيره ، فحلف له ثم هرب من عند قطب الدين إلى سنجار ، فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت له المملكة كتب عبد الملك لنور الدين أن يسلمها إليه ، ويعلمه أن خزائن بيت أتابك جميعها في سنجار فلما بلغ قطب الدين ذلك ، سير اليهما ولاطفهما ودخل لهما في كل ما اقترحا عليه ، وحلفا له بمحضر من قاضيهما وأعيان شهودهما ، واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هاربا منه ، فاتفق إلى خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب في مائتي فارس ، فنفذ شمس الدين إلى والده المقدم عبد الملك يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخيرا الذخائر ما يعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين في تسليم البلد إليه ، على أن لا يطالبه بشيء مما

أخذه ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم البلد يوم الاثنين عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على ما في يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين ما اتفق بعث وزيره جمال الدين الأصفهاني ليفرغ ما كان في الخزائن من الأموال والأقمشة والجواهر ، ومعه جريدة ما يتضمن ذلك المال (وعند لقائه بنور الدين (٧١)) قال له : هذا مال المسلمين ولا يحل لك إطلاق شيء منه ، فقال نور الدين : إن كان أخذ شيئاً من مال المسلمين بالغدر ففي عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصلح بين نور الدين وبين أخيه قطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار ، ويأخذ الرقة والرحبة وحمص ويعطيه سنجار وتبقى الرها في يد نور الدين على ما كانت أولاً .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب ، ومعه خزائن سنجار على ستمائة جمل ، ما خلا البغال ومافرقه على أولاد الملوكة والأمراء - ستة وتسعين بغلاً محملة ذهباً (٧٢) .

ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده .

ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب الناس منه . فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً

- ٦٤٧٢ -

كثيرا وفيمن قتل ، البردس صاحب انطاكية ، وكان عاتيا من عتاة
الفرننج وذوي التقدم فيهم والملك .

ولما قتل البردس خلف ابنا صغيرا وهو بيمند ، فبقي مع أمه
بأنطاكية ، فتزوجت أمه بابرذس آخر ، وأقام معها بأنطاكية يدبر
الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند ابن المقتول .

ثم إن نور الدين غزا بلد الفرننج غزوة أخرى ، فلقية فرسان
الفرننج وقاتلوا ، فهزمهم وقتل منه وأسر فكان في الأسرى البردس
الثاني زوج أم بيمند ، فلما أسره تملك بيمند انطاكية بلد أبيه وتمكن
منه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين
وخمسمائة على ما ذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح
نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البردس فممن قال فيه :
القيسراني الشاعر قصيدته المشهورة التي أولها هذه الأبيات :

هذي العزائم لا ما تدعى القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

مازال جدك يبني كل شاهقة
حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب

أغرث سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب

- ٦٤٧٣ -

ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

ظهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

حتى استطار شرار الزند قاذبة
فالحرب تضرم والآجال تختطب

والخيل من تحت قتلها تقربها
قوائم خانهن الركض والخب

والذقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

والسيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو دومة فيها ولا اليلب

والذبل كالوبل هطالا وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب

وللظبا ظفر حلوا مذاقته
كأنما الضرب فيما بينها ضرب

وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فذور الدين محتسب

- ٦٤٧٤ -

ذو عزيمة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب

أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جدا . ومما قال فيها بعض الشاميين وأدسيت
اسمه :

أقوى الضلال واقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش بين محمد محموده
من بعد ما علت دما عبراته

ردت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

أرسي قواعده ومد عماده
صعدا وشيد سوره سوراته

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
إصلاته وصلاته وصلاته (٧٣)

وهي أيضا طويلة .

ذكر ملك حصن أفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمس مائة سار نور الدين الى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، ومن أحصن القلاع وامنعها ، وكان من به من الفرنج يغيرون على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال ليمنعهم الاستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوه ليزحزحوه عنه فلم يصلوا اليه وقد ملك الحصن ، وملاء نخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه فلما بلغه قرب الفرنج منه سار نحوهم ، فحين رأوا جده في لقائهم ، رجعوا القهقري واجتمعوا ببلادهم ، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء فأكثروا ، فمن ذلك قول ابن منير في قصيدته التي أولها :

اسنى الممالك ما أطلت منارها
وجعلت مرهقة الشفار دسارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكذف عدله أقطارها

أدركت تارك في البغاة وكنت يا
مختار أمة أحمد مختارها

عارية الزمن المغير سما لها
مذك المعير فاسترد معارها .

- ٦٤٧٦ -

صارت نجومك فوقها ولربما
باتت تناقضها النجوم سرارها

امست مع الشعري العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها (٧٤)

وهي طويلة

ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين

وانهزام نور الدين رضى الله عنه في سنة (ست وأربعين
وخمسمائة) (٧٥)

فيها سار نور الدين إلى بلاد جوسلين ، وهي القلاع التي شمال
حلب ، منها تل باشر ، وعين تاب ، وعزاز وغيرها من الحصون
فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، فكانت
بينهم حرب شديدة اجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، وأخذ
جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيرا ، وأخذ ما معه من
السلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي
صاحب قونية وأقصرها وغيرها من تلك الأعمال - وكان نور الدين قد
تزوج ابنته - وأرسل مع السلاح إليه يقول : قد أنفذت لك سلاح
صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعظمت هذه الحالة على نور
الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما نذكره .

في ذكر أسر جوسلين وملاك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال سلاحه إلى حميه
السلطان مسعود ، قام لذلك وقعد ، وهجر الراحة للأخذ

بثأره ، وأزكى العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين أما قتلا أو أسرا ، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخذ إلى أعمال الحيلة ، فاتفق أن جوسلين خرج متصييدا متنزها في نهر يسير ، فظفر به طائفة من التركمان فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين وأرسل جوسلين في إحضار المال ، فأتى بعض التركمان ، وكان نور الدين بحلب فعلمه الحال ، فسار معه عسكريا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا ، وكان نور الدين حينئذ بحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للأمة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصبحت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميتها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن من جانبه بالعهد والمواثيق ذكث وغدر ، فلقيه غدره ومكره (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) (٧٦) .

فما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها : تل باشر ، وعين تاب ، وأعزاز ، وقورس ، والراوندان ، وحصن البارة ، وتل خالد ، وكفر سوت وحصن بسرفوث بجبل بني عليم ، ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ، وكان نور الدين رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا ونخائر تكفيه عشر سنين ، خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

- ٦٤٧٨ -

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، فمن ذلك قول القيسراني
من قصيدة ، أولها هذه الأبيات حيث يقول :

دعا ما ادعى من غرة النهى والأمر
فما الملك الا ما حباك به القهر

ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر

كما أهدت الأقدار للقمص أسرته
وأسعد قرن من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على غلوائه
فأوثقه الكفران ، عداوه والكفر

وأمست عزاز كاسمها بك عزة
تشق على الذسرين لو أنها وكر

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة
فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر

كأني بهذا العزم لافل حده
واقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وليس سوى جاري الدماء له طهر (٧٧)

وقال بعض الشاميين أيضا في هذا المعنى هذه الابيات :

هيئات بعصم من اردت حذار
انى ومن أوهاك الأقدار

- ٦٤٧٩ -

همم تحلك كل يوم رتبة
تسري فيصبح دونها الأعمار

ومطامح في العز إذ هي صدوبت
فلهن في الفلك الأثير قرار

طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لا سحل انشأها ولا امرار (٧٨)

وسعادة ما زلت تمرى خلفها
فيشف وهو الناق المذار

فارتك ما يجني الوفي وفاؤه
وأرته كيف يحين الغدار (٧٩)

وهي طويلة

ذكر المصاف بين نور الدين والافرنج بدلوك

لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ليتملكها ، ملك بعضا وبقي
بعض ، فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقي لتمنعه منه ، وصدوا
أنه يمتنع باجتماعهم ولا يقدم عليهم في عقر ديارهم ، فلما بلغه
خبرهم سار اليهم ، وصمم العزم على لقائهم ، فالتقوا بدلوك
واقْتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، فمنح الله
المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أتت على كثير منهم
وسلم الباقيون ، واستولى نور الدين على دلوك وغيرها ، وفي ذكرها
وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين قصيدة فيها :

- ٦٤٨٠ -

اعدت بعصرك هذا الأنيق
فتوح النبي وأعصارها

فوطأت يا حبذا أحديها
واسررت من بدر أنوارها

وكان مهاجرها تابعيك
وانصار رأيك أنصارها

فجددت إسلام سلمانها
وعمر جدك عمارها
وما يوم إنب إلا كتب
ك بل طال باليوع اشبارها

وأيامك الغر من بعده
تعيد إلى الطي أغرارها

ويوم على الجون جون السرا
ة عز فسعطها عارها

صدمت عريمتها صدمة
انابت مع الماء أحجارها

فصبحت بالخمس أحفاضها
ومسيت بالخمس أبكارها

وفي قل باشر باشرتهم
بزحف تسور أسوارها

وإن دالكتهم دلوك فقد
شدت فصدقت أخبارها (٨٠)

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي بهمزان

في سنة أربع (٨١) وأربعين وخمسمائة ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمزان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب له ببلاذ الجبل . وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبك ابن بلنكري ، فقام بامر ملكشاه ولم يمهل غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضا ، ويخلو وجهه من منازع من السلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمدا أجابه إلى الحضور عنده ، وسار إليه وهو بهمزان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد ، دخل إليه خاصبك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه ففرقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقتل معه زكي الجاندار . وبقي خاصبك مطروحا حتى أكلته الكلاب . وكان ابتداء حاله ، أنه كان من أولاد بعض التركمان ، فخدم السلطان فمال إليه وقدمه حتى فاق سائر الأمراء ، فتقدم تقدما عظيما ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب في أكثر الحوادث المشاغبة للسلطان مسعود ، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأذفون من أتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان والتكبر عليهم . وفيها : أعني سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصل أياز قفجاق - وهو من أكابر أمراء العجم - شاكيا من شمس

- ٦٤٨٢ -

الدين ايلدكز ، ومستغيثا عليه ومستشفعا اليه لانجاده بعساكر يفتح
بها ما بيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الامير
قراجه تجنه ، مقطوع بلد الهكارية ، فوصلوا الى سلماس واقاموا
معه واصلحوا حاله معه ايلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ،
وكان هذا قبل أن يستولي على همذان واصفهان وسائر بلاد الجبل .
وفيها توفي حسام الدين تمر تاش صاحب مارين ، وولي بعده ابنه
نجم الدين ألبى .

في ذكر ملك نور الدين دمشق

في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتاك . وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها ، أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية مدينة عسقلان وهي مدينة فلسطين حصنا وحصانة ، ولما كاذوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على ازعاجهم عنها ، لأن دمشق في طريقه ، وليس له طريق على غيرها لا اعتراض بلاد الفرنج في الوسط ، فقوي الفرنج بها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجيء الى دمشق ويجيبها من أهل البلد . ثم اشتد البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه صار إليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع انسان منهم يقال له مؤيد الدين بن الصوفي (٨٢) ، فلما كانت الامور بها هكذا ، خاف أهلها وأشفقوا من العدو ، فجأروا إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف ما بهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأنن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحب عباده إليه ، واحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود ، فحسن له السعي في ملك البلد والقاء في روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لأن صاحبه كان متى رأى شيئا من ذلك ، راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم . وكان ابغض الاشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقلمهم وليست له فكيف إذا أخذها وقوي بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فإن

- ٦٤٨٤ -

الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل الى اعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا وظهر له المودة حتى وثق اليه ، ثم صار يكاتبه في بعض الاوقات ويقول له ان فلانا - ويذكر بعض الامراء الذين لمجير الدين - قد كاتبنني في المخامرة عليك فاحذره ، فتارة يأخذ اقطاع احدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الامراء ، قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم ، وكان شهما شجاعا ، وفوض إليه امر دولته ، وكان نور الدين لا يتمكّن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : ان الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني ، واستبقيني فانه سيظهر لك ما أقول ، فلم يصغ إلى قوله وقتله ، فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في البلد ، فراسل أحداث البلد وزناطرتة واستمالهم ، فأجابوه الى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة أيام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الاموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين .

واما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الاحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي ، فدخله بالامان عاشر صفر * وحضر مجير الدين في القلعة ، وراسله وبذل له الاقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فاجاب الى تسليم القلعة فسلمها اليه وسار الى حمص .

ولما استقر نور الدين في البلد ، عمل مع اهله مكرمة عظيمة ، وظهر فيهم عدلا عاما سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند ذكر سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . والقى الاسلام بدمشق جرانه ، وثبت اوتاده ، وايقن الكفار بالبوار ، ووهذوا واستكانوا ، فصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين .

واما مجير الدين فإنه أقام بحمص ، وراسل أهل دمشق في إثارة

الفتنة ، فأنهاي الامر الى نور الدين ، فخاف إن يحدث مايشق تلافيه بل ربما تعذر ، لاسيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالاس فلم يرضها ، وسار عن الشام الى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى دارا مجاور المدرسة النظامية وتوفي بها .

ذكر القبض على سليمان شاه وحمله الى الموصل

في جمادى الأولى من سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين علي كوجك نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله الى الموصل فسجنه بها . وسبب ذلك ان سليمان شاه استأذن الامام المقتفي لأمر الله في قصد خدمته . وسأل ان يشرف ويخطب له ويمد بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب الى ذلك واذن له ، فسار الى بغداد فوصل اليها في المحرم سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، واحضر بدار الخلافة ، وجمع النقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه للخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد في المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الامير قويدان وجعل الامير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل عازما على قصد بلاد الملك محمد ، وخرج الخليفة الى حلوان ، وارسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخي سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه ألفا فرس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه ، وحلف كل واحد منهما الآخر ، وسيرهما في العساكر وقواهما بالاموال والعدد .

وبلغ الخبر الى الملك محمد ، فجمع عساكره ولقي سليمان شاه وملكشاه بقرب همذان وتصافوا ، فانهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما وماعهما وعادوا منهزمين الى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهر زور قاصدا نحو بغداد ، وكان الملك محمد قد أرسل إلى أتسبك قسطنطين الدين وزين الدين واستمالهما فأجاباه إلى موافقته ، وسار زين الدين نجدة له في عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وان سليمان شاه قد سار على شهرزور ، وهي لزين الدين ونائيه بها الامير بوزان ، فوقف زين الدين على طريقه ، فلما وصل اليه اخذه وقبض عليه ، وحمله ، إلى الموصل فحبسه بها مكرما معظما ، وكانت الخطبة له ببغداد .

في ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة ، سار الملك العادل نور الدين محمود الى قلعة حارم ، وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية فحصرها - وهذا الحصن غربي حلب بالقرب من انطاكية - وضيق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون واحصنها في نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها وبعد ، وساروا نحوه لمنعهم . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون الى قوله ، فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم ، وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطالبة وترك اللقاء . وقال لهم : ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطلقنا الامتناع عليه . ففعلوا ما امرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصنة من أعمال حارم ، فابى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية ، فأجابوه الى ذلك ، فصالحهم وعاد ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء ، من ابیات له فيها يقول « شعر » :

البست بين محمد يانوره
عزا له فوق السها أساد

- ٦٤٨٧ -

مازلت تمسكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد

لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد

إن المناير لو تطبيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد

ولئن حمت منك الاعادي مهلة
فلهم الى المرعى الوبي معاد

ملق باطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا خوض الردى
حاموا فرائس كيدهم او كادوا

ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة
حرما بحارم والمصاد مصاد

عجبا لقوم حاولوك وحاولوا
عودا فواتاهم اليه مراد

من مذكر أن يذسف السيل الربى
وأبوه ذاك العارض المداد

أو أن يعيد الشمس كاسفة السنا
نار لها ذاك الشهاب زناد

لا يذفع الاباء ماسمكوا من الـ
علياء حتى ترفع الاولاد (٨٣)

وهي طويلة .

في ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة ، أخرجت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر ، فإنهما خربتا بمرة ، وكذلك ما جاورهما كحصن بارين ، والمعرة وغيرها من البلاد والقرايا . وهلك تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وتهدمت الاسوار والدور والقللاع . ولولا أن الله من على المسلمين بذور الدين ، جمع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار

ولقد بلغني من كثرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحماة ، ذكر أنه فارق المكتب لهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فأخرجت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحديسأل عن صبي كان له في المكتب ، وأشباه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جدا .

ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولن كان قبل هذا الوقت الذي ملكه نور الدين فيه ، فنقول : هذا الحصن قريب من حماه ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها ، على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل ، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه ، وكان لآل مذقذ

- ٦٤٩٠ -

ولاناسيا ماأودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا

ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانیا

وكننت هجرت الشعر حيناً لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا

وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانیا

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وزماميا

ويجزئهم مالم أكلفه فعله
لنفسى فقد أعدته من تراثيا

فمالك لما أن حنى الدهر صعدي
وؤلم مني صارما كان ماضيا

تذكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتنائيا

فاصبحت صفر الكف مما رجوته
أرى الياس قد عفى سبيل رجائيا

على أنني ماأحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي السذون ودائيا

- ٦٤٩١ -

فلا غرو عند الحادثات فأنني
أراك يميني والآنم شماليا

تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بدر من صفاتك زانها
كما زان منظوم اللالي الغوانيا

وعش بانيا للجود ماكان واهيا
مشيدا من الاحسان ماكان هاويا

وكان الامر فيه في حياة الامير مرشد بعض الستر ، فلما مات
سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن ،
وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الايام بينهم إلى أن قوي عليهم
فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الاسباب في إخراجهم ، ماحدثت
به عن مؤيد الدولة اسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة
والأقدام على ماقدعلمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذ قد أتاني
انسان ، فأخبرني أن برمله ، يقاربها ، أسدا ضاريا . قال : فركبت
فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لاقتله ، ولم أعلم أحدا من الناس
لئلا أمنع من ذلك ، فلما قربت من الأسد ، نزلت عن فرسي وربطته
ومشيت نحوه ، فلما رأيته قصصني ووثب على ، فضربتة بالسيف
على رأسه فاندلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي
وعدت الى شيزر ، وبخلت على والدتي والقيت الرأس بين يديها
وحدثتها الحال ، فقالت : يا بني تجهز للخروج من شيزر ، فدواله
لايمكنك عمك من المقام ولا أحدا من أخوتك ، وأنتم على هذه الأحوال
من الأقدام والجرأة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من
عنده ، والزمننا به الزاما لامهلة فيه فتفرقنا في البلاد . فقصدوا الملك

- ٦٤٩٢ -

العدل نور الدين ، وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده
والاخذ بثأرهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ،
ولخوفه من أن يسلم شيزر الى الفرنج ، وبقي في نفسه منه أثر .
وتوفي الامير السلطان وولي بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم
مراسلة الفرنج ، فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت
القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن ، فبادر إليها
وملكها و اضافها الى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وإعادها كأن
لم تخرب . وكذلك ايضا فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه
الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت .

ذكر وفاة عز الدين الديبسي وحصر الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، توفي الامير عز
الدين أبو بكر الديبسي صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين
أتابك مودود ابن الشهيد إليها ، ظنا منه أنها لا تمتنع عليه ، لأنها
كانت بيد الديبسي إقطاعا منه ، فلما وصل إليها رأى أنه قد تغلب
عليها ملوك الديبسي اسمه أغلبك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا
بالمدينة ، وكان الديبسي لم يخالف ولدا ، فلهذا تغلب بعده . وأقام
أتابك قطب الدين محاصرا للمدينة عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من
قدرها بالاسراع في ملكها ، ثم تسلمها وترك بيد أغلبك القلاع
المختصة بها وهي : كواشي (٨٥) ، والزعفران ، وفرح ، وجميع
قلاع الزوزان وغيرهما . وعاد أتابك الى الموصل بعد الاستيلاء على
الجزيرة ، وكان الديبسي من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك .
حكى لي والدي ، أنه لم يضع علامته على إطلاق مال أبدا قل أم
كثر . وكان عاقلا حازما ، ذا رأي وكيد ومكر .

ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد

في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود الى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى أتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه ان ينجده بارسال العساكر . فجهز إليه عسكرا كثيفا ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه في جميع بلاده وسيرهم اليه . واجتمعوا بالملك محمد بذواحي حربي ، وساروا في الجانب الغربي الى بغداد فوصلوها في ذي القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتفي لامر الله ، فأمر بإخرا ب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمي ، ونهب أصحابه ما وجدوا في الدور من الأموال والأثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، والتوتة ، وباب الميدان ، وقطفتا (٨٧) ، ولم يتعرض أحد للكرخ وباب البصرة ، وخرج أهلها إلى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الأموال الكثيرة . وجد المقتفي لامر الله في حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسرا على دجلة ، وعبر أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربي ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال في الماء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين الا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيرا ، وأمر المقتفي لامر الله فذودي ببغداد : من جرح فله خمسة دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئا ، فعاد إلى القتال فضرب في جوفه فخرجت أمعاؤه ، فعاد إلى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عالج .

- ٦٤٩٤ -

ولم يزل الخليفة يراسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته في القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضا ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الاطراف المجاورين للملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف مايليه منها ، فتحرك أصحاب الاطراف .

وكان قد طال المقام على بغداد ولم يزل الملك محمد منها غرضاً ولاغلاً بها سعر ، لان الوزير كان يعطي الاجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها لينفقوا ثمنها ، فكانت الاسعار لاتزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن أخاه ملكشاه قد قصد همدان ودخلها في عسكر كثير ونهبها ، وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا وعاد الملك محمد نحو همدان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل امير الى بلاده على عزم العود الى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا وأخروا العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

ذكر وفاة المقتفي لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلة التراقي . وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد تدعى ياغي ، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهرين .

ولما توفي جددت البيعة لولده أبي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله وكان قد عهد اليه قبل وفاته ، وبايعه الامراء ، والقضاة ،

والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب الى الآفاق باخذ البيعة له فلم
يمنتع أحد من ذلك ، وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

في ذكره مسير سليمان شاه الى همذان

في أوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الأمراء
الأكابر من بلاد الجبل الى أتابك قطب الدين ، يطلبون منه إنفاذ الملك
سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت الرسل في ذلك
حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانا ، وقطب
الدين أتابكه والمرجع إليه في جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ،
وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه ،
وحمل إليه أتابك قطب الدين من الأموال والثياب والخيل والآلات
ما يصلح للسلطين ، وسار معه زين الدين في عسكر الموصل نحو
همذان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان
شاه أرسالا ، كل يوم يلقاه طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر
عظيم ، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل أيضا ، لأنه رأى
من تسلطهم على السلطان واطراحهم للأدب ما أوجب الخوف ، فعاد
عنه الى الموصل . فحين فارقه زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له
ما أراد .

حكى لي والدي قال : استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير
سليمان شاه ، وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعدود الى
الجزيرة وتقطع علائقك وتقضي أشغالك ، فإنني أريد أن أجعلك
نائبى بالعراق ، قال : فسرني ذلك من وجه وسأني من آخر ، الا
انني لم ار من طاعته بدا ، قال : ثم استدعاني بعد ذلك ، وقال لي :
عد الى بلدك ، فان سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقه وعدت .

وفيهما اعنى سنة خمس وخمسين ، حج زين الدين نائب قطب
الدين ، وحذره اصحابه من الحج لاجل مساعدة الملك محمد في حصر

بغداد ، فلم يلتفت الى قولهم وسار ، فلما وصل بغداد اكرمه الخليفة المستنجد بالله ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة - وكان هو قصير جدا - فمد يده الى كمرانة وأخرج ما شد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم ، فلما نخل عليه قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد ان حادثه بالتركية - وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيدا - فلما خرج نظر اليه المستنجد من شباك ، وكان زين الدين قد أخرج شيئا من السيف الذي أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيدا وهو يومئذ برأسه - يعني انه غير جيد - فأرسل إليه سيفا آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس في الطريق ، وأكثر الصدقات .

في حصر نور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتالها ، فامتدعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، وأعدوا وأستعدوا ، وساروا وتلطفوا الحال معه . فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

وممن كان معه في هذه الغزوة ، الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ - وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها - فلما عاد الى حلب ، نخل مسجد سيرين - وكان قد دخله

- ٦٤٩٧ -

في العام الماضي سائرا الى الحج - فلما بخله الآن ، كتب على
حائطه ، يقول : شعر

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لا يحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الاجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأبيت مفروضي واسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

في ذكر انهزام نور الدين بحصن الاكراد وما جرى له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين
محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها وبخل بلاد الفرنج ، فنزل
بالبقية تحت حصن الاكراد - وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم
ومنازلة طرابلس فبينما الناس في بعض الايام في خيامهم وسط
النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه
الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة
المسلمين في النهار لأنهم يكونوا أمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر
بذلك (٨٨) المسلمين الا وقد قاربوهم ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا
ذلك ، وارسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر ، فرهقهم الفرنج
وأخذوهم بين ايديهم ، فوصلوا معاً إلى العسكر النوري ، فلم
يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم ،
فكان أقصى رأيهم الانهزام ، ووضع الافرنج فيهم السيف وأكثروا

القتل والأسر ، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محدّسين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا خيام الملك العادل نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء فركب فرسا هناك للذوبة ، ولسرعته ركبه وفي رجله شبة ، فنزل انسان من الاكراد فقطعها ، فنجا نور الدين وقتل الكردي ، وكان أكثر القتل في السوق والغلمان ، ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن اليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين الى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس (٨٩) على فرسخ من حمص ، وبينهما وبين مكان الواقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لا يظنون إنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله اشجع من ذلك وأقوى عزما .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع اليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه واسكته وقال : اذا كان معي الف فارس لا ابالي بهم قتلوا أم كثروا والله لا استظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والاسلحة والخيام وسائر ما يحتاج اليه الجند فأكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وأما من قتل أو أسر فإنه أقر اقطاعه على اولاده ، فإن لم يكن ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه احد . وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد اليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم في يوم واحد مائتي

ألف بينار حمر ، سوى غيرهما من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم الى بيوانه ان يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ومهما ذكر شيئا أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم الدواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فarsلوا الى نور الدين ينهون اليه القصة ، ويستأنذوه في تحليفه على ما ادعاه ، فأعاد الجواب : لا تكذبوا عطاءنا بالاذى ، فاني أرجو الثواب والاجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : ان لك في البلاد ادرايات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله لا أرجو النصر الا بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضغفائكم ، كيف اقطع صلوات قوم يقاتلون عني وانا في فراشي بسهام لا تخطيء ، واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رأيته بسهام قد تخطيء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم ، كيف اعطيه غيرهم ، فسكتوا .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

هكذا هكذا والا فلا لا .
ثم ان الفرنج ارسلوا الى نور الدين في المهانة فلم يجبههم اليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

في ذكر القبض على جمال الدين الوزير ابن علي الاصفهاني

في هذه السنة أيضا ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني . وكان قد خدم الشهيد فؤاد نصيبين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية

وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيما لأمزيد عليه . فحكى لي والدي ، قال : أرسلني دزدار الجزيرة الى الوزير ضياء الدين الكفرتوتى - وهو وزير الشهيد والحاكم في بلاده قبل أن اتصل أنا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه - يقول له : قد بلغني أن جمال الدين يقصدني ويريد أن يعزلني ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابكما ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لي : ماسمعت من جمال الدين شيئا من هذا عند أتاك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدي ، فلم أعلم ما يكون منه . ولم يزل كذلك الى أن قتل الشهيد ، وكان منه ما قد تقدم ذكره في حفظ الدولة ، ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهد وموathيق على المصافاة والاتفاق ، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم ، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأنا لكل خائف ، فسعى به الحساد إلى أتاك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاهه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومواخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لأن خواص أتاك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض انبسطوا في الامر والنهي على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى نيار مصر

في سنة تسع وخمسين وخمسائة سار أسد الدين شيركوه بن شاذي - وهو من أكابر الأمراء النين في خدمة الملك العادل نور الدين محمود - الى النيار المصرية عازما على ملكها واستضافتها الى المملكة النورية .

ونحن نبتدىء قبل مسيره وماكان منه ، بذكر حاله وتنقله
واتصاله بالخدمة الذورية ، فذقول : كان أسد الدين شيركوه وأخوه
نجم الدين أيوب - وهو أكبر أبناء شاذى - من بلد دوين ، وهي
بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم (٩٠) وأصلهما من
الأكراد الروائية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدموا العراق
وخدموا مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فرأى من نجم الدين
عقلا ورأيا وحسن سيرة فجعله دزدار تكريت ، وهي له ، فسار
إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك الشهيد رضي الله عنه
بالعراق من قراجة الساقى على مذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ،
فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبّر دجلة هناك وتبعه
أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ثم إن أسد الدين
قتل انسانا بتكرت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه
وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتابك الشهيد ،
فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما ، واقطعهما اقطاعا حسنا ،
وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين
دزدارا فيه ، فلما قتل الشهيد حصره عسكر دمشق ، فأرسل إلى
الملك سيف الدين غازي - وقد قام بالملك بعد والده - ينهي الحال
إليه ويطلب العسكر ليرحل صاحب دمشق عنه ، وكان سيف الدين في
ذلك الوقت في بداية ملكه ، وهو مشغول باصلاح السلطان وأصحاب
الاطراف الذين يجاورونه ، فلم يتفرع لبعلك ، وضاق الامر على من
بها من الحصر ، فلما رأى نجم الدين الحال ، وخاف ان تؤخذ قهرا
وعذوة ويناله أنى ، أرسل في تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره
فأجيب الى ذلك ، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسلم القلعة ، ووفى
له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء ،
واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة الذورية بعد قتل
الشهيد - وكان يخدمه في أيام والده - فقربه نور الدين واقطعه ،
ورأى منه في حروبه ومشاهده اثارا يعجز عنها غيره لشجاعته
وجرأته ، فزاده اقطاعا وقربا ، حتى صار له حمص والرحبة
وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

- ٦٥٠٢ -

فلما تعلقته الهمة النورية بملك دمشق ، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين ايوب - وهو بها - في ذلك ، وطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب الى مايراد منه ، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرهما ، فبذل لهما ماطلب منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، الا نجم الدين ، فإنه كان إذا بخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك .

فلما كان هذه السنة وعزم نور الدين على ارسال العساكر الى مصر ، لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين فسيره . وكان سبب ذلك أن شاوور السعدي - وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر - عزل من الوزارة ، فسار الى الملك العادل نور الدين ، فوصل إليه وهو بدمشق ، والتجأ إليه واستجار به ، فأحسن لقاءه وأكرم مذاواه ، واذعم عليه انعاما غمره به . وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمس مائة ، وطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره ، ونور الدين يقدم في ذلك رجلا ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاوور .

(بابه) وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الافرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج، ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه ، وكان هو أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة ، فتجهز وسار مع شاوور في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وأمره نور الدين بإعادة شاوور الى منصبه ، والانتقام ممن نازعه في الوزارة ، فساروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام مماليك الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظن نور الدين صحيحا ، فصار الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل

أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدربه شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام . فأنفذ أسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر ، فلم يجبه شاور إليه . فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمددهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون ، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلب أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحتسبوه . وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته ، وطمعوا في ملك نيار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه ، فتجهزوا وساروا ، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره إلى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقيين إلى مصر ، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به ، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع بها أسد الدين ، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يغالبهم القتال ويراهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا . فبينما هم كذلك ، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ سقط في أيديهم ولات حين مناص ، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها الا وقد ملكها على ما ذكره إن شاء الله تعالى وراسلوا

أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ، فاجابهم الى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل ، فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس ، قال : رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم ، وبيده لث حديد يحمي ساقاتهم ، والمسلمون والفرنج ينظرون . قال : فأتاه افرنجي من الفرنج الغرباء ، فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء - المسلمون والفرنج - وقد أحاطوا بك فلا يبقى لك معهم بقية . فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله ، كنت والله أضع السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل رجلا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين - وقد ضعفوا وفني أبطالهم - فيملك بلادهم ويملك من بقي منهم ، والله لو أطاعني هؤلاء - يعني أصحابه - لخرجت إليكم أول يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلب الأفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ، ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والان فقد عذرناهم . ثم رجع عنه ، وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما .

في ذكر فتح حصن حارم من الأفرنج

في هذه السنة في رمضان ، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الأفرنج ، والسبب في هذا الفتح ، أن نور الدين لما عاد منهزما على ما ذكرناه قبل ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثأره ، وغزو العدو في عقرب داره ، وليرفو ذلك الخرق ، ويرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة الوهن ، ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين ألبى بماربين وغيرهم من أصحاب الاطراف يستنجدهم .

فاما قطب الدين أتابك ، فانه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه ، واما فخر الدين قرا أرسلان فبلغني

عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ، فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقى نفسه والناس معه في المهالك . فكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له أولئك : ما عدا مما بدا ، فارقناك بالامس على حال بدا الآن ضدها ؟ .

فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا ، إن لم أنجده ، خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم مآلقي المسلمون من الفرنج ، وما نالهم فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنوني ويدعون علي ، فلا بد من إجابة دعوته ، ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سير عسكريا ، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم ، في كل بسطل بسلاحه شاكي ، واشددة المراس غير شاكي ، (كما) يقول (الشاعر) :

في كل أروع يرتاع المذنون له
إذا تجرد لانكس ولا جهد

يكاد حين يلاقي القرن من حنق
قبل السنان إلى حوبائه يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس (٩١) ، وكل منهم في بيض الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس ، وأشرقت عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتلألأت الآفاق ، ونزل عليها وحصرها ، وأطار إليها من القسي والمجانيق سهامها وحجرها .

وبلغ الخبر إلى الفرنج من بقي منهم بالساحل لم يسر إلى مصر ،

فجاءوا في حدهم وحديدهم ، وعددهم وعيديهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى أرباب الصوامع ، ولم يشعروا إنهم رزق الذئب والخواصع ، وأقبلوا إليه رجالا وعلى كل ضامر ، في كل قرن مساور وبطل مهاصر ، وقد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبطال ، فهم لكثرتهم من كل حذب يذسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين - وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، والدوك - وهو رئيس الروم ومقدمها - وجمعوا معهم من الرجال مالا يقع عليه الاحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرض نور الدين أصحابه ، وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الاموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم الى أرتاح ، وهو إلى لقائهم قد أرتاح ، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على « عم » (٩٢) ، وهو على الحقيقة تصحيف مالمقه من الغم ، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا الى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وحلت اليهم كل وهن وضير ، فلما عادوا عن « عم » تبعهم نور الدين في عساكر المسلمين ، وأبطال الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وتهيأوا للنزال ، وتدانى الخطى ، وكشف الغطا ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا إلى الفرار وكانت تلك الفرقة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبق من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون اليه ، ولا ورا يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون في آثارهم ، يكسعون أدبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيجعل لهم بوارهم وحترفهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ما قدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين في عسكر الموصل على

راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يمعذوا في الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفـرين ، وبـدمائهم مـضرجين فسـقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون اعنتهم ، وعادوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقى العدو في الوسط وقد أهدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمي الوطيس ، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من ايس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل وعمل الدسام ، وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضا الصقور على أناث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، والقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فأكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم مناهل الفناء والهلك ، فزادت عدة القتل على عشرة الاف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس بيمند صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسارنور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لاتؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بيمند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا (٩٣) وغير ذلك وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب انطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

في ذكر خبر الواقعة التي جرت في حرب قلعة حارم

قال صاحب التاريخ : وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد - رحمه الله - لما كسرت ميسرة عسكره ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : يا الهي وسيدي ومولاي ، من محمود عبدك ابن زكري بن اقسنقر حتى لا تخذله ، إن تنصره تنصر بيذك الذي أظهرته لنبيك الذي أرسلته ، استجب دعائي ، وأحسن من قلبي ومثواي ولا تشمت بي أعدائي ، ولم يزل متضرعا باكيا ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجري على خديه ، الى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم . ومن عجائب الاتفاق ، ما جراه كمال الدين ابن العديم في كتاب « اخبار حلب » أن الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقرئ أخبرني ، قال : كنت الم بعلم الدين سليمان بن جندر ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وجالست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية - داية الشهيد رحمه الله - وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهي في أيدي الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم ويعطيني إياها نيابة . فقال صلاح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها . ثم قال : تمن أنت أيضا بما تريد ، قلت : يا مولاي ، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين صاحب حارم ، ما أضيع بينكما . فقالا : لابد أن تتمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولا بد من ذلك ، فأتمنى « عم » (ويبينما) نحن في الكلام - والله تعالى قاض بما أراد في حكمه - فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الفرنج وفتح حارم ، وأعطاهما مجد الدين بن الداية ، وأعطاني قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، أسد الدين شيركوه الى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على ما نذكر إن شاء الله تعالى

- ٦٥٠٩ -

لرحمن في وقتله ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق والكرك ،
واليمن ، وبلاد الشرق وعارض الملوك والسلاطين ، وحاصر
القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الاجناد ، وهذه الجراكسة التي هي
اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين ، ممالك نسل
وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبي
المعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، أبو
الملوك الأيوبية . (٩٤)

وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال
الدين محبوسا . وكان له نحو سنة مريض فمضى لسبيله .

وكان عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير في
سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتسعت
نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم
الفتوة ، كامل المروءة ، وسيرد من أخباره ماتعلم منها صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم - وهو رجل من
الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه - قال : لم يزل
جمال الدين مشغولا بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت
أخشى أن انقل من الدست الى القبر . قال : فلما مرض ، قال لي
بعض الايام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار
فعرفني ، قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد ،
أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد
سقط ، فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق وأقبل
على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطائر ،
قال : فعلمت أنه رأى شيئا في معناه . ودفن بالموصل نحو سنة .
وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : أن بيني وبين أسد الدين شيركوه

- ٦٥١٠ -

عهدا ، من مات منا قبل صاحبه حملة الحي إلى المدينة على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامت فامض إليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في المعنى ، فاعطاه مالا صالحا ليحملة به الى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلاد للصلاة عليه ، ففعلوا ذلك ، فكان يصلى عليه في كل مدينة خالق كثير ، فلما كان بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعا يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونايله

يمر على الوادي فتثني رماله
عليه وبالنادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضا . ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعا .

في ذكره شيء من اخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال ، رحيمًا بالناس متعطفًا عليهم ، عادلا فيهم ، فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالا جزيلة عظيمة وبني الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والذقرة ، فكل ما فيها من ذلك ، فهو عمله

- ٦٥١١ -

إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الامام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أنن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى ابن أبي هاشم ، خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه .

وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج التي يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم .

وعمل بعرفات مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نعمان (٩٥) في طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالا كثيرا ، وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا ليتروا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التي عملها دفعا ، أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان أهلها في ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة أنسانا يصلي الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا في ضر وضيق ، ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا مايواري عورته ، ولا مايشبع جوعته ، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يربينا بسوء ، فاستغنينا فكيف لاندعو له وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرا ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها .

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء سوى الادارات والتعهدات ، قال : كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلهما ، الجسر الذي بناه

وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرنى الشيخ وقال لي : إنطلق إلى مسجد الوزير - وهو بظاهر الموصل - واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحماليين يحملون أحمالا من النصافي والخام ، وإذا جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير من الجمال ، فقال لي : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي توصل (إليه) هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى ما في هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلي بها على ما في هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري - والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادي - فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له ، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا ،

وحكى لي والدي ، قال : رأيت جمال الدين بالركة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيرا وطلب شيئا ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب الكلاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلع ودفقة إلى ماردين ، ولو رمت شرح مفرجات أعماله لأطلت واضجرت وهي ظاهرة لاتحتاح إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

ذكر فتح قلعة بانياس

في سنة ستين وخمسمائة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجدا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة الممانعين عنها ، ونازلها وضيق عليها وقتلها ، وكان في جملة عسكره أخوه نصر الدين أمير أميران (١٤٦ - ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت زهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء بانياس - وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان - فلما أبعاد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهذئه بهذه الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر :

إن يمتد الشكاك فيك بانك المـ
—هدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل(٩٧) الذي أضلته
بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية
ردت مطال الفال غير مطال

- ٦٥١٥ -

لم يعطها إلا سليمان وقد
نلت الرباء بموشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه
كسريه عن كل حد عال
فلو البحار السبعة استهوينه
وأمرتھن قذفنه في الحال (٩٨)

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنر - الذي سلم بانياس
إلى الفرنج - قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا
الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن اليوم
برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمس مائة ، سار نور الدين إلى حصن
المنيطرة (٩٩) - وهو أيضا للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع
عساكره ، إنما سار على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع
العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهاز الفرصة وسار إلى المنيطرة
وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عذوة وقهرا ، وقتل من بها وسبى
وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم
لا يشعرون) (١٠٠) ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا
وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه
في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمس مائة ، عاد أسد الدين
وسار إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لا يزال يحدث نفسه

بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق إليه . وكان مما يهيج على العود ، زيادة حقه على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد إطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالحيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر الذوري ، فجدوا على الاسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر الذوري قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه ، فادركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه ، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر ، الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا - وهو الذي لا شك فيه - فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدونا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس - قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم - أن ترتاع من عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المماليك الذورية يقال له شرف الدين بزغش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوكة ، بل يكون فلاحا أو في بيته

مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر
تعذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه
منه مذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال
المسلمين وتفرقون من عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية
تتصرف فيها الكفار ، فقال اسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ،
ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم كثر المواقفون لهم على
القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه
المصريون والفرننج وهو على تعبئة ، وقد جعل الاثقال في القلب يتكثر
بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبا أهل البلاد . ثم
إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولئن معه : إن
الفرننج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم
بإزائه وحملتهم عليه ، فاذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال
ولا تهاكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم
فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم
ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل
الطائفتان ، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا
منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم
فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من
الذين حملوا على القلب - من المسلمين والفرنج - فهزمهم ووضع
السيف فيهم فأخذ الجراح ، وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون .
فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان
المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضا .
وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر
وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الاسكندرية

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر
الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرايا والسواد من الأموال ،

- ٦٥١٨ -

ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه .
فاستتاب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبى
أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

وأما المصريون والفرننج فإنهم عادوا الى القاهرة وجمعوا
أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا
وساروا إلى الاسكندرية - وبها صلاح الدين - في عسكر يمنعونها
منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل
الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم - وكان شاوور قد
أفسد بعض من معه من التركمان - ووصلته رسل المصريين
والفرننج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما
أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى ذلك . وشرط أن الفرنج لا يقيمون
بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية تعاد إلى
المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل
دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وتسلم المصريون الاسكندرية في
النصف من شوال .

وأما الفرننج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم
بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل
نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون للفرننج من دخل مصر كل
سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجري بين الفرنج وشاوور . وأما
العاقد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من
ذلك ، قد حكم شاوور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ،
وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على
القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاوور راسل الملك العادل نور الدين مع
شهاب الدين محمود الحارمي - وهو من اكابر أمراءه ، وخال

- ٦٥١٩ -

صلاح الدين يوسف - ينهي محبته وولائه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمل كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقي الامر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازي

في هذه السنة عمى الامير غازي بن حسان المذبجي (صاحب مذبج) بها على نور الدين - وكان هو اقطعه إياها - فأرسل إليه نور الدين عسكريا حصروه بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقي بها إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية فخر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين علي بن بكتكين ، نائب أتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلع إلى أتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلع الهكارية جميعها ، وكان نائبه بتكريت الامير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت ، ولا بد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاqqته لاجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الامير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة أتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل

إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعت قوته ، وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا محافظا على حسن العهد وإداء الأمانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان إذا وعد بشيء لا بد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الاحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بنخب فرس ذكر أنه ذفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك النخب أيضا غيره من الاجناد وأحضره وذكر أنه ذفق له رابطة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك النخب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون مني كما استحي منكم ، قد أحضر هذا النخب عندي إثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل احدكم ، أتظنون أنني لا أعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلحكم عطائي بغير من ولا تكدير ، فلم تتركوني ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم في شأنه :

ليس الغبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتغابي

وكان يعطي كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخاف شيئا ، بل أنفذ جميعه في العطاء والانعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي إليه من سكين ، ودرفش ، ومطرفة ، ومسلة ، وخيوط ، ودسترك (١٠١) وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون النقيبة لم تهزم له راية ، وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبني مدارس وربط بالموصل وغيرها ، بلغني أنه مدحه الحيص بيص ، فلما أراد الانشاد قال له : أنا لا أدري ما تقول ، لكنني أعلم أنك تريد شيئا ، وأمر له بخمسائة دينار وأعطاه فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها .

- ٦٥٢١ -

ولما توفي كان الحاكم باربل خادمه مجاهد الدين قايمان والمتولي لامورها ، وولي بعدد زين الدين ولده الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فارقها ، لخلف كان بينه وبين مجاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستتاب أتابك قطب الدين بالقلعة بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فكرهه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه ، وسيجيء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي ، فكانت بيده ويد أبائه قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهي من أمتع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات ، لايطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصيد ، فاخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله بحلب وأحسن إليه ، ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل أيضا ، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفروا منها بشيء ، فامدهم بعسكر جرار ، وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية - وهو رضيع نور الدين ، وهو واحد

امرائه - فحصرها ايضا فلم ير له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحه التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لاحصن فيه ، وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما اخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بني مالك ولكل أمر أمم ، ولكل ولاية نهاية ، (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) (١٠٢) (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (١٠٣) بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام (أم) القلعة ؟ فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقتاه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة وملكها وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الاول من سنة أربع وستين أيضا ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى بيار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا ، فنال المسلمين منهم اذا شديدا ، وجورا عظيما ، وقهرا زائدا ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرى » ولم يكن ملك الفرنج مذكرا خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبههم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي أننا لانقصدها فإنها طعمه لنا ، وأموالها تساق إلينا نثقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لملكها ، فإن صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلاده

وفلاحيتها لا يسلمونها إلينا ويقاقلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتنمى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين (بذلك) كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر ، وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لماكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقتضي أمرا كان مفعولا ، وكان شاور قد أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوما ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب بيار مصر إلى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتدقنهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولي أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى أعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبة القديمة ، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد ، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لثلاثين ألف دينار إلى نور الدين ، فاجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فاجابوا كارهين ، وقالوا : نأخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من الرجال ونعود إلى البلاد بقوة لاذبالي معها بذور الدين ولا غيره ، (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٠٤) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريبا .

وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بالقي المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خاسارجا عن الثلث الذي لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص - وهي إقطاعه - فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها ، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضا وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والالات والأسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختر من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلها سلخ صفر ، ورجلا في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر النين مع

أسد الدين عشرين ديناراً معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذي له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جـربـيك ، وعز الدين قليج ، وشرف الدين بزغش ، وعين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال بن حسان المذبحي ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، (وعسى أن تكررهم شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (١٠٥) ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه نهباب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ، وسيرد ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجداً من رأس الماء منتصف ربيع الأول ، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم نور الدين فسر ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشراً به ، والحق بيده ، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها ، واجتمع بالعاقد لدين الله ، فخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاوَر المنع عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاقد معهم من داخله فلم يتجاسر على إظهار مافي نفسه فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والاقطاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعدده ويمنيه ، (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (١٠٦) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال له : والله لئن عذمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين ، فقال أبوه : لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً ، فقال : صدقت ، لئن ذقتل ونحن

مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ،
وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ،
وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا
ويملكون البلاد ويظهرون الفساد ، فتترك ما كان عزم عليه فلما رأى
العسكر المطل من شاور ، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين
جريدك وغيرهما على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم ،
فقالوا : إننا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله ، فأذكر
ذلك ، فاتفق أن بعض الايام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي
رضي الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقى
صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جريدك ومعهما جمع من العساكر ،
فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : نمضي اليه ،
فسار وهما معه قليلا ، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه
فأخذ أسيرا ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه في خيمة
وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه إلا
إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت
إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحدثه على قتله وتابع الرسل
بذلك ، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الآخر ، وحمل
رأسه الى القصر ، وبخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة
الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد
أمركم بنهب دار شاور ، فقصدوا الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ،
وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك
المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة - وهي التي كان فيها
شاور - فلم ير فيها ما يقعد عليه ، واستقر في الامر وغلب عليه ،
ولم يبق له منازع ولا مناوئ ، وولى الاعمال من يثق إليه واستبد
بالولاية ، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها .

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) (١٠٧) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه ممن يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنجة ، أتاه أمر الله الذي لا محيد عنه ولا مفر منه ولا يحتمي عليه ملك بكثرة رجال ، ولا يمنع عنه المعازل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب ابن شاذي ، قد سار معه على كره منه . حكى لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرني وأعلمني الحال ، وقال : تمضي إلى عمك أسد الدين بضمص مع رسولي إليه ، تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم أولا وعدم ما ينفقه في العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بذنبي إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال : فالتفت إلي عمي أسد الدين ، وقال : تجهز يا يوسف قال : فكانما ضرب قلبي بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبدا ، فقال عمي لنور الدين : لا بد من مسيره معي فترسم له ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله ، فأنقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت

إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به فكانما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينة ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطاني الله من ملكها مالا كنت أتوقعه . هذا حكى لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الامراء الذورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم : الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل - وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل - ومنهم : سيف الدين علي بن أحمد الهكاري - وجده كان صاحب قسلاص الهكارية - ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمي - وهو خال صلاح الدين - وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويؤليه الامر بعد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين - وليس له عسكر ولا رجال - كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض خرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين « أريد عمرا واراد الله خسارجة » (١٠٨) فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزمه به وأخذ كارها ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » ، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة ، الجبة والعمامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لأنفسهم ولاخدموه ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الامر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الامر له ، فلا تكن

أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعد وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا ، وعدل إلى عين الدولة الياروقي - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا - فلم تدفعه رقاها ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأذكر عليهم فراقه ، وقد فات الأمر (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) ، (الأنفال (١٤٢)) ، وثبتت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره ، وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار ، ويكتب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرد في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخرج به فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والاثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حذفه بظلمته ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلما أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضر كحينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم مقامي ، وتخدمه بنفسك كما تخدمني ، فسر إليه وأشد أزره وساعده على ما هو بصده . فقال : أفعل معه من

الخدمة والطاعة مايتصل بك (خبره) إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

ذكر حصر الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الافرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الافرنج الذين بالاندلس وصدقية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر ، (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) (١٠٩) .

فلما نازلوها حضروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والنخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الافرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ، ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وساروا من خلفه والافرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الافرنج تتابع العساكر إلى مصر ، وبخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخربها ، رجعوا خائبين لم يظفروا

- ٦٥٣١ -

بشيء ، وهذا موضع المثل : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا
أذنين . فوصلوا إلى بلادهم فأوها خاوية على عروشها ، وكان مدة
مقامهم على دمياط خمسين يوما ، أخرج فيها صلاح الدين أموالا
لاتحصى ، حكى لي عنه أنه قال : مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل
إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري ، سوى
الثياب وغيرها .

ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن
الكرك في رجب . وكان سبب حصره ، أن نجم الدين أيوب والد
صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر ، وسير معه نور الدين
عسكرا ، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أذنس
وموثة مالا يعد ، فخاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ونزل
عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور
الدين على الكرك المجانيق ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا
وساروا إليه وأن ابن الهذفري ، وفيليب بن الرقيق - وهما فارسا
الفرنج في وقتهم - في المقدمة إليه ، فرحل نور الدين نحوهما
ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق ، بهما باقي الفرنج ، فكانا في
مائتي فارس والفرنج تركبلي ومعهم من الراجل عالم كثير ، فلما
قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور
الدين الشام في وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه إلى أن
وصل الشام فنزل بعشترا (١١٠) وأقام ينتظر حركة الفرنج
ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه ، وأقام هو حتى أتاه
خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل .

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضا في ثاني عشر شوال ، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلاً عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وبيار الجزيرة ، والموصل ، والعراق وغيرها ، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشييزر ، وبعرين ، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحد والاحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر ، سار إلى بعلبك ليعمر ما أنهدم من أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب بعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماه ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكّل بالعمارة من يحدث عليها ليلاً ونهاراً . وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ ، وكانوا لا يقدرون على أن يأووا إلى بيوتهم السائلة من الخراب خوفاً من الزلزلة ، فانها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها ، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال ما لا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده .

ذكره غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب

- ٦٥٣٣ -

قلعة البيرة ، وقد سار في عسكره - وهم مائتا فارس - إلى الخدمة الذورية وهو بعشتر ، فلما وصل إلى اللبوة - وهي من أعمال بعلبك - ركب متصيذا ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد القتال ، وصبر الفريقان لاسيما المسلمون ، فان ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر ، فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به . قال تعالى : (ولو تدوا عدتم لاختلفتم في المعياذ ولكن ليقضي الله امرا - كان مفعولا) (١١١) . ثم إن شهاب الدين سار بالاسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤوس القتلى ، فرأى فيها رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد ، وكانت الافرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولانه شجا في حاووق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداد سروره ، (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (١١٢))

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد
زنكي بن أقدسذر رضي الله عنه وملك ابنه سيف
الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسماية ، توفي أتابك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي بن أقدسذر رضي الله عنه بالموصل ، وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي - وهو أكبر أولاده وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لانه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم

- ٦٥٣٤ -

كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الامور ، فضاف فخر الدين أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش - زوجة قطب الدين - فردوه عن هذا الرأي ، فلما كان الغد أحضر الامراء واستدلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون واسع الجبهة ، جهوري الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا .

ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيًا مستنصرًا ، وكان فخر الدين هو الذي يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فانه كان في عذفوان شبابه وغرة حادثته .

حادثة تحت على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالمسوح منها لا يحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين .

فحكى لي والدي قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلي فيه على ما شوهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ، قال : فشق ذلك علي لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لاتظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء

للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب
يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن
نطلق لك ما يكون عليه ، قال : فأظهرنا الأمر ، وشرع الذواب
يمسحون ، وكان بالعقمة رجلان صالحان وبينني وبينهما مودة ،
اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا
من هذه الحال ، وسألاني المكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب
فخر الدين جوابا عن كتابي ، فشكراني ثم قالوا : وأيضا تعود
تراجعه . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتتهما الحال .
قال : فلما مضى عدة أيام ، عدت يوما إلى داري راكبا ، وإذا هما قد
صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجا لهذين الشيخين ، قد
رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه . قال : فسلمت
عليهما وسلمنا علي ، وقلت لهما : والله إنني أستحي مذكما كلما
جئتما في هذا الامر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ،
ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد
أرسلا إلى الموصل من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ،
وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن
رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت
حاجة أهل العقمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة
أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة
صدريهما ، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك
فيه . قال : فلما كان بعد أيام قد وصل قاصد من الموصل بكتاب
يأمر فيه بإطلاق مساحة العقمة ، وإطلاق كل مسجون وبالصداقة .
فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال :
فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا ، ورأيت
والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضي
أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين رضي الله عنه

كان رحمه الله ورضي عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محدسنا إليهم كثير الانعام عليهم ، محبوبا إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفا على مأمورهم وأميرهم ، حلما عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذه لهم على زللهم ، كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم ، فكأن القائل أرايه بقوله إذ يقول :

خلق كماء المزن طيب مذاقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع
عمن جنى والسيف غير حلیم
كالغيث إلا أن وابل جوده
أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة
والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان رضي الله عنه سريع الانفعال للخير ، بسطيئا عن الشر . حدثني والدي قال : إستدعاني يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لي : بلغني أنك تهمل هذه الجنايات (١١٣) ولا تحفظها ، فقلت له : إنني أعجز عن حفظها لأنني أكون في بيتي والذ دار يفعل في القلعة ما يريد ، ثم التفت لي ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعي على بعض هؤلاء الملوك - وأومات إلى أولاده - لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعاف هذا . فقال لي : جزاك الله خيرا ، فلقد نصحت وأبیت الامانة ، واشرع في عمارة هذه الاماكن التي تحتمل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتي عنده ، ولم يزل يثني علي .

قال : وكان السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والانجاد بذفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألني عن القرايا التي خاصة ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بذفسي ، فقال : وما الذي قرر لك عليها في مقابل تعبك ؟ فقلت : لي من إنعام مولانا مالا حاجة لي إلى تقرير شيء آخر ، ثم المقرر لي من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملة هذه القرايا ، فقال : لا يجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لي بعمالة الخاص جميعها في بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيته كثيرة يحصل منها ما يزيد على سبعمائة دينار أميرى ، وليس لي بها من العمل كثير أمر . فقلت في نفسي : ربما لا يعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أنني اغتذمت غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها في هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك ، قال : فلما سمع قولي ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الاوقات ونحن فيها - إذ كنت أتولاه - فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئاً صالحاً ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا

إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان في مساله ، وأخذ من أموال الرعية أيضا رشا على مالا يجوز له فعله ، قال : فاحضرهما بالموصل وأرسل إليهما . وهما في بيوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال ريعتي ديناراً واحداً صلبته ، فإنني قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شيء عاقبتك على كذبك ، فلم يصح عليه قول شيء فأعاده إلى شغله ، وقال الآخر : لولا أن لك علي حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فعزله .

وكان رضي الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثر تعهد أصحابه ونوابه ، بالصلوات السنوية والعطايا الجزيلة ، ففرق أموالاً لا تحصى ولا تحد ، فمنها : ما كان جمع في الأيام الشسهيية • والأيام السيفية ، وما كان قد أخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هو من البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته
فاستحيت الأنواء وهي هوامل
فاسم الغمام لديه وهو كنهور
ال (١١٤) وأسماء البحار جداول
لم تخل أرض من نداه ولا خلا
من شكر ما يولي لسان قائل

وكان رضي الله عنه يقول لمن ينهيه عن كثرة الانفاق وإخراج الأموال : متى سمعتم أن ملكاً حبسه القاضي ، وإذا لم يظهر إحساناً على من يخدمني فمن الذي يحسن إليهم ؟ وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكي : سيف الدين ، وذو الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سبحانه فيهم من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملوك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

- ٦٥٣٩ -

هيذون ليزون أيسار بنو يسر
سواس مكرمة أبناء أيسار
لاينطقون على العوراء إن نطقوا
ولا يمارون إن ماروا ياكبار
من يلق منهم يقل لا قيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها السار

واذكر قول بعضهم - وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبي
صفرة - أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة
ابنة الحريث - وقد سئلت عن أولادها الكملة أيهم خير - فقالت :
فلان ، بل فلان ، ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم خير . وهكذا
كانوا رضي الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة ولده المستضيء بأمر الله . رضي الله عنهم

توفي الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين في تساع شهر ربيع
الآخر من سنة ست وستين وخمس مائة . واسمه يوسف بن المقتفي
لأمر الله . وتما نسيبه عند وفاة المستنجد بالله رضي الله عنه .

وامه ام ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الآخر
سنة عشر وخمس مائة ، وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام .
وكان أسمر ، تام القامة ، طويل الحية .

وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه استاذ
الدار عضد الدين ابو الفرغ ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين
قايماز - وهو من ممالك المقتفي لأمر الله - وهو حينئذ أكبر أمير
ببغداد ، وله من الاتباع مثل علاء الدين قنماش ويزن وغيرهما ،
وكان محسنا الى الاجناد ، فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا

ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤتية ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم ادخله واغلق عليه الباب الى ان مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي - وهو الحاكم في الدولة - وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لان المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه أستاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض واقبلت (عليه) العافية . فخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجند فربما جرى عليه عتب وانكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير (خوفا منه) إن دخل الدار (ان يأخذهما) (١١٥) ، فلما عاد أغلق أستاذ الدار ابوابها وأظهر وفاة المستنجد ، واحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله ، وشرطا عليه شروطا ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ الدار ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدي الحال ، فصفق يدا على يد ، وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده إلى داره ، حيث لا يذفعه الندم ، وأتاه مبن يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء ، فمضى إلى دار الخلافة ومعه زعيم الدين ابن جعفر ، وهو صاحب المخزن ، فلما دخلها صرف إلى موضع من الدار وقتل وقطع قطعاً والقي في بجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين إلى داره فحمل جميع ماله فيها من مال وغيره ، فرأيا في ذلك خطوط المستنجد بالله إليه يأمره فيها بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفوا عليه ، علما براءته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم يذفعهما

ندمهما . واما زعيم الدين جعفر ، فان عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الاعمال .

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا . وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعيات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة الاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة الاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله أحبسه لاكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل

وغيرها من البلاد الجزرية وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاه أخيه قطب الدين رضي الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء فخر الدين عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين غازي ، انفذ لذلك وكبر لديه وشق عليه ، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة ، وكان رحمه الله لينا رفيقا عادلا ، فقال : أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبّر الفرات عند قلعة جعبر مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئا من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقتصرحه ، فاستولى نور الدين عليها وقرر امورها . وسار الى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين واقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن

وبيار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك اكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحدثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن اخيه قطب الدين . ثم سار إلى الموصل فاتى مدينة بلد ، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نيزوى ، ودجلة بينه وبين الموصل . ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضي الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل ، وأذربيجان ، وأران وغيرها يستنجد به ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن قصد الموصل ، ويقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته - وكان بسنجار - فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أرفق ببني أخي منك فلم تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين ، فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله ، وكاتبه الامراء يعلمونه أنهم على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه ، فلما علم فخر الدين ذلك ، راسله في الصلح والدخول في طاعته ، وإبقاء الموصل على سيف الدين ، ويطلب لنفسه الامان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى مقامك في الموصل بل

- ٦٥٤٣ -

تكون عندي بالشام ، فإني لم آت لأخذ البلاد من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي ، فاستقرت القساعة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمسمائة ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادما له يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الامام المستضى بأمر الله فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد ، وأمر ببناء الجامع النوري فبنى ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، فقل له : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضا أنني (ههنا) (١١٦) لأكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعا كثيرا .

ذكر غزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

في سنة سبع وستين وخمسمائة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج النين في لاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم

- ٦٥٤٤ -

فذكثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج في اعادة ما أخذوه فغالطوه ، واحتجوا بأمر منهما : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضي الله عنه لايهمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم ، بعضهم نحو أنطاكية وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العساكر إلى حصني صافيتا وعريمة فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ، ونهب وخرب ، وغزم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة ، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما النين ساروا إلى أنطاكية ، فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة مأخذوه من المركبين ، وتجدد معهم الهدنة فأجابهم إلى ذلك فكانوا في ذلك كما يقال ، اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم ، وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتالي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

نادرة غريبة في زماننا هذا

قد علم الناس قلة الأمانة . والأداء ربل عدمها ، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين ، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل انســــــــــــان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار ، فكل من اسمه على ثوب أخذه ، وكان في الناس من يأخذ ماله له ، فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة - وكان نصرانيا - فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته ، فذهب من ماله ومالنا كثير بهذا السبب ، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له ، فلما عاد

- ٦٥٤٥ -

إلينا سلم الذي له إلى والدي ، فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه ، وأنا في غنى عنه ، فلم يفعل ، فلما كان بعض الأيام ، وإذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسي وغيرها ، وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم ، وسبب حضوره أن انسانا فقاعيا (١١٧) من أهل تبريز كان معنا في المركب ، وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها ، فلم يسهل عليه مردها ، وسأل عني وقصدني وهي معه ، وحضر عندي الساعة وسلمها الي ، وقال : قد تركت طريقي لتبرأ نمتي ، وأخذنا نحن ماعليه اسمنا بعد الجهد ، وطلب والدي الرجل ، وسأله ان يقيم عندنا ليسلم اليه مالا يتجر فيه فلم يفعل ، وعاد الى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان .

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر واقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمس مائة ، قطعت خطبة
العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر ، وخطب فيها للامام
المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت
قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة
بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب اليه الملك
العاقل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، واقامة
الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب اهل
مصر ، وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم
يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لافسحة له
فيه ، واتفق ان العاضد مرض - وكان صلاح الدين قد عزم على
قطع الخطبة له - فاستشار امراءه كيف الابتداء بالخطبة
العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من
خاف ذلك ، الا أنه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين ، وكان قد
دخل الى مصر انسان عجمي يعرف بالأمير العالم - وقد رأيناه
بالموصل كثيرا - فلما رأى ما هم فيه من الاحجام ، قال : أنا
أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب
ودعا للمستضيء بأمر الله فلم يذكر أحدا فلما كان الجمعة
الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة
العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم
ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك الى سائر النصار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه

- ٦٥٤٧ -

بذلك ، وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي ان ننقص عليه هذه الايام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع مافيه ، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قبرا قوش - وهو خصي - لحفظه وجعله كأستاد دار للعاضد ، فحفظ مافيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل اهل العاضد الى مكان مفرد ووكّل بحفظهم وجعل اولاده وعمومته وأبناءهم في ايوان في القصر وجعل من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء ، فأعتق البعض وهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الايام وتعاقب الدهور .

ولما اشتد مرض العاضد ارسل يستدعي صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمش اليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بافريقية والمغرب في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين ، وأول من ظهر منهم ، المهدي ابو

محمد عبد الله وهو (الذي) بنى المهدية وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل بن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد - وهو الذي سير العساكر الى مصر مع مولاه جوهر ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة - وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده الى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ،

- ٦٥٤٨ -

والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ثم ابنه العزيز بالله ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر لا عزاز بين الله ، ثم المستنصر بالله ، ثم المستعلي بالله ، ثم الأمر بأحكام الله ، ثم الحافظ لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثم الفائز بنصر الله ، ثم العاضد لدين الله ، وهو آخرهم ، ولقد اتينا على ذكر ما أجمعناه في المستقصى في التاريخ ، وانما نذكر ههنا ما تدعو الحاجة اليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله ونخائره ، اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمرائه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وممر الدهور ، فمنه : القضيبي الزمرد طوله نحو قبضة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المذسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر ، ارسل نور الدين اليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسير اليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي اكراما له ، لأن عماد الدين كان كبيرا في المحل في الدولة العباسية ثبتها الله تعالى ، وكذلك ايضا خلعا لصلاح الدين ، الا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الاعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هذه أول هبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

ذكر الوحشة بين نور الدين

وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين ايضا ، جرى ما أوجب ذفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين ارسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلاد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرتة ، ليجمع هو ايضا عساكره ويسير اليه ، ويجتمعوا هناك على حرب الفرنج والاسـتـيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب الى نور الدين يعرفه ان رحيله لا يتأخر ، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازما على قصد الكرك فوصل اليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول اليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر الى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام تقي الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - وقال : اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجــــــــــــــــم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه - وكان ذا رأي ومكر وعقل - وقال لتقي الدين : اقعد وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين

- ٦٥٥٠ -

خالك ، أتظن أن هؤلاء كلهم ممن يحببك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعته إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأني حاجة له الى المجيء ، يأمر بك كتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم الى نور الدين بالخبر ، ولما خلا ايوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور اليه وأولها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا اسلموك اليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت اليه وترسل في المعنى وتقول : اي حاجة الى قصدي ، يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن ، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

في ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادي

وفي سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام

- ٦٥٥١ -

الهوادي ، وهي المناسب التي تطير من البلاد البعيدة الى
أوكرها ، واتخذت في سائر بلاده .

وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد
الذوبة الى باب همذان ، لايتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج
لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فالى ان يصل الخبر ويسير
اليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به
الى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولربيعها ، فوجد بها راحة
كثيرة ، كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له في كل ثغر رجال
مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فاذا رأوا أو
سمعوا أمرا ، كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل
الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتدقل الرقعة منه الى طائر آخر
من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى
أن تصل الأخبار اليه ، فاندفعت الثغور بذلك حتى ان طائفة من
الافرنج نازلوا ثغرا له ، فأتاه الخبر ليومه ، فكتب الى العساكر
المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس
العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج أمزون ، لبعد نور الدين
عنهم ، فرحمه الله ورضي عنه ، ماكان أحسن نظره للرعايا
والبلاد .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلع أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية المالك
عز الدين قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان
السلجقي ، وهي ملطية وسيواس وقونية ، وأقصرا ، عازما على
حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا الذون بن دانشمند صاحب ملطية
وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلع أرسلان وأخذ بلاده

وأخرجه عنها طريدا ، فسار الى نور الدين مستجييا به وملتجئا الى ظله ، فأكرم نزله وأحسن اليه ، وحمل له مايلىق أن يحمل إلى الملوك ، ووعد النصرة والسعي في رد ملكه إليه ، وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما ، فلما قصد ذو النون ، راسل قلعج ارسلان وشفع اليه في اعادة ماغلب عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بحصني بهسنا ، ومرعش فملكهما وما بينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلعج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام الى وسطها ، خوفا وفرقا ، ورأسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأثابه عن الافرنج ماأزعجه فأجابه الى الصلح وكان في جملة رسالة نور الدين اليه : انني اريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا اترك ثلاثة اشياء : أحدهما أنك تجدد اسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام ، فانني لا اعتقدك مؤمنا - وكان قلعج ارسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة - والثاني ، اذ طلبت عسكرا الى الغزاة تسيره ، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهانتهم .

فاما أن تنجيني بعسكر لا قاتل بهم الافرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم والثالث ان تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي ، وذكر أمورا غيرها ، فلما سمع قلعج ارسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة ، وقد اجبته الى ما طلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله ، واستقر ذي النون ، فبقي العسكر بها الى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قلعج ارسلان وملكها .

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن عماد الدين

زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقسـنـنـقـر بدمشق ، يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسـمـائـة ، بـعـلـة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها الى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع يتجهز للمسير الى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليدركها في الشام تمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فانه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمي : بهم عليه ولايؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهد وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز للمسير اليه ، فأتاه أمر الله الذي لا يرد .

حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي - وهو من حذاق الأطباء - قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه - وهو في بيت صغير بقلعة دمشق - وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته ، فكان يخلو فيه للتعب في أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا اليه ورأينا ما به ، قلت له : كان ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع الى مكان فسيح فله اثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضي الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية الا في حذكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة حلوا العينين .

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، ونيار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب نيار بكر ، وملك الشام ، والنيار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر الى اليمن فساروا - ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة ، وكان مولده التاسع عشر شوال من سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله ، وأنا أذكر من حاله ما تعلم أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله الا الشاذ النادر .

في ذكر ولاية ابنه الصالح اسماعيل رضي الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم .

وحكى لي البقرة قتيل الكمالي ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبي كمال الدين (محمد الشهرزوري) للأمراء ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين وذوابه ، والمصلحة نشاوره فيما نفعله ، ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح ، فلم يوافق اغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجون ، قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعرفه ان الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده ، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين

وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء الى صلاح الدين ولا أعلموه الحال ، كتب الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويكفه ، وكتب الى كمال الدين والى الأمراء يقول : ان الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بي ، لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه ولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي ، وأراكم قد تفرديتم بخدمة مولاي دوني ، وسوف أصل الى خدمته ، وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده ، فقال لهم كمال الدين : هذا الذي كنت حذرتكم ، فأقام الملك بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكثوه من المسير الى حلب لثلاث يغلّبهم عليه شمس الدين علي بن الداية ، فانه كان أكبر الأمراء الذورية ، وانما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها اليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وأرسل الى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك الى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب ، حتى يستجمع العساكر ويسترد ماأخذه منه ، والا عبر سيف الدين الى حلب ، ولانقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولا مكثوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين في ملك البلاد الجزرية ماذكره ان شاء الله تعالى .

في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضي الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا

أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحسيرا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا ونحسن نذكر ههنا ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لا فتخرت به ، فكيف في بيت واحد .

فأما زهد وعبادته فانه كان مع سعة ماله وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمه ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفدوه بحله ولم يتعده الى غيره ألبته ، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلده ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أذر زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة بطالع رقاع اصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجب عنه وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أو راد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشغل بمهام الدولة قال : وانها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قد قرره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها فلما قلت له تذكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، ان كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعبدة لفتق ان كان من عدو

الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لا يفعل فعلا الا بنية حسنة ، كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويرجع الى قوله ويعتقد فيه حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب اليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتغيب الخيل لغير فائدة بنية ، فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ما حملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، وإنما نحن في ثغر والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس اذ يفتح الصبوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقل في اصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فإن من يجيء الى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئا الا بنية صالحة ، وهي افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكي لي عنه ، أنه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت اليها ، وبينما هم معه في حديثها ، واذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقيل : انها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطيتي غيرها لكان انفع

له ، فقال : اعطوها له ، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت إليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك أنها كانت تساوي أكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري رحمه الله تعالى - وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأدس به وله معه انبساط - قال : كنت معه يوما في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجري فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لي : اتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورأيت ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها ، وكان رحمه الله يصلي كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك الى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه مأحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، وليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء ، وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل ، والانصاف ، وترك المحرمات من المأكول والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، هممة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروف ولا يذكر مذكرا . حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك اتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكرني الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه ، وهو سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت ، واليمن

والحجاز وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين ، وانما الزهد خلوا القلب من محبة الدنيا لاخلوا اليد عنها .

وأما عدله

فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعد لهم حكما ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة لامكسا ولا عسرا ، بل أطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة جميعا والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يجري العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بذفسه ، ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقدسها عند أحكامها ، ويقول : نحن شحن لها نمضي أوامرنا فمن اتباعه أحكامها أنه كان يوما يلعب بالكورة بدمشق ، فرأى انسانا يحدث آخر ويومئ بيده اليه ، فأرسل اليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل خصومة وهذا غلام القاضي ليحضره الى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ، فعاد اليه ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار الى القاضي يقول : إنني قد جئت محاكما ، فأسلك معي مساتسلكه مع

- ٦٥٦٠ -

غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ فقالوا : لا فقال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر ان الحق لي وهبته وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة الى الحق ، الواقفة معه .

قال صاحب التاريخ : ومن عدله قدس روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والاخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتبعاع الشرع المطهر .

وحكي لي من أثق به ، أنه دخل يوما الى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ف قيل : ان القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا ، فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده الى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فردّه إلى الخزانة مرة أخرى وقال : اذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، انه له ، فنخل نور الدين الى الخزانة مرة أخرى فرأه ، فأذكر على الذواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على اصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فردّه اليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا (المال) وأما أنا فـرقتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولاً واحداً فأعاده .

أيضا يثبتت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد ، دخل الوهن على الاسلام ، ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ماخافه عيانا .

وأما ما فعله من المصالح

الذي فعله من المصالح في بلاد الاسلام مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفا منه ، فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، حماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس .

وبنى أيضا المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان ، ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخروج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله - وهو رجل من الصالحين - فقليل له : إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل ، فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتائب أعلم انه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الأثم -م عليه لا علي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم ، وبني أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها ، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو بغيرها .

ومن عدله ايضا بعد موته - وهو أعجب ما يحكى عنه - أن انسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها صلاح الدين ، كان اجناده وأمرأؤه يفعلون ما يريدون ولا يمتنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يا نور الدين ، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، اين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر الى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية والا خـرج عن يدك ، فأرسل الى ذلك الرجل - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيب قلبه ، ووهبه (شيئا) وانصافه ، فبكى اشد من الاول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟ فقال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين وهذا هو الحق ، وكل ما يرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

فصل في ذكر بنائه دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل نور الدين رضي الله عنه ، أول من بنى دارا لكشف المظالم وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمرأؤه وفيهم اسد الدين شيركوه - وهو أكبر امير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك - واقتدوا الاملاك فأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الانصاف من اسد الدين شيركوه ، فأنتهى الحال الى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع اسد الدين ذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا

بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ، والله
لئن حضرت الى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته ، فامضوا الى كل
من بينكم وبينه منازعة فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأي شيء
أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي ، فقالوا له : ان الناس اذا
علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال : خروج املاكي عن يدي اسهل
عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم ، أو يساوي بيني
وبين أحاد العامة في الحكومة .

فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم
وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل
الحكومات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي
والفقهاء ، فبقي كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد
الدين ، فقال لكمال الدين : ما أرى أحدا يشكو من شيركوه ، فعرفه
الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقال : الحمد لله إذا أصحابنا
ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا ، فانظر الى هذه المعدلة
ما أحسنها ، والى هذه الهيئة ما أعظمها ، والى هذه السياسة
ما أشدها ، هذا مع أنه كان لا يريق دما ، ولا يبالغ في عقوبه ، وإنما
كان يفعل هذا صدقة في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه
كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيمة ورأيا ، وأجودهم
معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت
جمعا كثيرا من الناس لأحصيتهم يقولون انهم لم يروا على ظهر
الفرس أحسن منه ، كآته خلق لا يتحرك ولا يتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة وأقدرهم عليها ، لم ير
جوكانه يعلو على رأسه ، وكان ربما ضرب الكرة فتعلوا ، فيجري
الفارس ويتناولها بيده —————
الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجو كان
فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج ، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير ، ولقد جرى لي مع طبيبـه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس - بعد أن فتحه المسلمون - مريضا ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعادته القول فتركني ومضى ، فأذفت نفسي وضاقَت الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لأعالج نفسي إلا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوي عزمي على قصد طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدالت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا للمرضى الذين به ، فلما رأيته قد قاربته ، أقبل على بوجه مذبسط وسأيلني عن حالي فوصفته له ، فكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمـك غلامـك مـبـا في هـذه النسخة ، فقلت : لاحتاجة بي إلى ذلك ، فقد أغنانني الله عن مزاحمة الفقراء ، فقال : يامولاي ، لا أشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانهامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان ، فقلت : أنا لأرى ذلك ، فقال : انه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم ، فوجدت في نفسي بكلامه انبساط ، فحكيت له حـكايـة ذلك الطبيب ، فقال : يامولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق ، فشكرته وعدت عنه ، رضي الله عنه .

وبنى أيضا الخانات في الطريق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبنى أيضا الأبراج على الطريق ، وبين بلاد المسلمين

والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضا ، وكان هذا من أطف الفكر وأكثرها نفعا ، رحمة الله تعالى .

وبنى أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد الصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الادارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويبنهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذتقع عينه عليه ، ويعتقه ويجلسه معه على سجائده ويقبل عليه بحديثه ، وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء ، من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها ، وبالجمل فـكان أهل الدين عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، وإذا نقلوا عن انسان عيبا يقول : ومن المعصوم ، وانما الكامل من تعد ذنوبه .

بلغني ان بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي - وكان قد استقدمه من خراسان وبالح في اكرامه والاحسان اليه - فحسده ذلك الأمير فقال منه يوما عند نور الدين ، فقال له : يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشذلك عيبك من غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته ، على أنني والله لأصدقك فيما تقول : وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لا ونيدك ، فكف عنه ، هذا والله هو الاحسان والفعل الذي يكتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها

من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا
لحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للإيتام ، وأجرى عليهم
وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضا مساجد
كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الأيتام
الذين يقرؤون بها القرآن ، وهذا فعل لم يسبق إليه .

بلغني من عارف بأعمال الشام ، أن وقوف نور الدين في وقتنا
هذا - وهو سنة ثمان وستمائة - كل شهر تسعة آلاف دينار
صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظاهرا وباطنا ، فإنه
وقف ما انتقل إليه وورث ثمنه أو من ماغلب عليه من بلاد الفرنج
وصار سهمه .

فصل في ذكر وقاره وهيبته قدس الله روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فيهما ، فلقد كان كما قيل : شديد في غير عذف رقيق
في غير ضعف ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس
الملك حتى مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها ، كان يلزمهم
بوظائف الخدمة ، الصغير منهم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير
من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين
يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن
الداية وغيرهما ، فانهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن
يأمرهم بالعود ، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا
دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقـوم له ويمشي إلى بين
يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس
إليه ، وكان إذا أعطى أحدهم شيئا ، يقول : إن هؤلاء لهم بيت
المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا .

وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحد-----وال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا .

بلغني أن الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق رأى فيه من اللفظ وسوء أدب الجلوس فيه مالا حد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه ، فقال: نزهت نفسي عن مجالسك ، فإني رأيتك كبعض مجالس السوق ، لا يستمع به إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنا على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنهم لا يكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فهكذا كانت أحواله جميعها - رحمه الله تعالى - مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيًا لها ، لا يهملها ولا يمكن أحد من الناس من اظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالي في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل .

حكى لي أن انسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان

يظهر الزهد والذسك - وقد كثر أتباعه - أظهر شئنا من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفه وظيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق فصار عنها وقصد حران ، وأقام بها الى أن مات ويسوق الله القصار الأعمار الى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه

رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب - وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته - فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ، وأثبهم رأيا وأنقاهم وأعدلهم وأعبدتهم وأزهدتهم وأجهدهم ، وأطهرهم وأظهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وأنجحهم أمالا ، وأرجحهم رأيا وأوضحهم أيا ، وأصدقهم قولا ، وأقصدهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره أصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ، وزمانه طيبا ، وأحسانه صيبا ، والقلوب بمهابته ومحبتة متملية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ، وأموره مقبلة ، وأوامره ممتثلة ، وجده منزه عن الهزل ، ونوابه في أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونه ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشريعة ناصرة ، والانصاف صاف ، والاسعاف عاف ، وأزر الدين قوي ، وظمأ الاسلام روي ، وزند النجس وري ، والشرع متبوع ، والحكم مسموع ، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول والتقي شروق ، وما للفسوق سوق ، وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح مغالقتها ، واستخلص معاقلها ، واستخلص

عقائلها ، وأشاع بها شعار للشرع في جميع الحل والعقد ، والابرام والذقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسـومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم وبـدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم ، وحمأها عنهم ، وأحيا معالم العلوم الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات الصـوفية وكبـررها ، في كل بلد وكثـر وقـوفها ووفر معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات ، فضاقت ضيوف الفضائل وفاضت فيوض الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها (١٢٠) *

ولو ذكرت ما قال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار اليق بما نحن فيه والسلام .

في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي ابن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى بلد الخابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بهما مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايماز الحراني ، فامتنع فيها ، ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار إلى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل إلى

مدينة الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية - وهو من أكبر الأمراء النورية - وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، ليمنع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين بن المقدم - وكان هو المرابي للملك الصالح والقائم بأمره - وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسير معه إلى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه .

فمكن حينئذ سيف الدين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له فخر الدين عبد المسيح - وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض الأمراء - فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات وأملك البلاد . فأشار أمير آخر معه - وهو أكبر أمرائه - يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود ، فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل (ليقتضي الله أمرا كان مفعولا) (١٢١) ، (وكان ذلك في الكتاب مسطورا) (١٢٢) .

وأما أحوال من بالشام ، فإن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها ديارا لها وهو سعد الدين كمشتكين - بعض خدمه الخصيان - فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك ، فنهـب بـركه ودوابه وسار إلى حلب ، فتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح ، فسار

- ٦٥٧٢ -

اليها ، فأخرج اليه ابن المقدم عسكريا فنهبوه فعاد منهزما الى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية مأخذ وجهه وسيره الى دمشق - وعلى نفسها تجني براقش - فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم ما في مسير الملك الصالح الى حلب من المصالح ، فأجابوا الى تسييره فصار اليها ، فلما وصلها وصعد الى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (١٢٣)

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه الثبات ، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ماأخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن ايوب

الى دمشق دار العشق وتملكها من يد ولد مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبههم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن ايوب بمصر ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن اشبه أباه فما ظلم - (١٢٤) فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الاجابة وسار إلى الشام ، فلما

- ٦٥٧٣ -

وصل دمشق ، سلمها إليه من بها من الأمراء وبخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أني إنما جئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه ، وجرت أمور قد شوهدت فلا حاجة إلى ذكرها ، كما قال بعضهم :

فكان ماكان مما قد سمعت به
فطن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم على ما بيده بعد حروب ومخامرات ، قد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبي الحسن علي

وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمس مائة ، استوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين رحمهما الله تعالى ، ومكنه في ولايته ، وفوض إليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقدير الأمور وإطلاع على دقائق الحسابات ، وعلم بصناعة الكتابة الحسابية حيرت العقول ، ووضع للناس في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه ، وشرع لهم منها شرعا استحسنوه ، وبذل بذلا استعظموه ، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد - وكان قد زوجه ابنته - فأطلق من الحبس وسار إليه فبقى بآمد يسيرا مريضا ، ثم فارقها وتوفي بدنيسر سنة أربع

- ٦٥٧٤ -

وسبعين وخمسمائة وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده ، وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضي الله عنه .

ثم ان سيف الدين استناب دزدار بقلعة الموصل ، الأمير مجاهد الدين قايمار في ذي الحجة سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، ورد اليه أزمة الأمور في الحل والعقد ، والرفع والخفض ، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي ولقبه أيضا زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين اسما لامعنى تحته ، ولجاهد الدين صورة ومعنى .

وفي سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين في عمارة جامع بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع ، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

ذكر عصيان ابن بوزان وعوده الى الطاعة

ثم ان الأمير شهاب الدين محمد بن بوزان صاحب شهرزور - وهو في طاعة سيف الدين - أظهر التجني على سيف الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجعل عذره في ترك الحضور في الخدمة بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما محكمة القواعد ، وقال : إن مجاهد الدين هو الآن مدبر الدولة والحاكم فيها ، ولا آمنه على نفسي ، فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولا عن نفسه وكتب إليه كتابا ليس مثله في معناه ، فلمّا وصل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بادر إلى الحضور في الخدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين الذوري

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين ، وحكم عليها ، فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليه الملك الصالح وطلب منه أن يسلم اليه قلعة حارم - وكانت اقطاعه - فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مسدد تحفظها يأمره بتسليمها إلى نائبه فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين فحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ماطلب منه ، فعلق مذكوسا ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

وفي سنة أربع وسبعين وخمس مائة ، أشد الغلاء وعم أكثر البلاد : العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار ، ومن عجب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرستها شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرستها ، وإذا قد أقبل انسان تركماني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبكى وشكا الجوع ، فأرسلت من اشتري له خبزاً فتأخر احضاره لعدمه ، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت تنقط المطر متفرقة ، وضج الناس ، ثم جاء فأكل ذلك التركماني وأخذ الباقي معه ومشى ، واشتد المطر ، ودام من تلك

- ٦٥٧٦ -

الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة ، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير ، وكان مريض الناس شيئاً واحداً ، وهو برسام (١٢٥) فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم إن الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم .

فصل في ذكر وفاة أمير المؤمنين

المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفي الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بن المقتدي لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي نسبه ، وأمه أم ولد : (ارمنية تدعى غضة) وكانت خلافته (نحو تسع سنين وسبعة أشهر) (١٢٦) .

ذكر شيء من سيرته قدس الله روحه

وكان عادلاً حسن السيرة ، كثير البذل للمال ، غير مستقص في أخذ ما جرت العادة بأخذه ، وكان الناس معه في أمن وسكون لم يروا مثله ، وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو ولا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح ، وزر له عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل أوائل ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار إلى الحج - وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج - فعبر عضد الدين بجلة في شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه مابين راكب وراجل ، فتقدم اليه بعض العامة ليدعوه له ، فمذعه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمتنعوا عنه أحد ، فتقدم

إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي ، وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفتا بالجانب الغربي ، فتوفي بها رحمة الله تعالى ، وتولى الأمور بعده ظهير الدين بن العطار وحكم في الدولة حكما نافذا .

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

في صفر من سنة ست وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن اتابك الشهيد زنكي رضي الله عنهم ، وكان مرضه السل فطال به ، ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة للغلاء الحادث في البلاد ، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا الخمر ، وكسروا الأواني وعملوا مالايل ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو أراق الخمر ، ولما رأى فعل العامة نهامهم عنه فلم يسامعوا منه ، فلما شكا الخمارون منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني فلم يمض غير قليل حتى توفي الدردار المباشر لأباه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمائل ، أبيض اللون ، مستدير الحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق ، وكان عاقلاً ، وقوراً ، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس ، عفيفاً ، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة ، وكان غيوراً شديد الغيرة ، لم يترك أحداً من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار ، وكان لا يحب سفك الدماء ، ولا أخذ الأموال مع شح فيه .

في ذكر مملكة المولى السعيد

عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه فخاف من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته ، وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين من الازعان والاجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولاً والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطي ابنه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى المولى عز الدين والمتولي أمرهما مجاهد الدين ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه . فلما توفي سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المدير للدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزية وعزاه ، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلاً ، فدخلها وجلس للعزاء ، وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لأقدامه وجرأته وحدة كانت فيه ، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمراً ، فلما ولي تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقاً بالرعية ، محسناً

إليهم ، قريبا منهم ، فكان في ذلك كما روي ، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وقظاظته ، فقال بعض الصحابة لأبي بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر؟ فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفي أبو بكر وولي عمر ، رأى الناس من رفته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون في الكتب

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهي

في رجب من سنة سبع وسبعين وخمسائة ، توفي الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها ، فقال : لا أفعل حتى استفتي الفقهاء . وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ، وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه ، فاستفتاه ، فأفتاه بجواز شربها . فقال له : يا علاء الدين ، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال : لا ، قال : والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي . فلما أيس من نفسه ، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلفهم لابن عمه أتاك عز الدين رضي الله عنه ، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه . فقال بعضهم : إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات ، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك لكان أحسن ، ثم هو تربية أبيك وزوج أختك ، فقال : إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ، ومتى

سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها إلى عز الدين ، أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله ، فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

فلما توفي ، أرسل دزدار حلب - وهو شاذ بخت - وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعوونه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى مارين لهم عرض ، فلقى القاصدين عندها فأخبروه الخبر ، فسار إلى الفران ينتظره ، فسار أتابك مجدا ، فلما وصل المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه ، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجدوا اليمين له فسار حينئذ إلى حلب ودخلها وكان يومها مشهودا .

ولما عبر الفرات ، كان تقي الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - بمدينة منبج ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك ، وكان صلاح الدين بمصر ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل وقال : بيننا يمين فلا نغدر به ، وأقام بحلب عدة شهور ، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها .

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال : إن سلمتم إلي حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره

- ٦٥٨١ -

وبلاده ، فوافقه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد آيس من العود إلى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز في يومه عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتابك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه ، فلما رأى أتابك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد إلى حلب وحصرها ، فسلمها إليه عماد الدين وأخذ سنجار والخابور ونصيبين عوضا عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب إلى عماد الدين ، فإنه كان مضره محضه .

فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز وماتبعه من الوهن (١٢٧)

في جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وخمس مائة ، قبض المولى المرحوم أتابك عز الدين رضي الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو حينئذ نائبه في بلاده ، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضره صاحبه وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلف دار ، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير - الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف - وهما من أكابر الأمراء ، فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقا وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين بن سيف الدين صغيرا ، والحكم فيها إلى مجاهد الدين ، وله أيضا قلعة العقر ، فحين قبض امتنع زين

الدين يوسف بن زين الدين علي بابل ، وكان فيها لا حدكم له مع مجاهد الدين ، وامتنع معز الدين بالجزيرة ، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكريا حصر دقوقا فملكوها ، ولم يحصل للمولى عز الدين ----- جميع ما كان بيد مجاهد الدين إلا شهرزور ، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل ، وبقي مجاهد الدين مقبوضا نحو عشرة أشهر ، وندم أتابك على قبضه فأخرجه ، وخلع عليه وأعادته الى ولاية قلعة الموصل ، إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد الى طاعته ، وقبض أتابك على عز الدين زلف دار وعلى شرف الدين أحمد ابن صاحب الغراف ، عقوبة لهما على ما أشارا به من قبض مجاهد الدين ، وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من إزالة بيشكاه (١٢٨) مدبر لها وإقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤنسه ، ويكون الثاني - وإن كان كافيا - بمنزلة الطبيب الذي لا يعرف مزاج الانسان ولا ما يوافقه ويؤنسه ، فإلى أن يعرف حاله يفسد أكثر مما ينصلح . قال :

في ذكر حصر الجزيرة

في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمس مائة ، سار المولى السعيد عز الدين - قدس الله روحه - إلى جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها معز الدين سنجر شاه ابن أخيه سيف الدين غازي وهو صاحبها ، وكان سبب ذلك أن معز الدين كان سيء السيرة مع المرحوم عز الدين ، خارجا عن طاعته ، مساعدا للأعداء عليه ، ينتقل عنه إلى الملوك المجاورين لبلاده ما يوحشهم منه ، الى غير ذلك من الاسباب التي بعضها يخرج الوالد عن محبة ولده ، ولم يزل المرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه ، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وأدب ، فبقي كذلك من أوائل سنة تسع وسبعين إلى

الآن ، فلما طال الأمر عليه وأيس من اصلاحه ، سار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله ادركته رقة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتال إلا شيئاً لا يبالي به المحاصر ، فبقي كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ، فأحسن إليه وأنعم عليه وأمنه ، وعاتبه على ما يبدو منه ، فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا أنه تغمد إساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها ، وأقره على بلده وعاد عنه إلى الموصل ، فعاد معز الدين إلى حالته الأولى ، فتجاوز عنه واطرحه ، وقال : ما يمنعني عن أخذ بلده والحجر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوك أنني فعلت هذا شرها على ما بيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه .

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين رضي الله عنه

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضي الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعله ، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات رحمة الله عليه ، بالأسراع في الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قايماز : ليس هذا برأي أننا نتترك وراءنا مثل عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ونسير ، إنما الرأي أننا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون فقال أخي : إن كنتم تفعلون ما يشيرون به عليكم ويرونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون إلا هذا لأنهم لا يؤثرون

حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأي أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفاً أن يقصد ولايته ، لاسيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من ممانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعاً ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الإنسان يفعل فعلاً لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم ، وأن كان العكس أحجم ، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين ، فسكت أخى لأنه كان هو المخدم للجميع على الحقيقة والحاكم فيهم ، واتبع المرحوم عز الدين - قدس الله روحه - قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يرأس المذكورين ، فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما ، فالى أن انفصل الحال ، وصل الملك العادل أبي بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحمص وحماة ، وامتنعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل إلى نصيبين ، وقد ابتدأ به أسهل بنزيف ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزرية : الرها ، وحران ، والرقعة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه إلى ذلك ، وقوي المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل بنيسر رأى ضعفه شديداً ، فأحضر أخى كتب وصيته ، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضاً بالأسهال ، وبقي كذلك إلى أن توفي سايع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولم اسمع عن أحد من الناس بمثل

حاله في مرضه ، فإنه كان لا يزال ذا كرا الله تعالى ، حتى إنه كان إذا تحدث مع انسان يقطع حديثه مرارا ويقول : أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأشهد (ان محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله) وأشهد ان الموت حق (وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر وذكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق) (١٣٠) وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من القبور ويقول لمن يخاطبه : اشهد لي بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه ، وأحضر عنده من يقرأ القرآن ، فلم يزل كذلك الى ان توفي رضي الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجائحة لم يصيبهم مثلها ، وأظهروا من الغم والحزن مالا كان يظننه احد ودفن بالمدرسة التي انشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره (١٣١) .. وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر . وكان اسمر ، مليح الوجه ، حسن الحية ، خفيف العارضين . وحكى لي والدي ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة اذا مشى ، فإذا ركب لم يعله احد .

ذكر شيء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضي الله عنه لين الجانب ، كريم الأخلاق ، كثير الاحسان الى الناس ، يتعهدهم بالنفقات والسؤال عن أحوالهم ، لا سيما من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلي محله ، فمن ذلك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين علي بن الشكري ، وكان رجلا كبيرا له خدمة سالفة - فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضا ، انه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل هو في المغرقة في الكشك الذي

بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان في جملة الواصلين معه ، أخي مجد الدين رحمهما الله تعالى ، وكان ينزل بالأقرب منه ، فنصبت خيمة أخي بزاوية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضي الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخي وقال له : أرى خيمتك ههنا ؟ قال : لآنك رسمت أن لا يدخل أحد قال : الا أنت ، فإن والدك أثير الدين له مدة ما رأيك ، ولا شك إنه قد اشتاقك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتسأله الدعاء ، ولا تجيء إلينا إلى ثلاثة أيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص له في ذلك ، وألزمه بقصد والده والاقامة عنده ، فأنظر إلى هذا الفرق والطف الذي لا يفعله الإنسان الا مع أهله لا سيما الملوك .

وكان رحمه الله تعالى حيباً كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، لم يحدث أحدا قط إلا وهو مطرق ، فمن حيائه أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهيز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر في خدمته وقال : لي مهم أريد أقوله ، فأذن له في القول ، فقال : بلغني أنني في جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجب من مولانا كيف يسمح بمثلي ويرسلني ويبعدني عن خدمته ، ولا شك أن المولى لا يعرف محلي ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو محلك وارتفاع قدرك فلما خرج من عنده أظهر الانكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدير المنحوس يقول لي هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا في هذه الغزاة جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأنيبه وإقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه ؟ فقال : استحييت منه ، فقالوا : أفلا تؤدبه وتعرفه ذنبه ؟ فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله تعالى رفيقاً رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته ، حكى عنه أخي مجد الدين رحمه الله تعالى ، أنه ركب يوماً

فقال له ولمن معه : إنني هذه الليلة ما نمت الى سحر ، فقالوا له : وما سبب ذلك ؟ قال : كنت سمعت أن ابن فلان مريض - وذكر انسانا بائعا ، بالموصل - فلما كان الليلة سمعت صوت مأتم ، فظننت أنه توفي فضاق صدري - وكان بلغني بأنه ليس لأبويه غيره - فشوق ذلك علي ، وقمت من الفراش الى أطراف السطح ، لعلي أعلم من هو الميت ، فطال الأمر الى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسي ، فأرسلت خادما وفتح أبواب الدار وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر أنه شخص لم أعرفه ، فحينئذ نمت ، فاعجب لهذه الشفقة والرقّة على رجل من الرعية ليست له صحبة ولا خدمة .

قال: وكان رحمة الله عليه دينا خيرا ، قد ابتنى في داره مسجدا فيخرج اليه في الليل ويصلي فيه أورادا كانت له ، ولبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر الذسائي الصوفي ويصلي بها ، وكان قبيل حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر الذسائي المذكور ، وكان من الصالحين.

وكان رضي الله عنه يقوي يد من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. كان بالموصل رجل من الفقراء الأخيار من باجبتري (١٣٢) اسمه حرب ، فكان كثيرا ما يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فاجتاز يوما على الجسر فلقى دواجا تحمل الخمر لانسان هو اقرب الناس الى المرحوم عز الدين واخصهم به ، فالقاه الفقير عن الدواب وارقة بعد ان ضرب ، فبلغ الخبر اليه ، فأحضر الفقير وامره بازالة جميع ما يراه من المنكرات واطلق يده ، وانكر على ذلك الأمير وامره باحضار غلمانة النين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد ان تركهم.

وكان رحمه الله تعالى يأمر بالانتصاف من اقرب الناس اليه واعظمهم منزلة عنده ، ويقوي يد صاحب الحق ، فمن ذلك انه كان بالموصل انسان من اعيان الدولة ، وهو مع ذلك يتولى امر الخاتون والدة المرحوم رضي الله عنه ، وله بها اعظم جاه واعلى منزلة ، ولها

به اتم عناية واكثر حماية لتقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قرية الانسان عجمي مقيم بالموصل ، فأخذ شيئا من ارض قرية العجمي ، وطال النزاع بينهما ، ففي بعض السنين جاء الى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بداره ليعظ عنده ، وامران لا يحجب احد ، فاجتمع عالم كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمي وصاح واستغاث وببده رقعة يشكو بها حاله ، فأمر السعيد عز الدين بالجلوس الى ان يفرغ المجلس ، فلما جلس ، واحضر القاضي وامره بالحكم بمقتضى الشريعة المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمي ، فأمر الحاكم بالاسجال له والاثبات لحقه والاشهاد عليه به ، وارسل معه اوصل حقه اليه واسخط والدته في اتباع الحق.

وكان رضي الله عنه حليما ، فمن حله ، ان انسانا فقيرا من اهل الموصل من اصحاب الزوايا بظاهر البلد ، لما وصل صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل محاصرا بها (١٣٣) اجتمع به واكثر التردد اليه واخذ صلته ، وقال: ما تحتمل الملوكة بغضة الى احد ، فلما عاد صلاح الدين ، احضر المرحوم عز الدين هذا الفقير واذكر عليه ، وامر بتخريب زاويته ، ثم احضره بعد ايام واعتذر اليه واستحله ، واعطاه مائة دينار وامره بتجديد زاويته ، وقال: ان اردت شيئا آخر نفسه

لك ، فعمر غير زاويته واكبر منها وأحسن ، وغرم عليها جملة وافرة ، وكلما فرغ بالذقة أنفذ له شيئا آخر الى ان فرغت ، وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصله بالعطاء ، وكان يتردد إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم ،

قال : وهو الذي ابنتى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة حسنة ، جعلها للأفريقين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ماليين بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والاعياد والشيوخ للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من

- ٦٥٨٩ -

الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئا كثيرا .

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل - وهو بين باب كندة وباب العراق - ولم يكن هناك باب فجاء حسنا ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين

ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

قد ذكرنا عود المرحوم - قدس الله روحه - من تل موزن مريضا وأنه كتب وصيته بدنيسر ، وكان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك ، وكان الوصي فيها مجاهد الدين قايماز ، رحمه الله تعالى .

فلما وصل إلى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضا والدته الخاتون في المعنى وبالسفوت ، لأن شرف الدين أيضا ولدها ، وجمعا لهما جموعا وجندا ، وأظهر شرف الدين أن أحدا لا يقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشيء وظنه حقا (يريدون ليطفئوا نور الله بسأفواهم والله متمم نوره ولو كره الكافرون (١٤٣)) وقال شرف الدين : ان ملكني أخوسي بعده ، والا أشرت فتنة في البلد وأخذته قهرا فان عجزت سرت إلى الملك العادل بن أيوب ، وأرعد وأبرق ، وكان عمر المولى المرحوم نور الدين - قدس الله روحه - حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو

ينظر إلى عمه ويظنه يفعل ما يريد وكان الملك العادل سيف الدين بن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلهذا قوي جنان شرف الدين ظنا منه أن أخاه يملكه إذ هو كبير (البيت (١٣٥)) ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف أن أموت وليس لكم ملك مستقل بالملك ، والعادل في البلاد ، فيحدث ضرر لا يمكنكم تلافيه ، فلم يقدم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل إلى شرف الدين يأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد أخيه ووعدته الزيادة (والاقطاع) فلم يجب إلى ذلك وتهدد وقال ، فتوقف مجاهد الدين في تحليف الناس ، ثم إن المرحوم نور الدين ، رضي الله عنه ، أرسل إلى أخي مجد الدين - رحمه الله - مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التواني فيه ، ووعدته الزيادة والاقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل إليه معه خاتما ، فـرد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه - وكان أخي هو الذي يصدرون عن رأيه على ما شاهده الناس - وأما مارسمت به فأنا مشدود الوسط فيه ولا يشكرني المولى على هذا ، فإنني أفعله خدمة لوالدك الذي أنا في خدمته إذ هو هكذا يريد ، ولو أراد غيره لاتبعته ولم يبذمني إلا ما يوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث ارادة والدك موافقة لارادتك فاذا خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأما ما وعدت به من انعام وزيانة مرسوم ، فليست لي رغبة في شيء من هذا ، فلي من نعمتكم ما يفضل عني ، ثم ركب من وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فراه مفكرا ، فشكا إليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة والمولى عز الدين يريد ولده ، والعادل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت رأسها ، فبيئنا هما في الحديث ، وإذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما أقول لك لتحلف الناس لولدي وأنت تهمل الأمر والعدو بالقرب منكم وانتم بغير سلطان ، وأنا فما أظن أنني

- ٦٥٩١ -

أعيش يوماً آخر فما تنتظر ؟ فتضجر مجاهد الدين ، وأعاد ما كان
يقوله لأخي من الشكوى فقال له أخي : أنت تفعل هذا جميعه
بنفسك وبالدولة ، معك ولو شئت لم يكن منه شيء ، والرأي أن
تأمر باحضار الأمراء ، وأرباب المناصب ، والمقدمين ، وأعيان
البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، فإذا فعلت هذا ، حينئذ يندم شرف
الدين وما عسى أن يفعل ، وإن بدا منه ما يخالف هذا ، أخذناه قهراً
وكلنا به ، ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمين لنور الدين ،
ولا يركب ليراه الناس ، ويعلموا أن لهم سلطاناً ، لانزال مع شرف
الدين مصدعين فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهم
أخي فحضروا ، وحلفوا بالنسخ التي كتبها أخي - رحمه الله -
لهم ، وحلف مشايخ الحال وعرفاء الأسواق فسمع من جمعهم
شرف الدين فخافوا وتفرقوا عنه ، فأرسل إلى مجاهد الدين يعاتبه
حيث حلف الناس قبله ، وقال : أردت أن أخدم المولى نور الدين
وأتولى القيام بأمره ، ثم ان مجاهد الدين ركب السعيد نور الدين
من الغد في موكب والده ، وحمل السنجق على رأسه ، ومشى مجاهد
الدين في ركابه راجلاً قد حمل الغاشية ، فلم يلبث المرحوم عز الدين
بعده غير يومين حتى توفي رضي الله عنه وأرضاه ، واستقر السعيد
نور الدين - قدس الله روحه - ولم يتغير بالناس حال ، ورعى
هذه الخدمة لأخي رحمه الله تعالى ، فكان عنده واحد
دولته ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، ولم يزل كذلك إلى أن فرق الموت
بينهما رضي الله عنهما .

ذكره وفاة عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود .

وفي (المحرم) (١٣٦) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفي الملك العادل عماد الدين زنكي بن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي بن أفسزقر رضي الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره ٠٠٠ (١٣٧) وولي بعده ابنه قطب الدين محمد ، وتولى تدبير دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرزقش ، وكان نبيا خيرا ، الا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم ، فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنيفة بسنجان ، وشرط أن يكون النظر في وقوفها إلى الحنفيين من أولاده دون الشافعيين وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في (جمادى الاولى) (١٣٨) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين أرسلان شاه إلى مدينة نصيبين - وهي لقطب الدين ابن عمه عماد الدين - فملكها ، وسبب ذلك أن عمه عماد الدين زنكي ، رحمه الله ، وكان له نصيبين ، فتناول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهي مجاور ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر إلى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته وأبائه فخاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه ما يوجب اختلافا بينه وبين عمه ، فأرسل

من عنده رسولا الى عماد الدين في المعنى وقبح هذا العمل ، وقال:
لا شك أن الذواب قد فعلوا بغير أمره ، فأعاد الجواب : انهم لم
يفعلوا (الا) ما أمرتهم به ، وهذه القرايا هي من أعمال
نصيبين ، ولم يعدها ، فرد مجاهد الدين برسالة ثانية يقول
له : ماتساوي هذه وأضعافها أن تخرج ولدك نور الدين عن
يدك ، فانه الى الآن ماخالفك في شيء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلمي
أنه لا يصبر عليها ، وليس هو مثل والده ، إن علم يخرج الأمر عن
يدي ولا أقدر أمنعه ، فلم يلتفت عماد الدين فحينئذ أنهى مجاهد
الدين الحال إلى السعيد نور الدين ، فغضب لذلك وأذكر حيث لم
يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذي أطمعه ، ثم أحضر أميرا من
مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين علي بن الشكري ممن خدم
الشهيد رضي الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول : قد بلغني كذا
وكذا ، وأن مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو
أذك أرسلت تطلب جميع الولاية وغيرها لكان أحسب الأشياء
الي ، وأما بأن تأخذ مني قرية واحدة مراغمة لي واطراحا لجانبني
فلا أصبر على هذا ، فتأمر بإعادتها قولا واحدا

فمضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاظ
من ذلك وامتنع من الاجابة ، فقال الرسول من عنده نصحا
له ، وأشار عليه بالمصلحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف
الاتابكي مقبولا ، فلم يصغ الى قوله ، وقال ماجرت العادة أن تقول
المرضي ، فعاد الرسول الى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية
الحال ، فأمره أن يكتنم ما يغيب نور الدين ، فلم يفعل وحكى
للمرحوم نور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير الى
نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه فتوفي عماد الدين والحال
على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في المعنى ، فلزم
مأكان والده عليه ، فسار حينئذ نور الدين عن الموصل إلى
نصيبين ، فلما سمع قطب الدين سار عن سنجار في عساكره فسبقه

- ٦٥٩٤ -

اليها ونزل بظاهرها ، وعزم على منعه من النزول عليها ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم يعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين (من) النهر ، عبر الأمير فخر الدين عبد الله بن عيسى المهراني النهر - وهو من أكبر الأمراء النورية - وقا تل من بازائه ، فلم يثبتوا له ، وعبر العسكر الذوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاتله غير فخر الدين عبد الله ، واحتفى هو ونائبه مجاهد الدين يرزقش وغيرهما بقلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى ديار بكر ، ثم منها إلى حران .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها - وكان بدمشق - وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد اليهم نصيبين ، وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصيبين ، فمرض كافة أمرائه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتـوفي أكثرهم ، وأقام هو بنصيبين وقد تضعف العسكر بعود الأمراء وكثرة الأمراض . ووصل الملك العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل لاستيلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقتها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفي جماعة من الأمراء المواصل ، منهم عز الدين جورديك وفخر الدين عبد الله بن عيسى ، وشمس الدين عبد الله بن إبراهيم المهـرانيان وظهير الدين (يولق) (١٣٩) بـمن بلذكري الذكري ، ومجاهد الدين قايماز ، وجمال الدين محاسن وغير ذلك من ذكرنا ، وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلا نطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين إلى الموصل ، قصد الملك العادل بن أيوب قلعة ماردين فحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة

وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأنقذها الله تعالى على يد
نور الدين على مآذكره إن شاء الله تعالى •

ذكر وفاة مجاهد الدين قايمان رحمه الله تعالى

في (ربيع الأول) (١٤٠) من سنة خمس وتسعين
وخمسمائة ، توفي مجاهد الدين قايمان رحمه الله تعالى بقلعة
الموصل ، وهو متوليها والحاكم في الدولة الاتابكية النورية ، وكان
ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة من سنة إحدى وسبعين
وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد
الى ولايتها بعد الافراج عنه على مآذكرناه ، وبقي الى الآن . وكان
اصله من القرادي من أعمال شبختان واخذ هو منها طفلا ، وكان
عاقلا ، بينا ، خيرا ، فاضلا ، يعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة
رضي الله عنه ، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ
شيئا كثيرا ، الى غير ذلك من المعارف الحسنة ، وكان يكثر
الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئا من
شوال ، وعشر ذي الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين
وخميس ، والأيام البيض من كل شهر الى غير ذلك ، وكان له ورد
يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبني عدة
خانقاهات ، منها التي بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار
الى غير ذلك من المصالح ، ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا
نخرج عن ما قصدناه من الاختصار .

ذكر ما فعله المرحوم نور الدين عفا الله بماردين

في سنة خمس وتسعين وخمس مائة في رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين - قدس الله روحه - إلى ماردين لازاحة العسكر العادلي عنها وابقائها على صاحبها حسام الدين ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه ، فبقي محاصرا لها أحد عشر شهرا ، فعدمت الأقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها ، فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك العادل على ماردين ، فلما توفي ، ملك بعده أخوه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه ذفرة قد ذكرناها في المستقصى .

فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقتهم والعود إلى مصر فعادوا ، فقل جمعته وعسكره ، إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم ينفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيرا ويكفي في حصرهم .

ثم إن الملك الأفضل أرسل إلى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل ، فأجاب إلى ذلك ، وخرج الأفضل من مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر سار عن ماردين جريئة في نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين وأخبر شعبان ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه أيضا معز الدين ابن عمه سيف الدين - وهو

بشرط أن يعطي خبزا يرضيه ، وحضر سذقر المشطوب ، وحلف واشترط أن يرضى وحضر أيبك الأفطس رحمه الله واشترط رضاه ، وحضر حسام الدين بشارة ، وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير ، ونسخة اليمين المحالوف بها مضمونها : إني من وقتي هذا صفت نيتي ، وأخلصت طويتي ، للملك الناصر مدة حياته ، وإني لأزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسه ومالي ، وسيفي ورجالي ، ممتثلا أمره واقفا عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل علي ووريثه ، وواله إني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسه ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل .

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وفي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر في أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر أمام الكلاسة ، وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ذلك ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التماسع لا يكاد يفيق إلا في أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى (هو

صاحب جزيرة ابن عمر ، فساروا ، فلما وصلوا الى ماربين نزلوا اسفل جبلها ، وشرع نور الدين بجمع الرجالة ليزحف الى ربض ماربين ويقاتل العسكر العادلي من تحت ويقاتلهم أهل ماربين من فوق ، لعلهم يظفرون بهم ويزيلونهم قهرا ومكابرة ، مع تعذر الصعود في الجبل الى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد انه يعجزه شيء . فاتفق ان العسكر العادلي نزل عن الربض الى قتال العسكر النوري ، ونزل الرجالة في الربض ليمنعوا القلعة من النزول ، فجاء امر لم يكن في الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلي على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك احدا ، فقدر الله تعالى ، أنه لما نزل العسكر العادلي واصطفت العساكر ، ألجأت قطب الدين الضرورة والزحمة الى ان وقف في شعب بجبل ماربين ، ليس اليه طريق للعسكر العادلي ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النوري لينهزم ، وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له ، والتقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين في القلب وإلى جانبه أخي مجد الدين على بغلة ، فقال له : في مثل هذا اليوم تركب بغلة ؟ فقال: الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلي على القلب النوري فزحزحوا عن موقفهم قليلا ، فقال أخي للسعيد نور الدين : تقدم قليلا ليراك الناس فيتقدموا وتشتد انفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخي به الا وقد حمل ، قال أخي : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم يدفعني الندم ، فحين رآه الناس قد حمل القوا نفوسهم على العادلية فأسخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين في الجبل الى الربض ، وحمل الأسرى الى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميرا من اعيان العسكر وهو مكشوف الرأس ، فقام اليه واعتنقه ، وأخذ شيئا كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعدته إلى جانبه ، وأحسن الى المأسورين جميعهم ووعدهم الاطلاق إذا فرغوا من أمر ماربين .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل

رحلوا عن ماريين ، فتقطعوا في ذلك الجبل وساروا نحو ميفارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعا لا أنيس بها ، وأتى الخبر إلى السعيد نور الدين رضي الله عنه ، فقال له بعض أصحابه ، اصعد إلى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملكها صفوا عفوا ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد فقال : حاشا لله ان يتحدث الناس عني ان ناسا اعتضدوا بي واستنصروني فأغدر بهم ، ثم قال لأخي مجد الدين وهو عنده : ماتقول؟ فقال : الغادرون كثير ، وقد أودعت الكتب غدراتهم فهي باقية إلى يوم القيامة ، وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس انه قدر على مثل ماريين وتركها وفاء وانعاما واحسانا . قال فقال لي : أرسل إلى صاحب ماريين ليرسل نوابه إلى ولايته وقراياه - وكان قد اقطعها للعساكر التي معه ، وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها - قال : فقلت له : إن اصحابنا لم يأخذوا درهمما واحدا لتأخر ادراك الغلات ، فلو بقي الاقطاع بأيديهم إلى أن يأخذوا منها ما يذفون منه على بيكارهم لكان مصلحة . فقال : لا نكدر انعامنا واحساننا اليهم ، ونحن نكفي اصحابنا . قال : فأرسلت إلى صاحب ماريين ليتسلم بلاده فتسلمها وأرسل اليها النواب ، وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، فمرض وعاد إلى الموصل ، ولو سار إليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماريين قصدوا ميفارقين لعلمهم ان السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفا منه .

ذكر عوده رضي الله عنه الى بلاد العادل والمصلح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضي الله عنه عن ماردين مريضا فلما وصل إلى الموصل بقي اياما ثم عوفي فلما قوي ، عاد وجمع عسكره وسار الى البلاد الجزرية التي بيد العادل في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وعزم على حصرها ، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده اليه لحفظ البلاد من نور الدين ، فلما وصل الى رأس عين ، جاءته رسل الفائز ورسل من معه من أكابر الأمراء يرغبون في المصلح ويشيرون به ، فاقترضت المصلحة إجابتهم الى ما طلبوا فصالحهم على ما بأيديهم ، وضمنوا ان يحلفوا له الملك العادل ، وحلفوا له على ذلك ، فأرسل الى العادل بالذي تقرر ، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده فحلف له واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد ، وعاد السعيد نور الدين الى الموصل

في ذكر حصر العادل مدينة سنجار وما فعله المولى نور الدين في حفظها وضبطها

في سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وبيار بكر فحصرها ، وبها صاحبها قطب الدين بن عماد الدين - وهو ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه فأرسل قطب الدين ولده الى الخدمة الذورية مستجيبرا ومستنصرا ، ثم سار إلى إربل ، الى الملك المعظم مظفر الدين (كوكبيري) (١٤٣) في المعنى ، فأرسل إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان ابقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها ، فاعتذر عن الاجابة ، وذكر لصاحبها نذوبا

تقتضي قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهر زور وأعمالها ، واجتمعا بالموصل بعد طول افتراق ، واتفقا بعد اختلاف ، ووثق كل واحد منهما بصاحبه ووثقا لا مزيد عليه ، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت في قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير إلى سنجار ولقاء العادل ومحاربته ، وانما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله عز الله سلطانه ، أرسل رسولا ، وهو بهاء الدين بن الضحاك استاذ الدار العزيزة في اصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدا لنور الدين عند أمير المؤمنين اذ ينفذ مثل استاذ داره العزيزة ليسعى في اغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : اي الطائفتين انهزمت ، كان وهنا عظيما في الاسلام لا يجبر وخرقا لا يرقع ، فسمعا واطاعا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور ، وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصلح وابقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها .

ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين

قدس الله روحه

توفي المولى السعيد نور الدين - قدس الله روحه ونور ضريحه - في رجب من سنة سبع وستمائة ، وكان كثير الأمراض منحرف المزاج ، واختلف الأطباء في مرضه الذي توفي به . فقيل لوث مزاج ، وقيل قرحة وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد . وكان رضي الله عنه قوي النفس في مرضه ، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته إلى ان فارق الدنيا ، ولما اشتد مرضه انحدر في شبرة إلى الحامة المعروفة بعين القيارة (١٤٤) فلم يجد بها راحة ، فأصعد إلى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فكتّم موته من طبيب وملاح وخادم

الى ان وصل الى البلد فأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذي كان فيه مريضا ، ووكل ببابه من يمنع من الدخول إليه ، وأمضى في نهاره ذلك ما كان وصاه به في طريقه الى أن توفي فلما فرغ من جمعيه ، أظهر موته آخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل ، وقام في حفظ البلد المقام المرضى ، بحيث أن أهل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل الى الدار السلطانية ، فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد . واشتد الحزن عليه ، ولم يذفعهم اشتراكهم في المصيبة به ، لأنه كان رفيقا بهم ، مشفقا عليهم ، ناظرا في مصالحتهم . وأكثر الشعراء مراشه وتأبينه .

قال فيه البليغ ما قال ذو العدى
ي وكل بوصفه منطق

وكذاك العدو لم يعد ان
قال حميلا كما يقول الصديق

ولما توفي كان عمره (ثمانيا وثلاثين سنة (١٤٥)) وكان ملكه سبع عشرة سنة واحد عشر شهرا . وكان أسمر ، خفيف الحية والعارضين بالمرة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

ذکر شيء من سیرتہ

كان رضي الله عنه بعيد الهمــــــــــــة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق ، حسن الصحبة مع مماليكه ، يمازحهم وينبسط معهم ، كثير الاحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أنني أعلم أنه بقي عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمه إلى أن قال : ابتلاه الله تعالى بمخالفتي ، إن أحببت انسانا ابغضه ، وإن قدمته أخره ، وإن أعطيته حرمة ، ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويدلج عنه ولا يظهر له شيئا من ذلك .

- ٦٦٣ -

وكان رضي الله عنه يحلم عن نوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكناتهم ، ولقد قال يوما لمن يثق اليه : ما أجهل هؤلاء نوابي ، يخدمني أحدهم وليس له شيء وعليه دين ، فما ينقضي عليه سنة حتى يوفي في دينه ويعمر الدور والاملاك ويرسل إلي يطلب أن يشتري مني قرايا ، ولو أن لهم عقلا ادخروا الاموال واشتروا بها أملاكا من غيري ، فإنهم يعلمون أنني أعرف أحوالهم قديما وحديثا ، ومع هذه المعرفة فكان يغضي عنهم كأنه لا يعلم بشيء من أمرهم .

وكان - قدس الله روحه - كثير الاحسان الى رعيته والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الانفعال للخير

حكى لي أخي مجد الدين رحمه الله تعالى - وكان غاية الخبر به - قال : ما قلت له في شيء قط من عدل وبذل مال أو غير ذلك من الصلاح ، فقال لا ، وحكى لي أيضا عنه قال : كنت معه في بعض اسفاره ، وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغه ان ولد السرداد قد سرق من داره شيئا ، فأرسل الي ليلا يأمرني أن اكتب كتابا الى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إنني ما اكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت به غدا أعرفه ما عندي في هذا فأعاد ، مرة ثالثة وثالثة وأنا امتنع --- من ذلك ، فاستدعاني ، فحضرت عنده فقال لي : لم لا تكتب كتابا ؟ فقلت له : عادتي معكم انني لا اكتب الا ما تجيزه الشريعة ، فقال لي : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده ، فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفاقه برعيته وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديما في صباه ووجب عليه حقا ، وكان يؤثر ان يقدمه ويفوض إليه أمرا ، فولاية الموصل ، فسلك مع أهلها سيرة فيها بعض الخشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شيئا مما يفعله هذا النائب فعزله ، وبقي مدة معزولا ثم حملة طول خدمته له على ان

- ٦٦٠٥ -

فليس بشيء ، وسار ولم يقم فكان كما قال ، ليس فيهم من يحرك (ساكنا) ومن ذلك أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة وبلاد ارمينية ، وبعض ديار بكر وبقايتها في طاعته ، ومعه ايضا صاحب سنجار ، والملك المعظم صاحب إربل ، ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضي الله عنه كل قليل قد انشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل بسببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمراء الذين في عسكره بمصر والشام ، ليستعين بهم عليه ، وخوفا أن يميلوا إليه ، وبلغني ان العادل قال - وقد بلغه خبر حركته - : أي رجل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البلاد جميعها وهذه العساكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معي عليه وقد احدثنا به من جميع جهاته ، ومع هذا فلا يقنع منابسا لسلامة ، بل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعالى أعاننا بكثرة أمراضه لعجزنا عنه ، وبلغني أيضا أنه قال لما توفي السعيد نور الدين - قدس الله روحه - : ذهب من كان يخاف ، ومن ذلك أنه ذكر عنده يوما ملك والده السعيد قلعة حلب ، وأنه سلمها إلى أخيه عماد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجب منها ، والله لو ملكتها لجالدت صلاح الدين بالسيف بباب مصر .

وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بماردين من انقاذها من العسكر العادلي وإبقائها على صاحبها ، ولو أن ذا القرنين فعل ذلك لكان عظيما ، وما ذكرناه من طلب ملك البلاد فمن علو الهمة وكبر النفس .

وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية : سمعت أخى مجد الدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عند هذا المولى نور الدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل ما رأيناه ، ولقد رأيت كثيرا من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم اسرع إدراكا ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة خاطر . ولو رمت ذكر جياذ آرائه لاحتجت الى كثير من الأوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه في حياته

فأنا أذكر ما رأيته منه . فمن ذلك أن أخى مجد الدين - رحمه الله عليه - توفي سلخ ذي الحجة من سنة ست وستمائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين - رضي الله عنه - إلي ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتي أقول لك ، فإنني أريد أصلي عليه - وكان الزمان صيفا ، وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو مدعوك البدن - فلما كان العصر وفتر الحر ، أرسل إلي يأمرني بحمله الى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغني عنه انه بكى كثيرا وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك اظهر لنا من الهم بسببه شيئا كثيرا ، وحملنا له ما جرت العادة وفيه سجادة للصلاة ، فردده وسألني عن شيء كان بلائه بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فمد يده واخذها ، (حدث) هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضا إلى أن توفي بعده بسبعة أشهر ، رضي الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل

- ٦٦٠٧ -

دار المملكة ، وهي أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقف-وقف
الكثيرة ، وجعلها وقفا على ستين فقيها من الشافعية ، سوى ما
فيها من الصدقات الدارة والتعهدات للصوفية والفقراء .

ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين - قدس الله روحه كمسا نور
ضريحه - قد عهد الى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد
المنصور المظفر المجاهد المرابط عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام
والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ، ابي المظفر مسعود أعز الله
سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته
وأهانه .

وهذا دعاء لو سكت كفيته
لأنني سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها
بأنه ، ويستهل صعاب الأمور منه ، ويستحلي بقربه ، ويستلذ
نسم الهواء به ولم يزل في حجره ، وبين سحره ونحره ، فلما اشتد
بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ،
جدد العهود له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الأولياء من الأجناد
والأمراء والأعيان والأمثال والعلماء والأفاضل .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة
ولداته إذ ذاك في اشغال

قعدت بهم هماتهم وسمت به
همم الملوك وسورة الأبطال

فلما توفي السعيد رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم نذله
ومثواه ، قام مقامه ، وحفظ من الملك نظامه ، وتلافى ذلك
الافتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتفى اثر السعيد بأبيه ، في كل ما
يذره

اقصر كل الخلق عن شأوه
حسرى وطال الكل إذ طالوه

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفات ما لم يسبقه من مضى ولا يدركه من هــوأت ، عممت الأمير والمأمور ، وشملت الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما غير على حاتم وكعب ، وحير كل ذي عقل ولب ، وهذا موضع المثل : ليس السرف في الشرف ، وحين استقر في الدست ظهر عليه من علو الهمة الى معالي الأمور ، ومحبة العدل في سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق من الحلم والسخاء ، والعفو والاباء ، ما لم يجاراه فيه احد الا وسبقه ثانيا من عنانه ، ولم يباراه ملك الا وجاء سكيكنا (١٤٦) في ميدانه ، واشتهر عنه من العدل ما لو رآه كسرى لعاد خجلا يتعثر بأنياله ، ولا يستتر حياء من وراء حجاله .

- 363 -

- ٦٦٠٩ -

ملك إذا افتخرت بأبائه العلى
أولادها فخرت به أبأؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه
في المكرمات الغر خاب عناؤه
ملك الجلال فأشرقت لآلأؤه
وحبى الجميل فأعرقى آلأؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال
الكتاب ، ولكننا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على
نظائرها ، وهي ، أنه - خلد سلطانه - جلس في دار العدل
للانصاف ، والأخذ للضعفاء من الأقوياء والأشراف ، فحضرت
امراة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها ببندقية عند
الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر باحضاره الى الحاكم
وهو عنده ، فحضر وسأوى خصمه وقيل له البية أو
القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق
بالنجاة ، فأرضى خصمه بمال بـذله ، وعن القصاص
استنزله ، فعادت الامراة وذكرت انها قد رضيت وعفت عن
حقها ، وهذه حالة لم يسمع بمثلا ، ولم يدون في كتب التواريخ
عدلها .

يا ليت شعري من هذي مكارمه
ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل صالحة ، ودفع عن حضرته
العلية كل فاحشة ، ووفقه للصواب في الأقوال والأفعال ، ولازال
سلطانه قـاهرا ، وفلك سعادته دائرا ، ولا يـرح جـد عدوه
عائرا ، وذكره خاملا دائرا .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله

جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملا ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعده ولله المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره ، أراد أن يشد أزره بمن يجعله له وزيراً ، وعلى ما فوض إليه من أعباء المملكة ظهيراً ، ليكون مدبراً لدولته ، وناظراً في مهام مملكته ، ونائباً عنه في ولاية رعيته ، فاعتبر خـواصه وأوليائه ، ومماليكه وأصفياءه ، وكفاته وأمرأه ليختار منهم من يكون أهلاً لهذا الأمر الكبير ، وقيماً بهذا الشأن الخطير ، فلم ير فيهم أقوم سيرة ، ولا أخلص سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروءة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ولا أحسن اصطلاحاً ، ولا أكثر للحق اتباعاً ، ولا أعدل منه احكاماً ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاماً ، من المولى الأمير اصفهسلار الكبير العادل الكامل الأسعد المقبل بدر الدين (لؤلؤ ١٤٧)) عضد الاسلام وسيد الأمراء ، حسام أمير المؤمنين اسبغ الله ظله ، وأعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

أوحده الله فما مثله

لطالب ذاك ولا ناشد

ليس على الله بمستذكر

أن يجمع العالم في واحد

فحيث ، وجد ما كان يذشه ، بهظفر بما كان يريده ويقصده ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه في أمـواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولي الوافي ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافي ، وقد كان - رضي الله عنه - يتفرد في هذا الأمير ، إستحقاق التقدم والتسيير ، فلم يزل يدرجه بين الطافه وكرامته ، وولاياته واقطاعاته ، من رتبة إلى أخرى هي أعلى منها مكاناً ، وأرفع شأنًا ، إلى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام في خدمة المولى الملك القاهر

- ٦٦١١ -

مقاما يحمده عليه الداني والقاضي ، والمطيع والعاصي ، والباسدي
والحاضر ، والمنجد والفائز ، ولقد جاء على حين فترة من
الكرام ، وكثرة من اللثام ، فجدد من أعلام السيانة ما كان
بارسا ، وأضحك من ثغور المروءة ما كان عابسا ، واختالت الدولة
من حسن تدبيره اختيال العروس ، ورفلت من صائب آرائه في
أحسن لبوس ، واقتخر به نهره على سائر الدهور .

إذا نحن اثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحه
لغيرك إذسانا فأنت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطره من
بحر مكارمه تناسب هذا المختصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما
اعتمدناه ، وتركنا ما قصناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأثي على
كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو
حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليما كثيرا .

حواشي ابن جبير

- ١ - كذا : صاحب الدوصل سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي ، وصاحب سنجار أخوه بن زنكي الثاني . وتضبط معلومات ابن جبير على ما أورده ابن الأثير في الباهر وعاء جاء في المصادر الأخرى في موسوعتنا .
- ٢ - أي أصابه الهزال بسبب التبتل .
- ٣ - قطب الدين أيلغازي بن أبي الارتقي ، تقدم ذكره في تاريخ أمدوميافارقين .
- ٤ - انظر المعجب لعبد الواحد المراكشي - ط . القاهرة ١٩١٤ ص ٤٠ حيث نسبته للحسن بن رشيق .
- ٥ - أي الخنازير لاسيما الاناث منها .
- ٦ - أي برزت .
- ٧ - الملك هنا : الزواج
- ٨ - سورة ص - الآية : ٤٢
- ٩ - مسوفة إحدى قبائل المرابطين . انظر الحلل الموشية ص ١٧ .
- ١٠ - المقصود هنا مقبرة باب الصغير .
- ١١ - سورة الاسراء - الآية : ٩٧
- ١٢ - كذا وهو وهم ، لأن سميساط مدينة على شاطئ الفرات . معجم البلدان والسميساطي هو أبو القاسم علي بن محمد ، وكان من أعيان دمشق .
- ١٣ - نسبة إلى الأخذف بن قيس التميمي الذي عاصر الامام علي وأوائل خلفاء بني أمية وشهر بالحلم .
- ١٤ - رشيد ذي نسبة إلى الخليفة هرون الرشيد ، والجعفري نسبة إلى جعفر المتوكل .
- ١٥ - عمري : نسبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
- ١٦ - كذا بالأصل .
- ١٧ - سورة الاعراف - الآية : ١٥٥ .
- ١٨ - سورة يوسف - الآية : ٩٠
- ١٩ - أي عمد تعريب كلمة Baptize
- ٢٠ - سورة طه - الآية : ١٢٧
- ٢١ - الرهو : السكون . القاموس

حواشي كتاب الباهر

- ١ - أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق .
٢ - الاشارة هنا إلى عز الدين مسعود صاحب الموصول (٦٠٧ - ٦١٥ هـ) / (١٢١٠ - ١٢١٨ م) الذي حمل لقب القاهر .
٣ - صاحب الموصول (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م)
٤ - سورة الحديد - الآية : ٣١
٥ - المخشلب . قطع الزجاج المتكسر أو الخزف . القاموس
٦ - الارض الجرز : التي لانبات فيها فهي مجدية . النهاية لابن الاثير .
٧ - لم يذكر اسمه ولعله صاحب ملك نامة
٨ - كذا وهو شاذ لأن المتداول : « جلال الدين » .
٩ - حصن كيفا ، وتمت معالجة هذه المسائل من قبل في الجزء الاول من كتاب المنخل .
١٠ - بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الاسفل . معجم البلدان .
١١ - هذا لقب رتبة بيزنطية عسكرية وليس اسما لعلم من الاعلام .
١٢ - بين بغداد والانباء . معجم البلدان .
١٣ - كورة من نواحي نيسابور . معجم البلدان
١٤ - كذا بالأصل وهو وهم صوابه حذف « من اولاد » كما تقدم معنا في الجزء الاول من المنخل .
١٥ - يرجع أنه مات مسموما .
١٦ - طراز من بلاد ما وراء النهر ، وأيضا كاشغر ، وكذلك بلاساغون . معجم البلدان .
١٧ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين لابي شامة .
١٨ - التراقي نوع من انواع الدماطل تظهر بالخلق .
١٩ - من غير المؤكد أنه خطب لتتش بالسلطنة في بغداد بل أنه رام ذلك وأخفق .
٢٠ - من انواع القوارب النهرية .
٢١ - كان آنذاك علي بن طراد الزينبي ، وكان من أبرز شخصيات عصره .
٢٢ - المتاع الخاص من أقمشة وملابس .
٢٣ - السانية الناقة التي يستقى عليها .
٢٤ - الجنذب : الجراد ، وصر : صوت وصاح شديدا . القاموس .
٢٥ - سورة الانفال - الآية : ٦٧ .
٢٦ - ديوان أبي تمام - ط . القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ٢١
٢٧ - من انواع المراكب النهرية .
٢٨ - هكذا سيذكره بعد أسطر .
٢٩ - سورة الانفال - الآية : ٣٢ .
٣٠ - أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ومنه .
٣١ - سورة الاحزاب - الآية : ٢٥ .
٣٢ - خربة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني ، قسم بلاد الشام ، ج ١ - ط دمشق ١٩٥٥ ص ٤٧٠ - ٤٧٣ مع فوارق
٣٣ - الميثرة : الثوب الذي تجل به الثياب فيملوها ، وهنة كهيئة المرفقة تتخذ للسر - القاموس .

- ٣٤- أي في بلد دمشق .
- ٣٥ - يهرين الان (بارين) قرية تتبع ناحية عوج - منطقة مصياف ، محافظة حماه في سورية . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
- ٣٦ - أي الرمح
- ٣٧ - من أيام معركة القادسية .
- ٣٨ - سورة الاحزاب - الآية : ٦٣ .
- ٣٩ - سورة ص - الآية : ٣ .
- ٤٠ - سورة النساء - الآية : ١٢٠
- ٤١ - وقعت العمالية في شمالي الموصل وهي من أعمالها . معجم البلدان
- ٤٢ - ماتزالان تحملان الاسم نفسه في عراق اليوم .
- ٤٣ - انظر ما تقدم حول هذا الامر نفسه لدى المصادر السريانية ولدى ابن الازرق الفارقي
- ٤٤ - أبو تمام الشاعر .
- ٤٥ - ديوان المتنبي - ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧٣ .
- ٤٦ - أي يبطن أمرا ويظهر سواه .
- ٤٧ - سورة الاعراف - الآية : ١٤٩ .
- ٤٨ - سورة هود - الآية : ١٠٢
- ٤٩ - الخامع : الضبع .
- ٥٠ - سورة الاسراء - الآية : ٨١ .
- ٥١ - سورة النور - الآية : ٥٥ .
- ٥٢ - اضافة من السياق نفسه .
- ٥٣ - الزوزان كورة بين اخلاط واذريجان وبيار بكر والموصل معجم البلدان
- ٥٤ - اضافة مما نقله صاحب الروضتين كما سيمر معنا .
- ٥٥ - فاط : مات . القاموس .
- ٥٦ - يوم الهبأة من ايام العرب قبل الاسلام بين عيس وذيبيان . وكان البراض بن قيس مرز فتاك العرب قبل الاسلام وهو الذي تسبب بحرب الفجار ، والحجاف هو ابن حكيم ، كان من فتاك العرب في الاسلام وهو الذي أوقع بتغلب يوم البشر ، والحجاف هو سيل حجف كل شيء بمكة سنة ثمانين للهجرة .
- ٥٧ - على مقربة من الرقة عند موقع أبي هريرة .
- ٥٨ - نوع من الفطير المصنوع من السكر والفسق والزبد .
- ٥٩ - زيادة اقتضاها السياق .
- ٦٠ - بلد قريب من الرحبة . معجم البلدان .
- ٦١ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين .
- ٦٢ - مدينة على نجلة فوق الموصل . معجم البلدان .
- ٦٣ - بقعاء الموصل . انظر مائة الموصل في معجم البلدان .
- ٦٤ - سورة التوبة - الآية : ١١١ .
- ٦٥ - على مقربة من خانق الربوة خارج دمشق .
- ٦٦ - سورة الصافات - الآية : ٤٤ .
- ٦٧ - بين نصيبين وماردين . معجم البلدان
- ٦٨ - وقعت بغرى في منطقة العمق .
- ٦٩ - هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، من شعراء الخريدة - قسم بلاد الشام - ح ١ ص ٩٦ - ١٦٠ .
- ٧٠ - هو سعد بن محمد بن صفي التميمي (ت ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م) انظر ترجمته في بغية

- ٦٦٦ -

- الطلب لابن العديم - ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٤٢٦٢ - ٤٢٧١ . وقد طبع ديوانه في بغداد عام ١٩٧٤ .
- ٧١ - زينة اقتضاها السياق ومنه اخذت .
- ٧٢ - لانتوافق هذه التفاصيل مع الخبر المتقدم .
- ٧٣ - هذه الابيات لابن منير الطرابلسي ، انظر ديوانه - ط . طرابلس ١٩٨٦ ص ٢٠٨ - ٢١٤ .
- ٧٤ - ديوانه ص ٢١٥ - ٢١٨ .
- ٧٥ - زيد ما بين العاصرتين من الكامل لابن الاثير ح ٩ ص : ٢٩ .
- ٧٦ - سورة قاطر - الآية : ٤٣ .
- ٧٧ - انظر الخريدة - قسم بلاد الشام - ح ١ ص - ١٥٧ - ١٥٩ ، هنا جميع المواقع المذكورة في نواحي حلب .
- ٧٨ - السجل الثوب الذي لا يبرم غزله أو الحبل ، والامرار القوة والاهكام .
- ٧٩ - ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .
- ٨٠ - ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢١٥ - ٢١٨ مع فوارق كبيرة .
- ٨١ - في الكامل ج ٩ ص ٣١ ، سبع وأربعين ، ، وهو الاصح كما هو واضح من السياق .
- ٨٢ - كانت رئاسة دمشق آنذاك لرجال من آل الصوفي غالبا ما كانوا على غير وئام مع أمراء الدولة البورية .
- ٨٣ - ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٦٢ - ١٦٣ .
- ٨٤ - كذا وهو وهم ، فقد ظهر بنو منذر أولا في كفر طاب ، وذلك مع بدايات تاريخ الدولة المرداسية ، ثم جاء الاستيلاء على شيزر مع سقوط حكم بني مرداس في حلب ، وسلف لي معالجة هذا كله في الجزء الاول من كتاب المنخل من موسوعتنا هذه .
- ٨٥ - قلعة لاترام في الجبال التي إلى شرقي الموصل . معجم البلدان .
- ٨٦ - أورد ابن الجوزي أخبار هذه الاحداث في كتابه المنتظم في جوادث سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وقد قمت بتحقيق كتاب المنتظم وهو قد شارف على الانتهاء طباعة .
- ٨٧ - محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد . معجم البلدان .
- ٨٨ - اليزك لفظ فارسي معناه الطليعة .
- ٨٩ - هي بحيرة قطينة الحالية .
- ٩٠ - أضيف ما بين العاصرتين من الروضتين ومفيد مقارنة هذه المعلومات مع المواد التي ستمر معنا في نص البئر العيني .
- ٩١ - المشهور أن جيش الطواويس هو الجيش الذي أرسله الحاج بختيارة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث للقتال ضد رتييل صاحب كابل .
- ٩٢ - عم قرية بين انطاكية وحلب . معجم البلدان .
- ٩٣ - في منطقة صافيتا التابعة لمحافظة طرطوس قرية اسمها السريده ، تبعد عن طرطوس مسافة ٣٢ كم ، فلعلها المقصودة هنا .
- ٩٤ - ليس لواحد من هؤلاء ترجمة فيما وصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم الذي كنت قد حققته وطبعته في دمشق ١٩٨٨ .
- ٩٥ - واد بين مكة والطائف . معجم البلدان .
- ٩٦ - الاضافات من الروضتين .
- ٩٧ - تطلق العرب على فص الياقوت اسم جبل .
- ٩٨ - ديوان ابن منير ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
- ٩٩ - المنيطرة حصن قرب طرابلس . معجم البلدان .

- ٦٦١٧ -

- ١٠٠ - سورة الاعراف - الآية : ٩٥ .
 ١٠١ - الدرفش : المخرن ، والدسترك : مذشار صغير .
 ١٠٢ - سورة آل عمران - الآية : ٢٦ .
 ١٠٣ - سورة الرعد - الآية : ٣٩ .
 ١٠٤ - سورة آل عمران - الآية : ٥٤ .
 ١٠٥ - سورة البقرة - الآية : ٢١٦ .
 ١٠٦ - سورة النساء - الآية : ١١٩ .
 ١٠٧ - سورة الانعام - الآية : ٤٤ .
 ١٠٨ - قال هذا الخارجي الذي حاول اغتيال عمرو بن العاص فأخفق .
 ١٠٩ - سورة الاحزاب - الآية : ٢٥ .
 ١١٠ - في احوال بلدة نوى في حوران
 ١١ - سورة الانفال - الآية : ٤٢ .
 ١١٢ - سورة البقرة - الآية : ٢٤٩ .
 ١١٣ - الجنايات هنا ماكان يفرض من قبل السلطة من غرائب وغرامات تأديبية
 ١١٤ - الكهفور : من السحاب قطع كالجبال ، او المتراكم منه ، والال : السراب . القاموس
 ١١٥ - الاضافات من الكامل ح ٩ ص ١٠٩ .
 ١١٦ - الاضافة من الروضتين
 ١١٧ - بائع فقاغ . والفقاغ شراب يتخذ من الشعير .
 ١١٨ - الاضافة بين الحاصرتين من الروضتين .
 ١١٩ - التركش بالفارسية : الجمعة .
 ١٢٠ - قال هذا العماد في مطلع كتابه البرق الشافي ، انظر سنا البرق الشامي . ط . القاهرة
 ١٩٧٩ ص ١٦ .
 ١٢١ - سورة الانفال - الآية : ٤٢ .
 ١٢٢ - سورة الاسراء - الآية : ٥٨ .
 ١٢٣ - سورة الاحزاب ، لاية ٣٨
 ١٢٤ - كان والد ابن المقدم هو الذي سلم من قبل سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م سنجار لنور الدين ،
 وذلك خروجا عن امر سيده صاحب الموصل .
 ١٢٥ - البرسام : علة يهذى . فيها . القاموس .
 ١٢٦ - الاضافتان من الكامل ج ٩ ص ١٤٨
 ١٢٧ - جاء هذا العنوان بالاصل مشوشا هكذا : « فصل في سبب قضية الذي جرت في ذكر القبض
 على مجاهد بن قايماز وماتبعه من الوهن » ولعل ما اثبتناه هو الصواب .
 ١٢٨ - بيشكاه فارسية معناها : صدر المجلس رئيس . ذو مقام عال .
 ١٢٩ - تل موزن بلد بين رأس عين وسروج . معجم البلدان
 ١٣٠ - الاضافات من الروضتين .
 ١٣١ - بياض بالاصل
 ١٣٢ - باجبارة : قرية على نحو ميل من الموصل الى الشرق منها . معجم البلدان
 ١٣٣ - حاصر صلاح الدين الموصل اكثر من مرة
 ١٣٤ - سورة الصدف - الآية : ٨
 ١٣٥ - اضيف ما بين الحاصرتين من - مخرج الكروب لابن واصل الحموي ج ١ - ط . القاهرة
 ١٩٥٧ ص ٢٣ .
 ١٣٦ - زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٩ .
 ١٣٧ - فراغ بالاصل .

- ٦٦١٨ -

- ١٣٨ - اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠
١٣٩ - زيد ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠
١٤٠ - اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٨
١٤١ - كان صاحب ماريين انناك يولق بن ايلغازي بن ارتق . انظر الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ .
١٤٢ البيكار كلمة فارسية معناها الحرب والمخاربة .
١٤٣ - الاضافة من الكامل ج ٩ ص ٣٠١
١٤٤ - لعلها التي بين اسعرت وجزيرة ابن عمر . معجم البلدان .
١٤٥ - استخرج هذا الرقم تقديرا مما تقدم . فقد جاء مكانه بياض بالاصل .
١٤٦ - الاسكيت : آخر خيول الحلبة . القاموس .
١٤٧ - اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٣٠٤

المحتوى

٣ - توطئة
١١ - مشاهدات ابن جبير في بلاد الشام
١٣ - ذكر مدينة الموصل
١٦ - ذكر مدينة نفيسر
٢٠ - ذكر مدينة رأس العين
٢٢ - ذكر مدينة حران
٢٦ - ذكر مدينة منبج
٢٧ - ذكر بلدة بزاعة
٢٧ - ذكر مدينة حلب
٣١ - ذكر مدينة حماه
٣٣ - ذكر مدينة حمص
٣٥ - شهر ربيع الآخر
٣٦ - ذكر مدينة دمشق
٣٦ - ذكر جامعها المكرم
٤٣ - شهر ربيع الاول مع وصف دمشق
٥٧ - شهر ربيع الآخر
٥٩ - ذكر مدينة بانياس
٦٢ - ذكر مدينة عكة
٦٣ - ذكر مدينة صور
٦٩ - شهر رجب الفرد
☆ ☆ ☆

٧٢ - من تاريخ عهد اللطيف البغدادي ورحلته
٧٤ - الخليفة الناصر
٧٨ - المستنصر
٧٩ - راشد الدين سنان
٨٠ - الملك العزيز
٨٠ - الملك الظاهر
٨٢ - الملك العادل
٨٦ - الوزير ابن شكر
٨٨ - الحاجب أولو
٨٩ - يازكوج الاسدي
٨٩ - اخو القاهي القاضل
٨٩ - محمد بن محمد بن سنان
٩١ - حوادث سنة ٥٩٧
١٠٠ - حوادث سنة ٥٩٨

- ١٠٨ - الباهر في الدولة الاتابكية
- ١١٠ - خطبة الكتاب
- ١١٣ - ابتداء حال قسيم الدولة آسنقر
- ١١٥ - مسير قسيم الدولة مع ابن جهير الى الموصل
- ١١٦ - ملك قسيم الدولة لحلب
- ١٢٠ - وفاة السلطان ملكشاه
- ١٢٣ - صلح آسنقر وتتش
- ١٢٤ - وفاة الخليفة المقتدي وولاية المستظهر
- ١٢٦ - قتل آسنقر
- ١٢٧ - حال ولده زنكي بعده
- ١٣٢ - وفاة السلطان محمد بن ملكشاه
- ١٣٤ - وفاة الخليفة المستظهر
- ١٣٥ - الحرب بين السلطانيين محمود ومسعود
- ١٣٧ - ولاية البرسقي الموصل
- ١٣٨ - اقطاع زنكي واسط
- ١٣٩ - هزيمة دبيس وعسكر بغداد
- ١٤١ - اتصال زنكي بالسلطان محمود
- ١٤٣ - اقطاع زنكي البصرة
- ١٤٣ - ولاية زنكي شهنكية بغداد
- ١٤٦ - قتل البرسقي
- ١٤٧ - ولاية مسعود بن البرسقي ووفاته
- ١٤٨ - ولاية زنكي الموصل
- ١٥٢ - ملك زنكي جزيرة ابن عمر
- ١٥٢ - ملك زنكي الجزيرة
- ١٥٤ - ملك زنكي حلب وحماه
- ١٥٥ - حروب زنكي مع الاراتقة
- ١٥٦ - فتح زنكي حصن الاثارب
- ١٥٩ - وفاة السلطان محمود بن محمد
- ١٦٠ - ملك السلطان مسعود
- ١٦٣ - وصول زنكي الى بغداد وهزيمته
- ١٦٤ - مصير دبيس عند زنكي
- ١٦٥ - حصر الخليفة المسترشد بغداد
- ١٦٦ - ملك الشهيد قلاع الحميرية
- ١٦٧ - مقتل الخليفة المسترشد وخلافة الراشد
- ١٧٠ - مسير الراشد الى الموصل
- ١٧٢ - خلع الراشد
- ١٧٤ - خروج ملك الروم الى الشام
- ١٧٨ - حصار دمشق وبعليك من قبل زنكي
- ١٧٩ - فتح حصن يارين وهزيمة الفرنج
- ١٨٢ - حصار الروم والفرنج حلب
- ١٨٥ - ملك زنكي للشعباني وبناء العمادية

- ٦٦٢٢ -

- ١٨٥ - الوحشة بين السلطان مسعود وزنكي
- ١٨٧ - ملك زنكي عدة حصون من نيار بكر
- ١٨٧ - فتح زنكي الرها
- ١٨٣ - محاصرة زنكي للبيرة
- ١٨٣ - مقتل جقر بالموصل
- ١٩٤ - ولاية زين الدين الموصل
- ١٩٥ - حصر حصن فنك
- ١٩٦ - حصار قلعة جعبر
- ١٩٦ - مقتل زنكي
- ١٩٩ - سيرة زنكي
- ٢٠٢ - حسن رايه
- ٢٠٤ - هيبته
- ٢٠٦ - صدقاته
- ٢٠٧ - قوة عزمه
- ٢٠٩ - غيرته
- ٢١٠ - ما فعله جمال الدين الوزير
- ٢١٢ - عصيان اهل الرها وفتحها الثاني
- ٢١٣ - اجتماع نور الدين وسيف الدين ابني زنكي
- ٢١٤ - نزول الفرنج على حلب
- ٢١٦ - فتح نور الدين المريمة
- ٢١٧ - ملك سيف الدين دارا
- ٢١٧ - حصار قلعة ماردين
- ٢١٨ - غزو الفرنج بيفري
- ٢١٩ - وفاة سيف الدين غازي وبعض سيرته
- ٢٢١ - ملك قطب الدين الموصل
- ٢٢٢ - ملك نور الدين الموصل
- ٢٢٢ - ملك نور الدين سنجار
- ٢٢٥ - قضية قلعة سنجار
- ٢٢٦ - قتل البرنس صاحب انطاكية
- ٢٣٠ - ملك نور الدين افامية
- ٢٣١ - الحرب بين نور الدين وجوسلين
- ٢٣١ - اسر جوسلين
- ٢٣٤ - المصاف مع الفرنج بدلوك
- ٢٣٦ - وفاة السلطان مسعود
- ٢٣٨ - ملك نور الدين دمشق
- ٢٤٠ - القبض على سليمان شاه وهمله الى الموصل
- ٢٤١ - حصر نور الدين حارم
- ٢٤٣ - زلازل الشام
- ٢٤٣ - ملك نور الدين شيزر
- ٢٤٧ - وفاة عز الدين الديبسي
- ٢٤٨ - حصار الملك محمد بغداد

- ٢٤٩ - وفاة المقتدي
- ٢٥٠ - مسير سليمان شاه الى همذان
- ٢٥١ - حصر نور الدين حارم .
- ٢٥٢ - انهزام نور الدين بحصن الاكراد
- ٢٥٤ - القبض على جمال الدين الوزير
- ٢٥٥ - مسير شيركوه الى مصر
- ٢٥٩ - فتح حصن حارم
- ٢٦٣ - وقعة حارم
- ٢٦٤ - وفاة جمال الدين الوزير
- ٢٦٥ - شيء من اخباره
- ٢٦٩ - فتح قلعة بانياس
- ٢٧٠ - فتح المنيطرة
- ٢٧٠ - عودة شيركوه الى مصر ثانية
- ٢٧٢ - ملك اسد الدين الاسكندرية
- ٢٧٤ - عصيان غازي
- ٢٧٤ - مفارقة زين الدين الموصل
- ٢٧٦ - ملك نور الدين قلعة جعبر
- ٢٧٧ - مسير شيركوه ثالثة الى مصر
- ٢٨٢ - وفاة شيركوه وملك صلاح الدين
- ٢٨٥ - حصر الفرنج دمياط
- ٢٨٦ - حصر نور الدين المراك
- ٢٨٧ - زلازل الشام
- ٢٨٧ - غزوة لسرية دورية
- ٢٨٨ - وفاة قطب الدين بن زكي
- ٢٨٩ - حادثة تحدث على العدل
- ٢٩١ - سيرة قطب الدين
- ٢٩٤ - وفاة الخليفة المستنجد وولاية المستنجد
- ٢٩٦ - ملك نور الدين الموصل
- ٢٩٩ - نادرة غريبة
- ٣٠١ - انقراض الدولة الفاطمية
- ٣٠٤ - الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين
- ٣٠٦ - قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان
- ٣٠٨ - وفاة نور الدين
- ٣٠٩ - ولاية الصالح اسماعيل
- ٣١٠ - بعض سيرة نور الدين
- ٣١٤ - عدل نور الدين
- ٣١٧ - ما فعله من المصالح
- ٣١٨ - بناء دار العدل
- ٣٢٢ - وقاره وهيئته
- ٣٢٣ - حفظه اصول النيات
- ٣٢٤ - كلام العماد الاصفهاني فيه
- ٣٢٥ - استيلاء غازي على بلاد الجزيرة

- ٦٦٢٤ -

- ٣٢٧ - وصول صلاح الدين الى دمشق
- ٣٢٨ - ولاية قايمارز الموصل
- ٣٢٩ - عصيان ابن بوزان
- ٣٣٠ - القبض على كمشكين
- ٣٣٠ - الفلاء والوباء
- ٣٣١ - وفاة الخليفة المستضيء وشيء من سيرته
- ٣٣٢ - وفاة غازي بن مودود
- ٣٣٣ - مملكة عز الدين الموصل
- ٣٣٤ - وفاة الصالح اسماعيل
- ٣٣٦ - القبض على قايمارز
- ٣٣٧ - حصر الجزيرة
- ٣٣٨ - وفاة عز الدين
- ٣٤٠ - شيء من سيرة عز الدين
- ٣٤٤ - ملك نور الدين بن عز الدين الموصل
- ٣٤٧ - وفاة زنكي الثاني
- ٣٤٧ - ملك نور الدين الثاني نصيبين
- ٣٥٠ - وفاة قايمارز
- ٣٥١ - ما فعله نور الدين بماردين
- ٣٥٢ - وفاة صلاح الدين
- ٣٥٥ - حصر العادل الايوبي سنجار
- ٣٥٦ - وفاة نور الدين الثاني
- ٣٥٧ - شيء من سيرة نور الدين
- ٣٦٢ - ملك الملك القاهر الموصل
- ٣٦٨ - الحواشي والتعليقات